
كتابي
١٩
الجزء الرابع
د. چيڤاجو
Looloo
www.dvd4arab.com
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع



الجزء الرابع

د. جيفاجو

بوريس باسترناك

الفصل الثالث عشر

تجاه الدار ذات الأعمدة

– ١ –

كان شارع التاجر ينحدر متعرجا على سفح التل ، تطل عليه دور وكنائس الشطر الأعلى من (يورياتين) . وفى أحد الأركان كان ثمة مبنى داكن السمرة ، ذو أعمدة . وكانت الأحجار المربعة الضخمة — التى تؤلف القسم الأسفل من واجهته — سوداء لفرط ما لصق عليها حديثا من أوراق صحف الحكومة واعلاناتها الرسمية ، وقد وقفت أمام المبنى زرافات صغيرة من الناس ، تطالع فى صمت .

وكان الجليد قد بدأ فى الذوبان ، ولكن الجو كان جافا ، مشوبا ببرودة الصقيع ، وقد أصبح ضوء النهار يمكث إلى وقت كانت الظلمة تهبط فيه ، منذ عهد قريب . فلقد ولى الشتاء ، وحل محله النور الذى أخذ يتلكأ إلى ما بعد بداية الأمسيات .. وكان النور مبهجا ، ممضا ، مزعجا !

وكان البيض قد رحلوا ، مسلمين البلدة إلى الحمر ، فتوقفت أهوال الحرب ، واطلاق القنابل وإراقة الدماء وكان هذا ممضا هو الآخر ، كذهاب الشتاء ، واستطالة نهار الربيع .

وكان أحد الاعلانات الرسمية الملصقة على الجدار ، والتى ظلت مقروءة على ضوء النهار — الذى ازداد طولا — يعلن أن :

« دفاتر العمل ميسورة لذوى المؤهلات — بسعر ٥٠ روبل للدفتر — فى مكتب الأغذية ، بسوفييت يورياتين ، رقم ٥ بشارع أكتوبر (شارع الحاكم العام سابقا) ، بالحجرة رقم ١٣٧ .

« وكل شخص بدون دفتر عمل ، أو يملأ دفتره ببيانات غير صحيحة ، أو (وهذا أسوأ) يثبت بيانات كاذبة ، يتعرض لأشد العقوبات ، وفقا للوائح زمن الحرب . والتعليمات المفصلة — فيما يتعلق باستخدام دفاتر العمل استخداما صحيحا — مطبوعة فى أ.ن.أ.ك ، العدد ٨٦ (١٠١٣) من مجموعة العام الحالى ، كما أنها معلقة بمكتب أغذية يورياتين ، بالحجرة رقم ١٣٧ » .

وأكد إعلان آخر أن بالبلدة كميات وفيرة من الأغذية ، ولكنها — كما زعم — مختزنة لدى « البورجوازيين » ، بغرض الإخلال بالتوزيع ، وخلق الفوضى . ثم اختتم بهذه الكلمات :

« كل من يوجد مختزنا أطعمة ، سيقتل بالرصاص فورا » .

وجاء فى إعلان ثالث :

« كل من لا ينتمى إلى الطبقة الاستقلالية ، يقبل فى عضوية « كوميونات » المستهلكين . ويمكن الحصول على التفصيلات من مكتب الأغذية ، بسوفييت يورياتين ، رقم ٥ شارع أكتوبر (شارع الحاكم العام سابقا) ، بالحجرة رقم ١٣٧ » .

وكان ثمة إنذار لأعضاء القوات المسلحة :

« كل من يغفل تسليم اسلحته ، او يستمر فى حملها بدون الحصول على الترخيص اللازم الجديد ، سيعاقب باقصى ما فى القانون من شدة . ومن الممكن الحصول على الترخيصات الجديدة من مكتب اللجنة الثورية العسكرية ليورياتين ، رقم ٦ بشارع اكتوبر ، بالحجرة رقم ٦٣ » .

— ٢ —

وانضم إلى الجمع ـ الذى كان امام المبنى ـ رجل هزيل ، يحمل على كتفه عصا تنتهى بكيس من لحاء شجر التامول . ولم تكن قد ظهرت بعد شعرة بيضاء واحدة فى شعره الطويل ، الكث ، ولكن لحيته المحمرة اللون ، الشوكية الشعر ، كانت قد بدات تميل إلى الشيب .

ذلك كان الدكتور يورى جيفاجو ! .. ولا بد ان معطفه المصنوع من الفرو قد اخذ منه فى الطريق ، او لعله قد قايض عليه بطعام ، ولا بد ان سترته الخفيفة ، الممزقة ، القصيرة الكمين ، كانت نتيجة المقايضة ! .. وكان كل ما تبقى فى كيسه عبارة عن بقية من خبز مقدد ، كان شخص ما قد منحه اياه — على سبيل الإحسان — فى قرية قريبة من البلدة ، وقطعة من شحم الخنزير !

وكان قد وصل إلى (يورياتين) منذ فترة من الوقت ، ولكنه استغرق ساعة فى جر قدميه من أطراف البلدة إلى هذا الركن من شارع التاجر ، فقد كان ضعفه بالغا ، وكانت الأيام

القلائل الأخيرة من رحلته قد انهكت قواه ايما إنهاك . وكم من مرة توقف فيها عن السير ، وراح يغالب نفسه حتى لا يهوى على ركبتيه ويقبل احجار هذه البلدة التى كان قد يئس من ان يراها ثانية . فلقد ملأته رؤيتها غبطة وهناء ، وكانه راى صديقا حميما .

وكان قد تبع فى حوالى نصف رحلته — التى اجتاز فيها سيبريا على قدميه — الخط الحديدى الذى كان معطلا ، مهملا ، مغطى بالثلوج . وكانت القطارات التى هجرها البيض تقف حاملة قطارا إثر قطار ، وقد عطلها انهزام كولشاك ، ونفاد الوقود ، وهبوب العواصف الثلجية . وكانت تمتد متلاحقة اميالا باكملها ، وقد كفت نهائيا عن الحراك ، وغاصت فى الجليد .. واستخدم بعضها كحصون لعصابات اللصوص المسلحة ، او كمخابىء للمجرمين الهاربين او للفارين من الاضطهاد السياسى ، الذين كانوا مضطرين إلى ان يهيموا على وجوههم فى تلك الأيام . على ان معظم تلك القطارات كانت مخازن شعبية لجثث الموتى .. قبورا جماعية لضحايا البرد والتيفوس الذى كان ينطلق كالوحش الهائج على طول الخط الحديدى ، والذى كان يحصد قرى باكملها فى البطاح المجاورة !

وإذا كان قد قدر يوما للقول السائر بان « الإنسان ذئب لأخيه » ان يطابق الواقع ، فإنما كان ذلك فى تلك الأيام . فقد كان المسافر ينأى عن الطريق عندما يقع بصره على مسافر آخر ، وكان الغريب يقتل الغريب الذى يلقاه خشية ان يبادر

هذا فيقتله هو . وفى بعض حالات منعزلة ، كان الإنسان ينهش لحم اخيه . فقد توقفت قوانين الحضارة الإنسانية عن السريان ، واصبحت شريعة الغاب هى القوانين التى خضع الناس لها .. بل إن الأحلام التى راودتهم كانت احلام اهل الكهف فى العصور السابقة للتاريخ .

وكان « يورى » يرى — بين وقت وآخر — اشباحا تتسلل فرادى على طول الخنادق ، أو تعبر الطريق امامه فى عجلة وتسرع . فكان يتحاشاها فى حذر ما استطاع ، بيد ان كثيرا من اصحابها كانوا يتراءون له مألوفين ، فكان يحس كما لو انه قد رآهم جميعا فى معسكر العصابة . ولقد صدق حدسه فى إحدى المرات ، فإن الشاب الذى برز من وراء ركام جليدى — كان يخفى احدى عربات النوم الدولية — والذى نفض عنه الجليد ، ومرق مبتعدا ، كان من افراد « اخوة الغابة » فعلا .. كان ترينتى جالوزين الذى ساد الاعتقاد بأنه قد قتل رميا بالرصاص ، فى حين انه كان قد جرح فقط ، وفقد وعيه .. حتى إذا افاق ، راح يزحف مبتعدا عن مكان الإعدام، ثم اختبأ فى الغابة إلى أن برىء من جراحه .. وها هو ذا يسعى فى طريقه إلى (هوليكروس) — موطنه — تحت اسم مزعوم ، وهو يختبىء فى العربات الدفينة تحت الجليد ، ويهرب إذا ما وقع بصره على آدميين !

* * *

وكانت الأحداث التى صادفت « يورى » فى رحلته تتسم بغرابة الظواهر المجردة من الطابع الدنيوى ، وكأنها صور

خاطفة من حيوات تجرى على كواكب اخرى ، وقد جرفها تيار ما إلى الأرض .. ولم يبق وفيا للتاريخ البشرى سوى الطبيعة ، فاحتفظت بالمظهر الذى سجله الرسامون المعاصرون فى لوحاتهم .. فبين الحين والحين ، كان ثمة غروب هادىء تختلط فيه الظلمة باللون الوردى ، وبالغسق الباهت ، وتتراءى فيه اشجار التامول سوداء ، رفيعة — اشبه بالكتابة حين تبدو تحت ضوء محتضر — والجداول معتمة تلفها سحابات من الثلج الرمادى ، وهى تجرى بين ضفاف منحدرة من الجليد الأبيض الذى اسمرت حوافه من جراء تآكلها بفعل الماء الجارى .. وهكذا كان من المرتقب — بعد ساعة أو اثنتين — أن يهبط المساء فى (يورياتين) .. مساء صقيعى ، رمادى ، شفاف ، أشبه بفراء القطط ذات الشعر الشبيه بالقطن المندوف !

وكان يورى يعتزم ان يقرأ الإعلانات الملصقة على البيت ذى الأعمدة ، ولكن عينيه راحتا تشردان لتتطلعا إلى نوافذ الطابق الثالث من الدار المقابلة .. تلك كانت نوافذ الحجرات التى اختزن فيها اثاث السكان السابقين .. لقد كان زجاج هذه النوافذ مطليا بالجير الأبيض يوما ما ، ومع أن الصقيع ظل يبسط عليه ستارا ، إلا أن يورى استطاع ان يرى انه — اى الزجاج — قد اصبح شفافا .. كان من الجلى أن الطلاء الأبيض قد محى عنه ، فماذا يعنى هذا ؟ .. ايكون السكان القدامى قد عادوا إلى المسكن ؟ .. او ان « لارا » قد انتقلت منه ، وحل محلها سكان جدد ، وتبدل كل شىء تبدلا تاما ؟

وكان عدم الاطمئنان اكثر مما يطيق يورى ، فعبر الطريق ، وولج البيت ، وصعد درجات السلم التى كان يعرفها تمام المعرفة . . كم من مرة راح يتمثل — فى المعسكر — كل لفة وكل طية فى النقوش المفرغة فى درجاتها المصنوعة من الحديد الزهر ! . . وكان من الممكن ان يرسل المرء البصر — خلال ناحية منها — إلى مخزن المهملات فى الطابق الأرضى ، حيث تراكمت المقاعد القديمة ، والدلاء الخشبية المهشمة ، والأحواض المصنوعة من القصدير . . وإذ بلغ يورى هذه الناحية ، ورأى ان كل شىء ظل على حاله لم يتبدل ، احس بالشكر للسلم إذ بقى وفيا للماضى !

ولقد كان ثمة جرس لباب المسكن يوما ، ولكنه كان قد لف وكف عن الرنين قبل رحيل يورى . وهم بأن يطرق الباب ، وإذا به يلاحظ ان ثمة قفلا عليه ، تدلى من حلقتين اولجتا — فى غير عناية — فى الألواح العتيقة المتخذة من خشب البلوط ، والتى كانت نقوشها الدقيقة قد انمحت فى بعض الأجزاء . . ما كانت مثل هذه الهمجية المخربة لترتضى فى الأيام الخالية . لا بد ان ثمة قفلا (طبة أو كالون) كان مثبتا فى جوف الخشب ، ولابد انه صالحا ، فإن لم يكن فقد كان فى الوسع أن يستدعى احد صانعى الأقفال لإصلاحه . ولكن هذه الظاهرة التافهة كانت تشى بتدهور الأمور . . التدهور الذى ازداد استفحالا فى غيابه .

وداخل يورى يقين بأن لارا وكاتيا لم تكونا فى المسكن — لو كانتا بعد على قيد الحياة ، بل لو كانتا بعد مقيمتين فى

(يورياتين) ! . . وكان مستعدا لتلقى اشد الصدمات مرارة ، فلم يقرر ان يبحث عن المفتاح فى الفجوة التى كانت بين الحجرتين فى الجدار — حيث كان الفار الذى كثيرا ما اخاف كاتيا — إلا إرضاء لضميره . وراح يدق الجدار بقدمه ، ليتأكد من ان يده لن تقع على فار فى هذه المرة . ولم يكن لديه اتفه امل فى ان يعثر على شىء . . وكانت الفجوة مسدودة بحجر فأزاحه ، وتحسس جوف الفجوة . . وكانت معجزة ان وجد المفتاح ، وأن وجد رسالة معه . . وكانت الرسالة مكتوبة على صفحة كبيرة من الورق ، فأخذها يورى إلى النافذة التى كانت على عرضة السلم . . وكانت معجزة اخرى — ابعد من سابقتها عن التصديق — أن تبين ان الرسالة كانت موجهة إليه ، فقراها فى عجلة :

« رباه ، يا لها من سعادة ! . . يقولون إنك على قيد الحياة ، وانك قد عدت ثانية . لقد رآك شخص ما على مقربة من البلدة ، فأقبل مهرعا ليخبرنى . احسب انك ستذهب راسا إلى (فاريكينو) ، ولهذا فانى ذاهبة مع كاتيا إلى هناك . ولكنى اترك المفتاح فى المكان المعهود ، من قبيل الاحتياط . فانتظرنى ولا تنصرف . لسوف تتبين اننى استخدم الآن الحجرات الأمامية (المطلة على الشارع) . وان المسكن خال بعض الشىء ، إذ اضطررت إلى ان ابيع بعض الأثاث . ولقد تركت قسطا بسيطا من الطعام ، معظمه من البطاطس المسلوقة . اعد الغطاء فوق القدر ، وضع فوقه ثقلا ، لإبعاد الفئران عنه . اننى مجنونة لفرط الفرح » .

وقرأ إلى نهاية الصفحة ، دون أن يفطن إلى أن الرسالة كانت مستأنفة على ظهر الورقة . والصقها بشفتيه ، ثم طواها ، ووضعها مع المفتاح فى جيبه .. وشعر بألم حاد ، وخاز ، يمتزج بفرحه الهائل ، فما دامت « لارا » ذاهبة إلى (فاريكينو) ، دون أن تحفل بتفسير الأمر له ، فلا بد ان اسرته لم تكن هناك ! ولم يشعر — من اجل هذا — بقلق فحسب ، وإنما شعر بأنه حزين من اجلهم ، كليم الفؤاد إلى درجة لا تطاق .. لماذا لم تقل « لارا » كلمة واحدة عن حالهم ، وعن مقرهم ؟ .. كأنما لم يعد لهم وجود البتة !

ولكن الظلام كان يزداد تراكما .. وكانت لا تزال امام يورى امور كثيرة لا بد من ان يؤديها قبل ان يتلاشى ضوء النهار تماما . وكان أهم هذه الأمور وادعاها إلى العجلة هو قراءة نصوص المراسيم الملصقة على جدار البيت ذى الأعمدة ، فما كان الجهل باللوائح بالأمر المستملح ، فى تلك الأيام ، بل انه كان خليقا بأن يفقدك حياتك .

وهبط يورى دون ان يدخل المسكن او يلقى عنه الكيس الذى كان يحمله ، فعبر الشارع ، وراح يتطلع إلى المساحة الكبيرة المكسوة بمختلف الاعلانات .

— ٣ —

وكانت ثمة مقالات من الصحف ، وانباء عن خطب القيت فى اجتماعات ، ومراسيم . والقى يورى نظرة على العناوين : « مطالبة اعضاء طبقات الملاك بالضرائب المقدرة عليهم » .. « إنشاء رقابة العمال » .. « إنشاء لجان المصانع والورش »،

تلك كانت اللوائح التى اصدرتها السلطات الجديدة عند دخولها البلدة ، بدلا من تلك التى كانوا قد وجدوها سارية . ولا شك فى أنه قد قصد بها التذكرة بما للعهد الجديد من صلابة لا تلين ، إذا كان ذلك قد نسى ابان سيطرة البيض على البلدة . ولكن لهجتها المسترسلة فى رتابة لا تنتهى ، والتكرار الذى يتخللها بلا انقطاع ، ادارا رأس يورى .. ترى إلى اية حقبة من الزمن كانت تلك اللوائح تمت ؟ .. إلى عهد بداية الثورة ؟ .. او أنها اصدرت لاعادة إقامة النظام الجديد بعد تمرد البيض ؟ .. اتراها قد كتبت فى العام السابق ، أم انها كتبت فى العام الأسبق ؟ .. إن هذه اللغة القاسية ، وهذه العقلية المستبدة ، لم تستثر إعجابه إلا مرة واحدة فى عمره كله ، فهل قدر عليه أن يدفع ثمن تلك اللحظة من التحمس المتهور ، بأن يظل حياته بأسرها لا يسمع شيئا — على مر السنين — سوى تلك الصيحات والأوامر الصارخة ، المخبولة ، التى لا تتغير ، والتى تزداد على مر الزمن خلوا من الروح ، وخلوا من المعنى ، وخلوا من أن تكون ميسورة الأداء ؟ .. افكان من المحتمل انه اسلم نفسه للاستعباد إلى الأبد ، وفى لحظة قصيرة من لحظات الكرم الناشىء عن جموح العواطف ؟

ووقعت عيناه على قسم من أحد التقارير :

« إن نبأ المجاعة يدل على قعود المنظمات المحلية عن النشاط إلى درجة لا تكاد يصدقها العقل .. إن هناك استغلالا فاضحا ، وهناك مضاربة على نطاق هائل .. فما الذى تفعله لجاننا التى فى المصانع والورش ؟ .. لن يخلصينا من المجاعة

سوى حملات التفتيش الكبيرة فى المناطق التجارية بيورياتين ورازفيليى ، وسوى الارهاب الذى يطبق بكل خشونة وقسوة إلى حد إعدام المضاربين بالرصاص فورا ، وحيثما وجدوا » .

وقال يورى فى نفسه : « ما اسعد من يستطيع ان يتغافل إلى هذا الحد ، فيتكلم عن الخبز فى حين انه قد اختفى من الأرض منذ عهد طويل ! .. ويتحدث عن طبقات الملاك والمضاربين فى حين انها قد الغيت بقانون منذ عهد بعيد ! .. ويتحدث عن الفلاحين والقرى فى حين انه لم يعد يوجد ثمة فلاحون ولا قرى! .. اليست لهؤلاء القوم ذاكرة ؟ .. الا يتذكرون الخطط والاجراءات التى وضعوها بانفسهم ؟ .. هل نسوا انهم بهذه الاجراءات لم يدعوا حجرا قائما على حجر ؟ .. اى صنف من الناس هم حتى يمضوا فى هذيانهم — بهذه الحرارة المحمومة التى لا تهدأ — عاما بعد عام ، عن اشياء لا وجود لها ، وعن موضوعات تلاشت منذ زمن .. فهم لا يعملون شيئا ، ولا يرون شيئا من الواقع الذى يحيط بهم ؟ ! » .

ودار راس يورى بعنف ، فغشى عليه ، وهوى إلى الأرض فاقد الوعى . وعندما افاق ، ساعده الناس على الوقوف ، وعرضوا عليه ان يرافقوه إلى حيث كان يبغى ان يذهب ، فشكرهم وابى ذلك قائلا إنه ليس بحاجة إلى اكثر من ان يعبر الشارع ، لانه مقيم فى الدار المقابلة .

— ٤ —

وصعد سلم الدار ثانية . وفى هذه المرة ، فتح باب مسكن « لارا » . وكان ضوء النهار لا يزال ينير السلم ، فهو

لم يكد يزداد ظلمة عنه قبل أن يغادره يورى .. واغتبط هذا لأن الشمس اتاحت له فسحة من الوقت .. واحدثت حركة المفتاح فى القفل حركة فى الداخل ، فاذا المسكن الخالى من اهله يستقبله بضجيج ورنين الحلل المعدنية المتساقطة . واندفعت الفيران من فوق الأرفف ، فأخذت تثب إلى الارض وتتفرق .. لا بد انها كانت تتوالد هناك بالآلاف ! .. وشعر يورى بغثيان وسقم ، وبعجز عن معالجة هذا المكروه ، فقرر أن يعتصم — فى حجرة ذات باب محكم الغلق ، يستطيع ان يسد ما قد يكون فيها من فجوات الفيران بزجاج مكسور !

وعرج يسرة إلى ذلك الجزء الذى لم يكن يعرفه من المسكن ، فعبر ردهة معتمة ، ووصل إلى ما تراءى له انها حجرة « لارا » .. وكانت حجرة يملؤها النور ، ذات نافذتين تطلان على الطريق . وكانت الدار السمراء ذات الأعمدة تواجه النافذتين مباشرة ، وقد وقفت جماعات من الناس — وظهورهم إليه — يقرءون الإعلانات .. وكان نور الحجرة من ذات نوع الضوء الذى كان فى الخارج .. ضوء باكورة الأمسية الجديدة ، التى لا تزال فى مطلعها ، فى اوائل الربيع .. وكانما ادى هذا إلى أن تبدو الحجرة كجزء من الطريق ، لا يفرقها عنه سوى أن الجو فى داخلها كان ابرد منه فى الطريق ، إلى حد ما .

وكان الضعف المفاجىء الذى استولى على يورى فى عصر ذلك اليوم ، وهو يقترب من البلدة ، ثم يسير فى طرقاتها — قبل ساعة او ساعتين — قد اوحى إليه بانه مريض . اما

الآن ، فان انتماء النور الذى كان فى البيت ، إلى النور الذى كان فى الطريق ، اطربه فجأة كذلك وانعشه . فشعر — وهو مغمور بعين الهواء البارد الذى كان يغمر المارة فى الطريق — بنوع من القربى بينه وبينهم .. بصلة تربطه بالحال التى كانت البلدة عليها ، وبالحياة فى الدنيا . وطرد هذا عنه مخاوفه ، فلم يعد يتوقع ان يكون مريضا .. كانت شفافية امسية الربيع ، وهذا الضوء الثاقب الذى راح ينفذ خلال كل شىء ، بشرى طيبة . .بشرى بتحقق الآمال البعيدة ، والمستبعدة ، عن آخرها .. لن يلبث ان يمضى كل شىء على خير حال ، وان يبلغ هو كل ما كان يتبغى من الحياة ، وان يعثر على اهله ومعارفه ، ويلم شعثهم ، ويصلح ما بينه وبينهم ، ويفكر فى كل شىء فيجلوه ، ويتخير الكلمات المناسبة للتعبير عنه .. وراح يرتقب فرحة رؤية « لارا » ، وكانها دليل مباشر على ان الآخرين لن يلبثوا ان يتبعوها .

وغشيه انفعال طاغ وقلق جامح ، حلا محل التعب والملل اللذين كانا يستوليان عليه من قبل . والواقع ان هذا النشاط الذى دب فى نفسه كان عرضا يفوق الضعف فى قوة الاقتناع بمرض مقبل .. ورغب يورى — قبل ان يستقر — فى ان يحلق شعر راسه ولحيته . وكان قد بحث عن حلاق ، وهو يجوس خلال البلدة قبل مجيئه إلى الدار . ولكن بعض حوانيت الحلاقين التى كانت معروفة لديه ، اصبحت خالية ، فى حين ان حوانيت اخرى انتقلت إلى ايدى اناس غير اصحابها ، واصبحت تستخدم لأعمال اخرى .. اما بقية الحوانيت

فكانت مغلقة . ولم يكن يورى يمتلك « موسى » يزيل بها شعره . وكان من الممكن ان يستعيض عنها بمقص ، ولكنه قلب كل ما كان على مائدة الزينة — فى مخدع لارا — راسا على عقب ، فلم يستطع فى تعجله ان يعثر على اى مقص .

وإذ ذاك ، خطر له انه كان ثمة «ورشة» خياط فى شارع (سباسكى) ، وقد يستطيع ان يستعير منه مقصا إذا كان بعد على قيد الوجود ، وإذا استطاع هو ان يصل إليه قبل ان يغلق ابوابه !

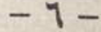
— ٥ —

ولم تخنه ذاكرته ، فان « ورشة » الخياط كانت لا تزال باقية ، بمدخلها الذى كان فى الشارع ، ونافذة ممتدة بطول الواجهة . فكانت العاملات على آلات الحياكة يعملن على مراى من المارة .. وكان بوسعك ان ترسل البصر إلى اقصى أطراف القاعة .. وكانت محتشدة بالحائكات ، فالى جانب العاملات المنتظمات ، كانت ثمة سيدات مسنات — من اهل البلدة — ممن كن على دراية بالحياكة ، وقد حصلن على عمل فى « الورشة » لكى يحق لهن الحصول على « دفاتر العمل » التى كانت مذكورة فى الاعلان الملصق على جدار المبنى الأسمر .. وكان من السهل ان تميزهن عن المحترفات ..

ولم تكن «الورشة» تنتج سوى ثياب الجيش : السراويل والسترات المبطنة ، ومعاطف فرائية عديدة الألوان من جلود الكلاب المختلفة الانواع ، كتلك المعاطف التى كان « يورى »

قد رآها على جنود العصابات . فكان هذا العمل اشد صعوبة على الهاويات بوجه خاص ، وكانت أصابعهن تبدو كما لو كانت كلها إبهامات ، وهن يدفعن اطراف الفراء الملتوية ، الناشفة خلال آلات الخياطة .

وطرق « يورى » النافذة ، وقام باشارات تنم عن رغبته فى ان يسمح له بالدخول . فاجابت النسوة — بالاشارات — بان « الورشة » لا تقبل الطلبات الخاصة . والح « يورى » ، فأومأت إليه النسوة بأن ينصرف ويدعهن وشأنهن ، إذ كان لديهن عمل متعجل لابد من ادائه . واظهرت احداهن إمارات العجب على وجهها ، ورفعت يدها وكفها إلى أعلى — كزورق صغير — تعبيرا عن الغضب ، ثم تساءلت بحاجبيها عما كان يبغى . فحرك اصبعين اشارة إلى نصلى المقص . ولم تفهم اشارته ، بل رات النسوة انه كان من الوقاحة أن يسخر منهن وأن يقلدهن مستهزئا .. وكان وهو يقف فى الخارج مهلهل الثياب ، مشعث الهيئة ، مرهقا ، يصدر تلك الإشارات الغريبة ، يبدو كرجل مجنون . فاخذت الفتيات يتضاحكن ، ويلوحن له .. وخطر له — فى النهاية — أن يدور حول البيت . وأن ينفذ إلى الفناء ويطرق الباب الخلفى .



— ٦ —

وفتحت الباب امراة عجوز ، سمراء ، عابسة الوجه . فى ثوب قاتم .. ولعلها كانت رئيسة العاملات على آلات الحياكة . فبادرته قائلة : « يا لك من وبـاء ! .. الا تدعنا وشأننا ؟ .. حسنا ، ما الذى تبغيه ؟ » .



وفتحت الباب امراة عجوز ، سمراء ، عابسة الوجه ، فى ثوب قاتم

— اريد مقصا . لا تعجبى ! اريد ان اقترض مقصا لاقص شعر راسى ولحيتى .. بوسعى ان افعل ذلك هنا ، ثم ارد اليكن المقص فى الحال ، فلن يستغرق الأمر دقيقة واحدة .. وساكون شاكرا كل الشكر !

وتبدى على المراة العجب وعدم الاطمئنان .. كان من الواضح انها ارتابت فى سلامة عقله .. ولكنه استطرد قائلا : لقد وصلت لتوى من رحلة طويلة ، واردت ان اقص شعرى ، ولكن جميع حوانيت الحلاقين مغلقة . لذلك رايت ان بوسعى ان اقوم بالعملية بنفسى، ولكنى لا امتلك مقصا . هلا اقرضتنى واحدا ؟

— حسنا ، ساتيح لك ان تقص شعرك . ولكنى انذرك .. إذا كنت تفكر فى شىء آخر .. فى حيلة لتغيير منظرك ، كوسيلة للاستخفاء لاسباب سياسية .. فلا تلومنا إذا وشينا بك . فلن نعرض ارواحنا للخطر من اجلك .

— يا للسماء ! .. يا لها من فكرة !

وادخلته ، ثم قادته إلى غرفة جانبية لا تزيد فى الحجم عن خزانة الثياب . وفى اللحظة التالية ، كان يجلس على مقعد ، وقد لفت حوله صفحة عريضة من قماش ، دست اطرافها تحت ذقنه ، كما يفعل الحلاق . وغادرت العاملة الحجرة ثم عادت بمقص ، ومشط ، وآلة لجز شعر الراس ، ومسن وموسى لازالة شعر اللحية .. وقالت إذ لاحظت دهشة صاحبها : « لقد اديت فى حياتى كل نوع من العمل ، وكنت

حلاقة فى فترة من الفترات . فقد تعلمت قص شعر الراس ، وإزالة شعر اللحية ، عندما كنت ممرضة فى الحرب السابقة . والآن، سنقلم شعر هذه اللحية ، ثم نزيله بالموسى ! »

— هل لك فى أن تقصى شعر راسى ، بحيث يغدو قصيرا جدا .. من فضلك !

— سابذل قصارى ما فى وسعى . لماذا يتظاهر رجل متعلم مثلك بكل هذا الجهل ؟ .. كانما انت لا تعرف ان اسبوعنا اصبح يتألف من عشرة ايام ، وان اليوم هو السابع عشر من الشهر ، وأن الحلاقين يحظون بيوم الراحة فى كل تاريخ يوجد فيه رقم سبعة !

— الحق اننى لم اكن اعرف .. لقد اخبرتك بأننى وصلت لتوى من رحلة طويلة . وماذا يدعونى إلى التظاهر ؟

— لا تتحرك ، وإلا جرحت .. إذن فقد وصلت لتوك ؟ .. وكيف جئت ؟

— سيرا على قدمى .

— فى الطريق الخلوية العامة ؟

— فى بعض رحلتى ، وفى بعض آخر سرت بمحاذاة الخط الحديدى . ولا ادرى عدد القطارات التى رأيتها ، وكلها دفينة فى الثلوج .. قطارات فخمة ، وقطارات خاصة ، وكل نوع من القطارات يخطر ببالك !

— مهلا ، لم يبق إلا ان اقلم هـذه اللمة من الشـعر ، ونفرغ .. اكنت فى مهمة عائلية !

— لا ، وحق السماء ! .. كنت اشتغل لحساب الاتحاد السابق لمصارف التسليف التعاونية ، كمفتش متجول لهـا . ولقد ارسلونى إلى سيبريا الشرقية فى جولة تفتيشية ، وهناك تقطعت بى اسباب العودة ، ولم يكن ثمن امل فى قطار ما ، كما تعرفين .. لم يكن من سبيل للعودة إلا المشى . وقد استغرق ذلك ستة اسابيع . ولست استطيع ان اشرع فى اخبارك فى بكل ما رايت فى الطريق .

— لو اننى كنت فى مكانك لما شرعت .. وارى لزاما على ان اعلمك امرا او امرين . تأمل شـكلك اولا .. هاك مرآة ، فأخرج يدك من تحت المئزر وامسكها .. هل يروق لك شكلك؟

— ما احسب ان شعرى بالقصر الكافى : الا تستطيعين ان تقصى مزيداً منه ؟

— لن يظل متناسقا إذا ازداد قصرا .. وكما قلت لك ، لا تشرع فى ان تروى لى شيئا البتة . فمن الأفضل ان تستبقى فمك مغلقا . وانس كل شىء من قبيـل مصـارف التسليف التعانية ، والقطارات الفخمـة ، وجولات التفتيش .. فان الوقت غير ملائم لذلك ، وإلا تعرضت لما لا نهاية له من المتاعب .. تظاهر بأنك طبيب او مدرس . ها قد فرغنا .. وانتهيت من تقليم لحيتك . والآن ، سأزيل الشعر بالموسى .. لسـنا بحاجة إلى أكثر من بعض رغوة الصابون ، ثم تصبح أصـغر من سنك بعشر سنوات . سأذهب واغلى بعض المـاء .

* * *

وراح يورى يسائل نفسه : « من تراهـا تكون ؟ » . وداخله شعور بأنه كان ذا رابطة بها .. كان يربطه إليها شىء رآه من قبل او سمعه .. كانت تذكره بامرىء ما .. ولكنه لم يستطع ان يحدس من يكون ذلك المرء .

وعادت بالمـاء الساخن ، فقالت « الآن ، سنزيل شعر اللحية .. من الخير لك ـ كما كنت اقول ـ ان لا تنبس بكلمة ، فالكلام من فضة ، والصمت من ذهب . إن هذه الحكمة صادقة ابدا .. اما قطاراتك الخاصة ، ومصارفك التعاونية .. فمن الخير ان تفكر فى شىء آخر . قل انك طبيب او مدرس . اما المناظر التى رايتها ، فاستبقها لنفسك . فمن تراه يصـدقك اليوم ؟ .. اترانى أوجعك ؟ » .

— بعض الشىء .

— اننى أدرك ان الموسى تقسو على البشرة قليلا ، ولكن ما باليد حيلة ، ولا بد لك من بعض الصبر يا صديقى .. فان بشرتك لم تألف الموسى ، وشعر لحيتك خشن جدا . على اننى لن استغرق دقيقة .. أجل ، ما من شىء لم يره الناس ؛ فقد مروا بكل حال .. لقد عانينا ـ نحن ايضا ـ كثيرا من المحن ، فما كان اشق ما جرى تحت حكم البيض ! .. قتـل ، وهتك أعراض ، ونهب ، واصطياد للآدميين ! .. كان ثمة ضـابط تافه منهم ، تولته كراهية نحو احد صف الضباط ، فارسـل جنودا للايقاع به فى كمين فى غابة خارج البلدة ، على مقربة من

مقر آل « كرابولسكى » . وقد ظفروا به فجردوه من سلاحه ، وساقوه — تحت الحراســة — إلى (رازفيليى) .. وكانت (رازفيليى) — فى تلك الأيام — اشبه بــ « التشيكا » الاقليمية فى ايامنا هذه . كانت مقرا لتنفيذ الاعدام .. لمــاذا تهز رأسك هكذا ؟ .. ان الموسى تحك بشرتك ، اليس كذلك ؟ .. اعرف هذا يا عزيزى . اعرفــه ، ولكن لا حيلة لى فى الأمــر ، فان شعرك اشبه بالشوك .. لم يبق سوى هذا الجزء .. ولقـد استـولى التهوس على زوجــة الرجــل ، فراحت تصرخ : « كوليا ! كوليا ! .. ما الذى سيصيب كولياى؟ ! » . واتجهت إلى اعلى راس مباشرة .. إلى الجنرال جالولين .. وهذا تعبير مجازى بطبيعة الحال ، فما كان بوسعها أن تذهب إليه راسا ، بل لا بد من مساع خاصــة .. وكان فى الشارع المجــاور ، هناك ، شخص يعرف كيف يصــل إلى الجنرال .. امرأة فذة فى كرمها ، مفرطة الحساسية ، لا مثيل لها ، ولا تنى تقف كل موقف فى سبيل الناس .. ليس بوسعك ان تتصور ما كان يجرى فى هذه البقعة ، من شنق للناس، ومن فظائع ، ومآس، وجرائم عاطفية .. تماما كما لو كنا فى رواية اسبانية !

وقال يورى فى نفسه : « انهــا لارا ، هــذه التى تتكلم عنها ! » . ولكنه التزم الحكمة ، فلاذ بالصمت ، ولم يسأل عن تفصيلات ما . ومرة أخــرى ، ذكرته اشارتهــا الجوفاء عن « رواية اسبانية » بشىء ما .. ذكرته — بخلوها من المعنى ، وبعدم مناسبتها للمقام ، بوجــه خاص — بشىء ما ، ولكنه لم يستطع ان يتذكر هذا الشىء .. بينمــا كانت هى ماضــية فى حديثهــا :

— على أن الأمر يختلف الآن اختلافا بينا ، بالطبع .. ولا إنكار فى انه كان ثمــة قدر من التحقيقات ، والوشايات ، والاعدام رميا بالرصاص ، وما إلى ذلك . ولكن الفكرة تختلف عما كانت عليه من قبل . فهناك — أولا — حكومــة جديدة ، تولت السلطات منذ أمد وجيز ، فهى لم تنطلق بعد فى مضمار الحكم بالقوة اللازمة . ثم إنها — مهما تقل عنهــا — فى صف عامة الناس ، وهذا سر قوتها . فنحن فى اسرتنا اربع أخوات — انا احداهن — وكلنا عامــلات . ومن الطبيعى أن تجنح ميولنا نحو البلاشفة . وقد ماتت أخت منــا ، كان زوجهــا مهاجرا سياسيا ، وكان يعمل كمدير لاحد المصانع المحلية . وقــد اصبح ابنهمــا — اى ابن اختى — على راس قوة من الفلاحين .. وهو مشهور ، ذائع الصيت !

❋ ❋ ❋

وقال يورى فى نفسه ، متبصرا : « إذن فقد عرفتها ! .. إنها عمة ليبريوس ، أخت زوجة ميكوليتســين .. تلك التى تحكى عن مهارتها الحكايات ، فهى حلاقة ، وحائكة ، وعاملة للاشارة فى السكك الحديدية .. إنها لتجيد كل الحرف ! » . ولكنه قرر أن لا يقول شيئا ، حتى لا يشى بحقيقتها شخصيته.

وعادت تقول : « لقد كان ابن اختى منجذبا نحو الشعب دائما ، منذ صغره . وقد نشأ بين العمال ، فى المصنع .. هل تراك سمعت بمصــانع (فاريكينو) ؟ .. الآن ، انظــر إلى ما فعلت بغفلتى .. إن نصف ذقنك ناعم ، والنصــف الآخر

خشن . هذه نتيجة الكلام . لماذا لم تكفنى عنه ؟ .. وها قد
جفت رغوة الصابون ، وبرد الماء سأذهب فأدفئه ! » .

وعندما عادت ، سألها يورى : « إن فاريكينو على
اميال ، فى جوف الريف ، اليست كذلك ؟ .. لا بد انها كانت
بمنجاة من كل هذه القلاقل ! » .

— الواقع انها لم تكن بمنجاة تامة ، بل إن اهلها تعرضوا
للقلاقل اسوا مما تعرضنا نحن ، من بعض الوجوه .. لقد
منى اهلها بنوع من العصابات المسلحة ، التى لم يدر احد
كنهها ، إذ انها لم تكن تتكلم بلساننا . وقد جاسوا خلال
المكان ، فكانوا يدخلون الدور — دارا بعد دار — مطلقين
الرصاص على كل من يعثرون عليه ، ثم يبارحونها ثانية ، دون
ان يلووا على شىء .. فكانت الجثث تغيب فى الثلج .. وكان
ذلك فى الشتاء طبعا .. إلا كف عن هز راسك ، فقد كدت
اجرحك ! » .

— الم تقولى إن زوج اختك كان يقيم فى (فاريكينو) ؟
.. اكان هناك عندما جرى ذلك ؟

— لا ، فان الله رحيم .. لقد غادر البلدة وزوجته
— اعنى زوجته الثانية — فى الوقت المناسب . اما اين هما ،
فهذا ما لم يعرفه احد ، ولكن المؤكد انهما قد نجوا .. ولقد
كانت هناك اسرة جديدة كذلك .. اغراب من (موسكو) ،
فنجوا بدورهم .. بل انهم غادروا البلدة قبل ذلك . ولكن
اصغر رجلى هذه الأسرة — وهو طبيب ، راس الأسرة —

مفقود .. وهذا تعبير مهذب بالطبع ، فهو يوصف بأنه
« مفقود » مراعاة لمشاعرهم ، ولا بد أنه قد مات فى الواقع
.. من المؤكد انه قد قتل . ولقد ظلوا يبحثون عنه ، ويبحثون ،
ولكنه لم يظهر اطلاقا . وفى الوقت ذاته ، دعى الرجل الآخر
— وهو أكبر الاثنين — للعودة إلى موسكو .. ولقد كان
عالما ، استاذا فى علم الفلاحة . وقيل لى إن الحكومة
استدعته . وقد تلكأت الأسرة فى (يورياتين) ، وهى فى طريقها
إلى (موسكو) . وكان ذلك قبل عودة البيض مباشرة ..
آه ، ها انتذا تعود ثانية إلى الالتواء والاهتزاز .. لسوف
تدفعنى إلى أن اقطع عنقك ، فى الواقع ! .. الحق انك تكبد
الحلاق قيمة ما تدفعه له من اجر ، ايها العزيز !

إذن .. فقد كانوا فى (موسكو) !

— ٧ —

« فى موسكو ! .. فى موسكو ! » .. راحت الكلمتان
تترددان فى فؤاده مع كل خطوة ، وهو يصعد درجات السلم
الحديدية للمرة الثالثة . واستقبله المسكن الخاوى — من
جديد — بتلك الضوضاء الجهنمية المنبعثة من انفلات الفئران ،
وتواثبها ، وتسابقها ! .. وتبدى جليا ليورى انه لن يستطيع
أن ينام — بالرغم مما كان عليه من تعب — ما لم يتخلص من
ذلك الازعاج .. كان اول ما ينبغى عليه — قبل ان يستقر فى
ليلته — أن يسد جحور الفئران . ولحسن الحظ ، كان عددها
فى حجرة النوم اقل منه فى بقية المسكن ، حيث كانت اخشاب
الأرض واسافل الجدران فى اسوا حال . على انه لم يكن ثمة

بد من ان يتعجل ، إذ كان الظلام يزداد تكاثفا . ومن الصحيح ان المصباح كان قائما على منضدة المطبخ — ولعله قد انتزع من المكان الذى كان معلقا إليه ، وملىء حتى نصفه بالنفط ، توقعا لمجىء يورى — وإلى جواره علبة ثقاب تركت وفيها بضعة أعواد . ولكن يورى وجد من الأفضل أن يقتصد الثقاب والنفط . ووجد — فى حجرة النوم — مصباحا صغيرا يضاء بالزيت ، وقد سطت الفئران على زيته ، ولكن بقية قليلة منه تبقت .

وكان الحشو الذى يملأ ما بين أسافل الجدران والأرضية قد انتزع من مكانه ، فاستغرق ملء الشقوق بالزجاج المهشم اكثر من ساعة بقليل .. وكان مصراعا الباب محكمى الانطباق ، فما إن يغلقا حتى تصبح حجرة النوم منيعة على الفئران .

وكانت ثمة مدفأة هولندية فى ركن من الحجرة ، ذات سياج من القرميد لا يصل تماما إلى السقف .. وفى المطبخ ، كانت ثمة كومة من كتل خشب الوقود ، فقرر « يورى » ان يسلب من « لارا » ملء ذراعيه مرتين من هذا الخشب ، ثم جثا على احدى ركبتيه ، وجمع الكتل ورصها على ذراعه اليسرى . حتى إذا نقلها إلى المخدع ، رصها إلى جوار المدفأة ، ثم القى نظرة على جوف المدفأة ، ليتبين كيف كانت تعمل ، وكيف كانت حالها . وكان قد اعتزم ان يغلق الباب بالقفل ، ولكنه تبين أن لسان القفل مكسور ، فدس ورقة بين

المصراعين ليزيد انطباقهما أحكاما ، ثم أعد الوقود على مهل ، واوقد النار .

وفيما كان يغذى النار بمزيد من الكتل ، لاحظ أن قطاع إحداها كان يحمل الحرفين « ك.د. » ، فتبين — فى دهشة — مصدرها .. فان المصانع اعتادت — فى أيام « كروجر » الخالية — أن تبيع ما تنبذه من خشب ، ليكون وقودا . وكانت هذه الكتل تختم — قبل أن تقطع — بخاتم ينم عن مصدرها .. وكان الحرفان « ك . د . » يدلان على « كولابيش ديل » بفاريكينو .

وساءه هذا الاكتشاف ، فان وجود هذه الكتل فى منزل « لارا » يعنى — لا بد — انها كانت على اتصال بسامديفياتوف ، وانه هو الذى امدها بها ، كما كان يمد يورى واهل بيته بحاجاتهم يوما .. ولقد كان يجد دائما غضاضة فى قبول معونته . وها هو ذا حرجه من ان يكون مدينا له ، يزداد وطأة بمشاعر اخرى داخلته .. فقد كان من العسير ان يصدق ان سامديفياتوف قد ساعد لارا بدافع من طيبة قلبه فحسب . وتذكر تصرفات سامديفياتوف المتحررة من كل قيد او اعتبار ، وما للارا من مغريات انثوية .. لا بد إذن انه كان ثمة شىء بينهما !

واخذت كتل « كولابيش » الجافة تطقطق فى النار بمرح ، وتستحيل إلى نار متأججة .. وبينما كانت تتأجج ، راحت غيرة « يورى » العمياء تتحول من مجرد افتراضات إلى يقين ! .. على انه كان معذبا من كل جانب ، بحيث إن كل انفعال كان

يطرد الآخر .. فلم يكن بحاجة إلى أن يطرد شكوكه ، لأن ذهنه كان يقفز من موضوع إلى الآخر ، وما لبث التفكير فى أسرته أن طغى على ذهنه فأغرق وساوس غيرته .

ـ إذن ، فأنتم فى موسكو ، أيها الأعزاء ؟ !

ولاح له أن الخياطة قد قدمت له ما يطمئنه إلى سلامة وصولهم ..

* * *

وعاد يناجيهم فى نفسه « إذن فقد قمتم بالرحلة الطويلة مرة أخرى ، وكنتم فى هذه المرة بدونى . كيف كانت حالكم فى الطريق ؟ . .ولماذا استدعى الكسندر الكسندروفيتش ؟ .. أكان هذا ليسترد مقعد الأستاذية فى المعهد ؟ .. وكيف وجدتم الدار ؟ الا ما أغبانى ! اننى لا أكاد أعرف ما إذا كانت الدار لا تزال قائمة . رباه ، ما أقسى كل هذا ، وما أشد إيلامه ! .. ليتنى أستطيع أن أكف عن التفكير ، فلست أملك أن أستقيم فى تفكيرى ! .. ماذا دهانى ياتونيا ؟ أحسبنى مريضا ! .. ما الذى سيصير إليه أمرنا ؟ بل وما الذى سيصير إليه أمرك أنت يا تونيا ، يا تونيا الحبيبة ؟ وساشا ؟ والكسندر الكسندروفيتش ؟ وأنا ؟ .. لماذا هجرتنى وجافيتنى أيها النور السرمدى الباقى ! .. لماذا كتب علينا أن نفترق دائما أيها الأعزاء .. لماذا تجرفكم الظروف بعيدا عنى دواما ؟ .. لسوف أعثر عليكم ، ولو اضطررت إلى أن أقطع المسافة إليكم ماشيا على قدمى . لسوف يرى كل منا الآخر ، ولسوف نجتمع ، وسنعود إلى خير حال . .. أليس كذلك ؟

« لماذا لا تبتلعنى الأرض فى جوفها ؟ .. لماذا أنا من الغلظة بحيث لا أنفك أنسى أن تونيا كانت توشك أن تضع طفلا آخر ، وهى قد وضعته ولا بد ؟ .. ليست هذه بالمرة الأولى التى أنسى فيها هذا ، ترى كيف اجتازت المخاض ؟ .. تذكر أنهم جميعا تلكأوا فى (يورياتين) أثناء عودتهم إلى (موسكو) ! .. من الصحيح أن « لارا » لم تكن تعرفهم ، ولكن .. ها هى ذى خياطة وحلاقة غريبة عنهم تماما ، قد سمعت كل شىء عنهم ، ومع ذلك فان لارا لم تقل عنهم شيئا فى رسالتها . كيف قدر لها أن تكون مهملة ، قليلة الاكتراث ، إلى هذا الحد ؟ .. انه لأمر يشبه فى غرابته عدم ذكرها أى شىء عن معرفتها بسامديفياتوف ! » .

وكان قد أخذ يجيل بصره فى الغرفة باهتمام جديد .. كان كل أثاثها يمت إلى السكان غير المعروفين ، الذين غابوا عن المسكن منذ أمد طويل ، واختفوا .. لم يكن بين قطع الأثاث ما ينتمى إلى « لارا » ، ولم يكن فى وسعها أن تحدثه بشىء عن ذوق « لارا » وميولها . وكانت الصور المثبتة إلى الجدران لأغراب ، ومع ذلك فقد شعر فجأة بتململ تحت نظرات كل أولئك الرجال والنساء الذين كانت الصور تمثلهم ! .. وكانت قطع الأثاث الثقيلة الظل تنفث عداء .. وشعر بأنه غريب ، وغير مرغوب ، فى هذا المخدع !

ما كان أحمقه إذ ظل يذكر هذا البيت ويشعر بوحشة إليه ، وما كان أحمقه إذ جاء إلى هذه الحجرة ، لا كما يفد على أية حجرة عادية ، وإنما كما لو كان مقبلا على صميم حنينه

وشوقه إلى « لارا » ! .. ما اجدر هذا النوع من الشعور بان يبدو لاى امرىء — فى الخارج — سخيفا ! .. لشد ما كانت تختلف طرائق الرجال الأقوياء ، الملاح ، العمليين ، الأكفاء — امثال سامديفياتوف — عن اساليبه هو فى الحياة ، والكلام ، والتصرف ! .. فلماذا يتحتم أن يتوقع من لارا ان تفضل ضعفه ولغته الغامضة ، المبهمة ، غير الواقعية ، التى كان يتحدث بها عن حبه ؟ .. افكانت بحاجة إلى اضطرابه ؟ .. بل هل كانت ترغب فى أن تكون كما كان يراها لنفسه ؟

وكيف كان يراها لنفسه ؟ .. اواه ، ان هذا امر ميسور ! .. لقد كان يعرفه تمام المعرفة :

امسية من امسيات الربيع .. الهواء تتخلله اصوات متفرقة .. اصوات اطفال يلعبون فى الطرقات ، تنبعث من ابعاد متباينة ، وكأنها تبين ان الرقعة بأسرها حافلة بالحياة .. وما هذه الرقعة سوى روسيا ، امه التى لا مثيل لها ، التى طبق صيتها الآفاق .. روسيا المعذبة ، العنيدة ، المسرفة ، المجنونة ، غير المسئولة المعبودة .. روسيا بروائها السرمدى وايماءاتها المخربة ، التى لا سبيل إلى التنبؤ بها .. اواه ، ما كان احلى الحياة ! .. ما أطيب ان يكون المرء حيا ، وان يحب الحياة ! .. ولكم كان تواقا إلى أن يشكر الحياة ، وأن يشكر الوجود ذاته ، مباشرة ، وجها لوجه .. ان يشكر الحياة شخصيا !

هكذا كانت « لارا » تماما ! .. فليس بوسعك ان تتصل بالحياة ذاتها ، ولكن « لارا » كانت تمثلها ، كانت مظهرها

المعبر ، كانت نعمة الكلام والسمع وهبت لكائن مبهم غير واضح المعالم ! .. ولقد كان كل ما لامها عليه ، منذ لحظة — فى تخبطه — كذبا الف مرة .. فانها كانت الكمال ذاته ، وكانت منزهة عن اللوم !

واغرورقت عيناه بدموع الاعجاب والتوبة .. وفتح باب المدفأة فحرك النار ، ودفع تلك الكتل التى كانت متأججة — وقد استحالت إلى حرارة محصنة — إلى المؤخرة ، وقدم عليها تلك التى لم تكن قد اشتعلت تماما . وترك الباب مفتوحا ، وجلس امام اللهب المكشوف ، مغتبطا بتلاعب الضوء والحرارة على وجهه ويديه .. وردت إليه الحرارة والضوء رشده تماما ، فاذا به يفتقد « لارا » إلى درجة لا تطاق ، ويتوق إلى شىء يمكنه من ان يكون على اتصال بها فى تلك اللحظة بالذات .

واخرج رسالتها المكرمشة من جيبه ، وكانت مطوية بحيث كان ظهر الصفحة — التى قراها من قبل — إلى الخارج. وإذ ذاك ، رأى أنه كان ثمة شىء مكتوبا على ذلك الظهر ، فسوى الورقة ، وبسطها ، وقرأ على ضوء اللهب المتراقص :

« لعلك تعرف ان اهلك فى موسكو . ولقد رزقت تونيا بنت صغيرة » ..

وكانت ثمة سطور عدة مكشوطة بعد ذلك ، ثم هذه العبارة : « لقد كشطتها لانه من الغباء ان اكتب عن ذلك . ولسوف نتحدث بكل ما فى قلبينا حين نلتقى . اننى فى عجلة

للخروج ، إذ لا بد لى من ان احصل على جواد ، ولست ادرى ماذا افعل إذا انا لم استطع . فانه لمن العسير على وكاتيا . . . » . وكانت بقية الجملة غير واضحة ولا مقروءة .

وقال يورى فى نفسه ، ساكن البال : « لقد حصلت على جواد من سامديفياتوف . .ولو كان لديها ما تخفيه عنى ، لما ذكرت كل هذا » !

— ٨ —

وعندما خبت النار ، اغلق «يورى» باب المدفاة ، وتناول بعض الطعام . ثم شعر — بعد ذلك — بخدر يسرى فى اوصاله ، فاستلقى على الأريكة ، دون ان يخلع ثيابه ، وراح — فى الحال — فى سبات عميق . ولم تعد تصل إلى اذنيه تلك الضجة العالية الصاخبة ، التى كانت الفئران تحدثها خلف الجدران والباب . .

وغشيه حلمان مقيتان ، احدهما تلو الآخر :

ورای فى المنام انه كان فى موسكو ، فى حجرة ذات باب زجاجى ، وكان الباب محكم الرتاج . وكان يمسك بمقبضه ويشده إليه ، ابتغاء مزيد من الامان . وكان ابنه الصغير « ساشا » ، يقف لدى الجانب الآخر — وقد ارتدى بزة ملاح وقلنسوته — وهو يدق الباب ، ويبكى مر البكاء ، ويناشده ان يدعه يدخل . وكان ثمة مسقط مائى وراء الطفل ينثر الماء عليه ، ويضفى على الباب ستارا من رذاذه ، وهو يحدث ضجيجا مهولا . . وكانما كان الماء يتدفق من انبوبة انفجرت

— وهو ما كان مألوف الحدوث فى تلك الأيام — أو أن الباب كان درءا ضد ثور جبلى ضار ، وقد امتلأ الخلاء بصوت سيل جارف عات ، وبرد العصور السحيقة وظلمة كهوفها !

وكان هدير الماء المتساقط يرعب الصبى ويطغى على صياحه ، ولكن « يورى » كان يراه وهو يحاول — المرة تلو المرة — أن يصيح بكلمة : « ابتاه ! » . وكان قلب يورى يتفطر . وراح يتمنى بكل كيانه أن يلتقط الطفل ، وأن يخفيه فى احضانه ويجرى به بأسرع ما تستطيع قدماه أن تحملاه . ومع ذلك فقد ظل ممسكا بمقبض الباب يشده إليه — والدموع تنهمر على وجهه — صادا الطفل عنه ، منكرا اياه ، وهو يصدر فى ذلك عن إدراك زائف للشرف ، وإدراك خاطىء بالواجب نحو امراة اخرى ، لم تكن ام الطفل ، وكان من المحتمل أن تفد على الغرفة — بين لحظة واخرى — خلال باب آخر !

واستيقظ والعرق يتصبب منه ، والدموع تغسل وجهه ، فقال فى نفسه : « إن حرارتى مرتفعة . . إننى مريض . ما هذا بالتيفوس ، وإنما هو نوع من الاعياء يتخذ شكل مرض خطير . . مرض مصحوب بأزمة . . انه يشبه أى مرض قاس، معد ، وما من حيلة للمرء سوى أن ينتظر ليرى لمن تكون الغلبة : للحياة او الموت ! . . ولكن النوم يطغى على تفكيرى ! » .

واستغرق فى النوم من جديد . . فاذا به يحلم بصباح يوم

مكفهر من ايام الشتاء ، والمصابيح مضاءة ، وهو فى شارع مزدحم فى (موسكو) .. وكانت حركة المرور فى الصباح المبكر ، واجراس الترام ، والبرك الصفراء التى كان ضوء المصابيح يعكسها على ارض الشارع الجليدية السمراء ، توحى بأن ذلك اليوم كان فى الزمن السابق على الثورة .. ورأى فى المنام مسكنا واسعا ، ذا نوافذ كثيرة ، كلها فى جانب واحد من البيت — ومن المحتمل انها لم تكن تتجاوز الطباق الثالث من المبنى — وقد اسدلت عليها ستائر سابغة تصل إلى الأرض .

وفى الداخل ، كان ثمة اناس يرقدون نائمين ، دون أن يخلعوا ثيابهم ، وكأنهم فى عربة قطار .. وكانت الحجرات غير نظيفة ، كعربة القطار ، وقد تناثرت فيها — على قطع من ورق الصحف ملطخة بالدهن — بقايا سيقان واجنحة دجاجات محمرة ، وفضلات اغذية من الأنواع التى تؤخذ فى الرحلات .. وكانت الأحذية التى خلعها الأصدقاء الكثيرون والاقارب لا مأوى لهم ، استعدادا لليل ، منسقة أزواجا على الأرض . وراحت سيدة الدار — « لارا » — تتنقل فى خفة وصمت من حجرة إلى اخرى ، وهى فى مئزر ربط — على عجل — حول وسطها ، وقد اخذت تؤدى واجباتها فى تعجل ، و « يورى » يتبعها خطوة بخطوة ، مغمغما بعبارات كئيبة ، مبتورة ، جاعلا من نفسه مصدر ازعاج ، بوجه عام .. ولكنها لم تعد تجد من وقتها لحظة تمنحه اياها ، فلم تكن تأبه لغمغمته ، اللهم الا أن تلتفت إليه من آن لآخر ، ثم تطلق ضحكتها التى لا سبيل إلى

تقليدها — الضحكة الرقيقة كأجراس الفضة وهى ترمقه فى صمت وحيرة .. وكانت هذه هى سبيل التخاطب الوحيدة التى بقيت لهما .. ولكن ، لكم كانت تلك المرأة التى ضحى بكل ما لديه من اجلها ، والتى فضلها على كل شىء ، والتى لم يعد لأى شىء قيمة إذا قيس بها .. لكم كانت بعيدة ، فاترة ، ذات جاذبية قاهرة !

— ٩ —

وراح شىء ما — غير نفسه — يبكى ويئن فى اعماقه ، ويشع كلمات رقيقة فى ظلمته . كانت روحه تأسى من اجله ، وقد حزن هو الآخر من اجل نفسه .

وراح يقول فى نفسه ، فى لحظات بين النوم ، وبحران الحمى ، والغيبوبة : « اننى مريض .. لا بد اننى أصبت بالتيفوس أخيرا . ولا بد انه نوع خاص من التيفوس لم يرد وصفه فى الكتب . خليق بى أن آتى لنفسى ببعض القوت ، وإلا مت جوعا ! » .

. ولكنه ما إن كان يناضل كى يرفع جسمه معتمدا على مرفقه ، حتى كان يتبين انه عاجز عن الحركة ، فكان يتهالك فى اغماء ، او يروح فى سبات .. وساءل نفسه مرة : « كم مضى على من الوقت وانا راقد هنا ؟ .. لقد كان الربيع فى أوائله عندما غشينى النوم على هذه الأريكة ، للمرة الأولى ، اما الآن فالنوافذ مكسوة بطبقة كثيفة من الصقيع الأسمر ، حتى أن الظلمة تسود الغرفة ! » .

وكانت الفئران تثير صخبا فى المطبخ ،وهى ترطم الأطباق

بعضها ببعض ، وتخدش الجدران وهى تتسلقها ، وتقفز هابطة ، وتصرخ بأصواتها الرفيعة التى تثير الاشمئزاز والرثاء .. وعندما افاق إلى نفسه مرة اخرى ، كانت النوافذ المكسوة بالجليد تشع بضوء الفجر او باشعة الغروب ، فى بريق متوهج كأنه النبيذ الأحمر خلال بلور مصقول .

وخيل إليه مرة انه سمع اصواتا بالقرب منه ، فجزع إذ توهم انه قد جن . وراح يشكو من ان السماء قد تخلت عنه ، ويبكى إشفاقا على نفسه ، وهو يتمتم : « لماذا هجرتنى وجافيتنى ايها النور السرمدى، والقيتنى فى ظلمات الجحيم؟ ! »

وفجاة ، تبين انه لم يكن حالما ولا هاذيا ، وإنما كان يرقد — فى الحق والواقع — فى سرير اعد بعناية ، وليس على الأريكة ، وهو منظف الجسم ، وفى قميص نظيف .. وان الشخص الذى كان يبكى معه ، ويجلس بجواره، ويميل عليه ، كان « لارا » نفسها ، وقد اشتبك شعرها بشعره ، وتساقطت دموعها مع دموعه .. فاغمى عليه فرحا !

— ١٠ —

كان قد اشتكى من أن السماء قد نبذته وتخلت عنه .. اما الآن ، فقد اصبحت السماء على سعتها تميل على فراشه ، باسطة إليه ذراعى امراة يتسمان بالقوة والبياض .. واسلم نفسه للسعادة ، وراسه يدور غبطة ، وكأنه يفقد رشده !

لقد كان طيلة عمره نشيطا ، يؤدى فى البيت اعمالا ، ويرعى المرضى ، ويفكر ، ويدرس ، ويكتب . فما كان احلى ان

يكف عن العمل ، والنضال ، والتفكير ! .. ان يدع كل شىء للطبيعة فترة من الزمن ، وان يصبح ملكا للارا ، ومن اختصاصها ، ومن نتاج شفقتها ، ويديها الرائعتين اللتين تبسطان الجمال على كل ما تمسانه !

وسرعان ما شفى ، فان « لارا » راحت تغذوه ، وتمرضه ، و « تبنيه » من جديد باهتمامها ، وبلطفها الذى فى بياض الثلج ، وبحرارة حديثها الهامس ذى الأنفاس الحية !

وكان كلامهما الخافت مليئا بالمعانى — مهما يكن غير ذى بال — فكأنه محاورات افلاطون ! .. على أن الصفات التى كانا يشتركان فيها ، كانت اهم من ذلك واكثر قيمة ، فقد كان ما يفصلهما عن بقية العالم هو عين ما يوحد بينهما .. كانا سواء فى الثورة على كل الصفات المحزنة للانسان الحديث .. الصيحات الرفيعة إعجابا بمادة الكتب ، والتحمس المغتصب ، وذلك الطابع البليد الجامد الذى كانت تبشر به وتطبقه اعمال لا حصر لها فى ميدان الفن والعلم ، بغية ان تظل العبقرية نادرة إلى اقصى حدود الندرة .

كان كل منهما يحب الآخر حبا عظيما .. ومعظم الناس يجربون الحب دون أن يفطنوا إلى شىء ملحوظ فيه . اما بالنسبة إليهما ، فان اللحظات التى كانت الشهوة تزور فيها كيانهما البشرى الفانى ، كنسمة من الوجود غير المقيد بزمن ، كانت لحظات تجل وفهم مطرد الازدياد للحياة ولنفسيهما .. وهذا ما كان يجعلهما على غير شاكلة سواهما !



وسرعان ما شفى ، فان « لارا » راحت تغذوه وتمرضه ، و « تبنيه » من جديد باهتمامها ، وبلطفها .

— ١١ —

— يجب ان تعود لأسرتك بطبيعة الحال ، فلست أبغى ان استبقيك يوما اكثر مما ينبغى .. ومع ذلك ، فانظر ، إلى ما يجرى ! .. انك لا تعرف إلى اى مدى تبدلت الأمور بينما كنت مريضا فما إن اصبحنا جزءا من روسيا السوفييتية ، حتى رحنا فى غمرة تفككها وانحلالها .. إن مؤننا تفد من (موسكو)، وهى — بالنسبة لهم — ليست سوى قطـرة من محيط ، فكل هذه الشحنات الموسوقة من المؤن تغيب فى بئر لا قرار لها .. ومع ذلك ، فلم يبق لنـا — فى الوقت ذاتـه — شىء ما .. فلا خدمات بريدية هناك ، ولا مرفق لنقل المسـافرين ، إذ أن القطارات جميعا تستخدم لنقل الحنطة .. وثمة نوع من التذمر يسرى فى البلدة ، كما كانت الحال قبل ثورة « جايدا » .. ومن جديد ، تنطلق « التشيكا » مسعورة ، ردا على هـذا التذمر الصريح !

« ولكن، كيف يتسنى لك السفر وانت بهذا الضعف ؟ .. انك لست سوى جلد على عظم ! .. هل يدور بخلدك حقا انك تستطيع أن تسـافر ماشـيا على قدميك ؟ .. انك لن تستطيع أن تصل اطلاقا . اما إذا تماسكت قواك ، فسـوف يختلف الأمـر . ولو انك اخذت بنصـيحتى لسـعيت الآن إلى الحصول على عمل .. مارس مهنتك .. انهم سيرتاحون إلى هذا منك . وقد تحصـل على منصب فى مرفق الصـحة الاقليمية !

« لا بد لك من أن تفعل شـيئا .. ذلك لأن ظـروفك

لا تلوح طيبة للغاية ، فى وضعهـا الراهن . فقـد كان أبوك مليونيرا من سيبريا ، قضى على نفسـه منتحرا .. وزوجتك ابنة احد كبار ملاك الأراضى المحليين .. وانت هارب من قوات العصابات ، وليس فى وسـعك ان تمارى .. فلقـد هجرت صفوف جيش الثورة .. وهذا يرقى إلى درجة الفـرار من الجيش النظامى . لذلك فمن الخطر عليك أن تكون متعطلا من العمل . ولست انا نفسى فى وضع افضل ، وسيتحتم على أن أؤدى عمـلا انا الأخـرى .. اننى اعيش على بركان ، فى الواقع ! » .

ــ ما الذى تعنين ؟ .. وما بال ستريلنيكوف ؟

ــ إن ما أنا فيه بسببه ، فقد انباتك من قبل بكثرة من له من اعداء . والآن ، وقد احرز الجيش الأحمر النصر ، فقد ساء مصير العسكريين غير المنتمين للحزب ، ممن ارتقوا إلى قرابة القمة ، وعرفوا اكثر مما ينبغى لمثلهم ان يعرف .. ولسـوف يكون من حسن حظهم أن يطردوا من مناصبهم فحسب ، دون ان يمحوا من الحياة محوا ! .. و « باشا » بالذات ، معرض للتجريح ، فهو فى خطر جد عظيم . ولعلك تعرف انه كان فى الشرق ، وقد سمعت انه هـرب ، وانـه الآن مختبىء وهم ينقبون عنه . ولكن ، دعنا من هـذا الحديث ، فانى اكـره البكاء ، واخشى ان انفجر معولة إذا قلت كلمة اخرى !

ــ هل كنت جد مولعة بحبه ؟ .. وهل لا تزالين ؟

ــ لا تنس يا حبيبى اننى تزوجت منه ، فهو زوجى ! .. وان له لشخصية رائعة ، مستقيمة ، لامعة . وانى لأحمـل نفسى ــ إلى حد بعيد ــ وزر انحـراف زواجنا عن جـادة

التوفيق . وليس معنى هذا اننى الحقت به اى ضرر ، فليس القول بهذا من الصدق فى شىء .. على ان «باشا» جد مبرز ، وجد عظيم ، وعلى قدر كبير من التماسك والرصانة .. أما أنا فلست ذات قيمة إطلاقا .. اننى لا شىء بالنسبة له . وهـذا مكمن خطأى . ولكن ، دعنا من هذا الحديث ، من فضلك .. لسوف ازيدك منه فى وقت آخر ، واعدك بذلك !

« ما اجمل زوجتك تونيا .. انها اشبه بلوحة من رسم « بوتيتشيللى » ! .. لقد كنت هناك حين وضعت وليدها . ولقد ائتلفنا معا ، على ابدع حال . ولكنى أرجوك أن تعفينا من هذا الحديث ، هو الآخر ، فى اللحظة الراهنة !

« لنسع معا للحصـول على عمل لكل منا ، كمـا كنت اقول . ولسوف نخرج معا فى كل صباح إلى العمل ، ثم نتسلم مرتبينا ، فى نهاية الشهر .. بلايين من الروبلات . اتعرف ان ورق النقد السيبيرى القديم كان سـارى المفعول إلى عهـد قريب ؟ .. ثم الغى العمل به ، ومكثنا طويلا ــ طيلة الفترة التى قضيتها مريضا ــ دون ما عملة نقدية البتة ! لم تكن ثمة نقود إطلاقا ، بحق ! تصور ذلك ! .. ودبرنا امورنا بطريقة ما ، وها هم اولاء يقولون إن ثمة قطارا محملا بأوراق النقـد قد وصل ، مؤلفا من أربعين عربة على الأقل .. وهى مطبوعة على رقاع كبيرة ، بلونين ــ احمـر وازرق ــ ومقسـمة إلى مربعات صغيرة . فالمربعات الزرقاء قيمة كل منها مليون روبل ، والحمراء قيمة كل منها عشرة .. وهى رديئـة الطباعـة ، سرعان ما تبهت وتتفسخ الوانها » ..

— اجل ، لقد رايت هذا النوع من النقود ، إذ طرح للتداول فى (موسكو) قبل أن نغادرها مباشرة .

— ١٢ —

— لماذا مكثت طويلا فى (فاريكينو) يا لارا ؟ هل كان ثمة احد هناك ؟ ظننت انها كانت خاوية تماما ، فليست بها نفس واحدة . فما الذى استبقاك كل هذا الوقت الطويل ؟

— كنت وكاتيا ننظف دارك ، فقد خطر لى انك قد تذهب إلى هناك فى اللحظة التى تستطيع فيها العودة ، ولم اشأ ان تراها فى الحال التى كانت عليها .

— عجبا .. واى حال كانت عليها ؟ .. اهى بالغة السوء ؟

— كانت قذرة ، غير منسقة ، فأصلحنا من شأنها .

— يا للاقتضاب والمراوغة ! .. اننى لاشعر بأنك تخفين عنى شيئا . ولكن ، لك ما تشائين ، فلن أحاول أن أنتزع منك ما تخفين . حدثينى عن تونيا ! .. ماذا سموا الطفلة الصغيرة ؟

— ماشا .. تخليدا لذكرى امك .

— حدثينى بكل ما لديك عنهم .

— ليس الآن ، ارجوك .. لقد قلت لك اننى — ولا ازال — لا اقوى على الكلام عن الأمر دون أن أبكى ..

— إن هذا السامديفياتوف ، الذى اعارك الجواد ، شخصية طريفة .. الا ترين ذلك ؟

— جدا .

— اتعلمين اننى اعرفه معرفة جيدة ؟ .. كان كثير التردد على البيت حين كنا نقيم فيه .. وكانت الظروف كلها جديدة علينا ، فساعدنا على الاستقرار .

— اعرف هذا ، فقد انبأنى به .

— لا بد انه نافع لك انت الأخرى ؟ .. هل ترينه كثيرا ؟

— انه يغمرنى بأفضاله فعلا ! ولست ادرى ماذا كنت فاعلة بدونه .

— هذا ما تصورته ! .. واحسب انكما صديقان حميمان ، وانه يأتى إلى هنا كلما شاء !

— طيلة الوقت ، بطبيعة الحال !

— واحسبك تميلين إليه ؟ .. آسف ، ما كان ينبغى ان اوجه إليك هذا السؤال ، فليس من شأنى ان اسألك . لقد تماديت ، وإنى لأعتذر !

— اواه ، لا بأس عليك ! .. احسب أن ما تعنيه حقا ، هو : على اى نوع من العلاقات نحن ؟ .. وهل بيننا ما هو اكثر من الصداقة ؟ .. ليس بيننا ما هو اكثر منها طبعا . لقد ادى لى خدمات هائلة ، فانا مدينة له إلى حد كبير ، ولكنه لو وهبنى ثقلى ذهبا ، ولو جاد بحياته من اجلى ، لما قربنى هذا منه خطوة اخرى . فلطالما كرهت هذا النوع من الرجال ، وليس بينى وبينه اى ميل مشترك ! .. فهذه الشخصيات الواسعة الحيلة ، المفرطة الثقة بأنفسها ، المتسلطة .. انها

فى الأمور العملية فوق كل تقدير ، اما فى المسائل العاطفية فلست ارى ما هو ابشع مما اوتوا من اعتزاز وقح بالرجولة ! .. وليست هذه فكرتى عن الحياة والحب يقينا ! .. والواقع ان « انفيم » — كشخص — يذكرنى بامرىء غيره .. بشخص اكثر منه اثارة للاشمئزاز ، وبذنبه هو اصبحت ما انا عليه الآن ؟

— لست افهم .. ماذا تحسبين نفسك ؟ ما الذى يجول بذهنك ؟ .. اوضحى لى ! .. انك خير شخص فى الدنيا !

— كيف تقول هذا ، يا يورا الحبيب ؟ .. اننى اتكلم جادة ، فماذا بك ترجى إلى المجاملات ، وكأننا نجلس فى قاعة استقبال ، مقيدين بأصول المجاملة ! .. اى شخص ترانى ؟ .. ان فى نفسى شيئا محطما .. بل فى كل حياتى شىء مكسور .. لقد اكتشفت الحياة فى سن مبكرة اكثر مما ينبغى .. كان مقدرا على أن اكتشفها ، وكان مقدرا على ان اراها من اسوا نواحيها .. رأيت صورة رخيصة — مشوهة — لها ، خلال عينى عابث مسن خبيث .. واحد من انانيى العهد القديم ، الذين كانوا راضين عن انفسهم وهم لا نفع لهم ، والذين كانوا يستغلون كل شىء ، ويبيحون لأنفسهم كل ما يروق لنزواتهم !

— احسبنى افهم .. لقد خطر لى انه كان ثمة شىء . ولكن ، مهلا لحظة ! .. ان بوسعى ان اتصور ما عنيت وانت طفلة .. كان عناء فوق ما يناسب سنك .. كان بمثابة الصدمة التى هزتك وانت غير ذات تجربة .. كان إدراك فتاة جد صغيرة للاغتصاب . ولكن كل هذا راح فى ادراج الماضى .

إنما اعنى انه ليس لك أنت ان تشقى نفسك بسببه الآن ، ندعى هذا لمن يحبونك .. لمن هم على شاكلتى . فأنا الذى كان يجدر بى ان اقطع شعرى لأننى لم اكن معك لأمنع ما جرى ، إذا كان يشقيك حقا .. انه لامر عجيب ! فانى ارى ان ليس بوسعى أن اغار حقا — غيرة قاتلة ، مشبوبة — إلا من شخص احتقره ولا يربطنى به اى شىء مشترك .. من غريم اتطلع إليه مرتقبا ان يغير من حالى وطبعى .. اننى اعتقد انه إذا كان ثمة رجل افهمه واميل إليه ، على حب مع نفس المرأة التى احبها ، لما شعرت بضغينة نحوه ، ولا ابتغيت الشجار معه ، بل لشعرت بنوع من الأخوة فى السجن تجمعنا . ومن الطبيعى اننى لا يمكن ان احلم بأن يشاركنى احد المراة التى احب ، ولكنى اوثر ان اتخلى عنها ، فيكون عذابى شيئا يختلف عن الغيرة .. فهو اقل ضراوة وغضبا . إنه اشبه بما إذا صادفت فنانا يقوم بعين ما افعل ، ويؤديه بأحسن مما أؤديه . فقد يحتمل ان اتخلى عن جهودى ، وقد لا اود ان اقلد عمله ، ولن يكون ثمة مبرر لأن امضى فى عملى إذا كان عمله أحسن ..

« ولكن هذا لم يكن موضوع حديثنا .. ما اظن اننى كنت احبك هذا الحب لو لم يكن لديك ما تشكين منه ، ولا ما تتحسرين عليه . فلست احب من لم يزلوا او يتعثروا ، إذ ان فضيلتهم تكون بلا حياة ، ولا تكون عظيمة القيمة .. إن الحياة لا تكون قد كشفت لهم عن جمالها ! » .

— إن هذا الجمال بالذات هو الذى افكر فيه . فانى ارى

ان خيالك يجب ان يكون سليما ، وان بصيرتك يجب ان تكون فى نقاء بصيرة الطفل ، لكى تراه ! . . وهذا ما حرمت منه ! . . كان من المحتمل أن تكون لدى صورة للحياة خاصـــة بى لو لم تكن هذه الصورة قد طبعت — منذ البداية ذاتهـــا — براى مبتذل من لدن شخص آخر . . وليس هذا كل ما فى الأمـــر ، فبسبب ما قام به هذا الأمعة الأنانى عديم الخلق من اقتحـــام لحياتى — منذ البداية الأولى — قدر لزواجى ان يفسد ، عندما تزوجت — فيما بعد — من رجل كان كبير النفس حقا ، فذا ، احبنى واحببته !

— مهلا لحظـــة ، قبل ان تحدثينى عن زوجك . . اننى لا اغار منـــه ، فقد أخبرتك بأننى لا اغار إلا ممن هم اقل منى شأنا . نبئينى أولا عن هذا الرجل الآخر !

— اى رجل ؟

— ذلك الوحش . . الرجل الذى أفسد حياتك . من هو ؟

— انه محـــام ذائع الصـــيت إلى حد لا بأس به ، فى موسكو ، وهو صديق لأبى . . وكنا — عندما مات أبى — فى ظروف سيئة ، فأعان أمى . . وكان اعزب ، وغنيا . ولعلنى اضفيت طرافة على شخصيته إذ رسمتها بهذا السواد ، ولكنه رجل عادى جدا . ولسوف انبئك باسمه ، إذا شئت .

— لا حاجة بك إلى هذا ، فانى اعرفه . . لقد رايتـــه مرة !

— أحق هذا ؟

— ذات مساء فى الفندق الذى كنت تقيمين فيه ، ليلـــة تناولت أمك سما . . كانت الساعة متأخرة من الليل . . وكنت وانا لا نزال طالبين فى المدرسة .

— آه ، اذكر هذا . . لقـــد جئت مع شخص آخـــر ، ووقفتما فى الظلال ، عند مدخل الردهة . ولا ادرى ما إذا كان من الممكن ان اتذكر ذلك من تلقـــاء نفسى ، ولكنى اظنك قـــد ذكرتنى به مرة ، ولا بد ان ذلك كان فى (ميليوزييفو) .

— وكان كوماروفسكى هناك .

— اكان هنـــاك ؟ . . من الجائز جدا . . لقـــد كان من المحتمل كل الاحتمال أن تجدنى معه ، فكثيرا ما كنا معا .

— ولمـــاذا يتضرج وجهك ؟

— لسماع اسم كوماروفسكى منبعثـــا من فمك . لقـــد نسيت أذنى سماعه ، ومن ثم فاننى فوجئت . .

— كان ثمة زميل لى فى الدراسة صحبنى فى تلك الليلة ، وهاك ما قاله لى . . لقد كان يعرف كوماروفسكى كانسان ، إذ رآه مرة قبل ذلك ، فى اغرب الظروف عن المألوف . فقـــد لهذا الزميل — « ميشا جوردون » — فى اثناء رحلة ، وهو بعد طفل ، أن شهد انتحار أبى . . رجل الصناعة المليونير . كانا معا فى قطار واحد ، وقد القى ابى بنفســه من القطار وهـــو منطلق ، قاصدا ان يقضى على حياته ، فقتـــل ! . . وكان فى رفقة أبى — فى هـــذه الرحلة — كوماروفسكى ، الذى كان

محاميه .. كان قد حمل أبى على ادمان الشراب ، واربك
اعماله ، ودفع به إلى شفا الافلاس ، وساقه إلى الانتحار ..
وكان الذنب ذنبه أن قتل أبى نفسه ، وتركنى يتيما !

— هذا غير محتمل ! .. ما اغربه ! .. امن الممكن ان
يكون هذا صحيحا ؟ .. إذن فقد كان له أثر محزن فى حياتك
انت الآخر ! .. إن هذا يزيدنا تقاربا ، اليس كذلك .. كأنما
كان كل شىء مرسوما فى الغيب من البداية !

— انه الرجل الذى ساظل دائما اشعر نحوه بغيرة
جنونية لا شفاء منها !

— كيف تقول مثل هذا القول ؟ .. الا ترى اننى لا اقتصر
على عدم حبه ، بل اننى امقته ؟

— امن الممكن ان تعرف نفسك إلى هذا الحد ؟ .. إن
الطبيعة البشرية جد غامضة ، وجد مليئة بالمتناقضات .. لعل
فى مقتك اياه بالذات شيئا يضطرك إلى ان تكونى مرتبطة به
باوثق مما ترتبطين باى رجل تحبينه بمحض إرادتك الحرة ،
دون ما قسر او غضب !

— ما افظع ما تقول ! .. وإن الطريقة التى تصوغه
بها ، لتجعلنى اشعر — كالعادة — بأن هذا صحيح رغم
بشاعته ونبوه عن المألوف الطبيعى ! .. ولكن ، كم هو رهيب
إذا صح !

— لا تذعرى ، ولا تصغى إلى ! .. إنما عنيت اننى اغار

من كل ما هو معتم ، بعيد عن الادراك .. من الشىء الذى
لا تستطيعين ان تتصلى به ، ولا أن تحدسى كنهه ! .. اننى
اغار من فرجون شعرك ، ومن قطرات العراق على جلدك ،
ومن الجرثيم التى فى الهواء الذى تستنشقينه ، والتى قد
تسرى فى دمك وتسممك ! .. وعلى هذا النحو بالذات اغار
من كوماروفسكى كما لو كان مرضا معديا ، لأنه سينتزعك منى
يوما ما .. وهذا اكيد تأكدنا من أن الموت سيفرق بيننا
يوما ما ! .. إننى ادرك ان هذا يبدو اشبه بلغو مشوش ،
ولكنى لا املك ان ازيده إيضاحا . إننى احبك حبا يتجاوز نطاق
العقل والذاكرة والقياس !

— ١٣ —

— زيدينى حديثا عن زوجك .. انه « شخص اثبت معى
فى كتاب النحس النكد » . .كما قال شكسبير .

— اين قال هذا ؟

— فى « روميو وجولييت » .

— لقد انبأتك عنه بالكثير ، فى (ميليوزييفو) — حين كنت
ابحث عنه — ثم هنا ، حين سمعت كيف قبض عليك رجاله
وساقوك إلى قطاره . ولعلنى قد اخبرتك — او ربما اكون قد
خلت اننى اخبرك — كيف رأيته مرة عن بعد ، وهو يصعد إلى
عربته . ولكنك تستطيع ان تتصور عدد الحراس الذين كانوا
يحيطون به ! .. وقد تبينت انه لم يتغير تقريبا ، فقد ظل له
عين الوجه المليح ، الصريح ، الحازم .. اكثر الوجوه التى

رايتها حياتى صراحة وامانة ! .. نفس الشخصية المتصـفة بالرجولة والاستقامـة ، والتى لا يشوبهـا ظل من عاطفـة أو تظاهر وتمثيل ! .. ومع ذلك ، فقد لمحت اختلافا أزعجنى!

« كأنما كان ثمة ابهام وغموض فى مظهر وجهه .. مما ابداه كصورة خالية من اللون ! .. اشبه بوجـه آدمى حى ، تحول إلى رمز مجسد لمبدأ .. كأنه صورة فكرة ! .. وقـد ساءنى هذا إلى ابشع مدى ، حين لمحته . فقد تبينت ان هذا قد اعتراه لأنه اسلم نفسه لشىء رفيع ولكنه مميت ، مجرد من الرحمة ، لن يبقى عليه فى النهـاية .. تراءى لى كما أنه كان موسوما بعلامة ، وأن هذا هو معنى العلامة .. ولكن ، ربما كان الأمر قد ابهم على .. ربما كنت متأثرة بما قلته انت حين وصفت لى لقاءك معه . فأنا ــ بعد كل شىء ــ متأثرة بك فى نواح كثيرة ، بغض النظر عما نشعر به ، كل نحو الآخر ! » .

ــ حدثينى عن حياتك معه ، قبل الثورة !

ــ لقد كنت فى باكورة صباى ، عندما كنت لا ازال طفلة ، متأثرة كل التأثر بالطهر ، فكانت له جاذبية قويـة تجتذبنى . وكان « باشا » هو الشخصـية التى تحقق هـذا الحنين فى نفسى . وأنت تعرف أننا نشأنا ــ طيلة نشأتنا تقريبـا ــ فى بيت واحد : باشـا وجاليولين وانا . ولقـد كان « باشـا » مفتونا بى فى صغره . فكان وجهه يتضرج ، أو يشتد شحوبا ، إذا ما رآنى .. وقد لا يجوز لى أن اتكلم على هـذا النمط ، ولكن التظاهر باننى لم اكن اعرف ، اسـوأ وانكى ! .. ذلك كان الوجد الصبيانى المتسلط ، الذى يتستر الصبى عليه لان

كبرياءه لا تسمح له بأن يبديه ، ولكن نظرة واحدة إلى وجهه تكفى لأن تكشفه لك ! .. وكنا نلتقى كثيرا ، وكان كل منـا يختلف عن الآخر ، بقدر ما كنت أنت واياى نتشابه ! .. ولقد اخترته إذ ذاك ــ ومنـذ ذلك الحين ــ فى قرارة فـؤادى ، وقررت ان اتزوج هذا الولد الفاتن بمجرد ان اكبر ، واعتبرت نفسى ــ فى خيالى ــ خطيبة له ، مرتبطة به !

« وأنت تعرف إلى أى مدى غير عادى هو موهوب ! .. كان ابوه رجلا عاديا ، عامل إشارة أو حارسـا فى السـكة الحديديـة ــ فلست أدرى على التحديد أيهمـا كان ــ ولكن « باشا » استطاع بعقله وحده ، وبالجد والاجتهاد ، ان يصل إلى .. كنت أهم أن اقول « مسـتوى » ، ولكنـه ــ على الأرجح ــ «قمة» التعليم العالى فى ايامنا هذه ، فى مادتين .. الآداب القديمة ، والعلوم الرياضية ! .. وهذا شىء تعرفـه انت ، على كل حال ! » .

ــ فما الذى أصاب حياتكما الزوجيـة إذن ، ما دام كل منكما كان كفئا بالآخر ؟

ــ ان الإجابة عن هذا ، من اصعب الأمور . ولسوف احاول أن احدثك عنه ، ولكنك تدرك انه من السخف أن أشرح لك ــ وأنت العاقل الحكيم ــ ما يجرى للحياة البشرية بوجه عام ، وللحياة فى روسيا ، واسباب تحطم الأسرات ، بما فيها أسرتك وأسرتى ! .. لعمرى ، انها ليست مسألة الأفـراد ، وما إذا كانوا متشابهين فى الصفات أو مختلفين ، وما إذا كانوا متحابين أو غير متحابين .. إن كل ما كان راسخا ، مستقرا

.. كل ما يتعلق بالبيت ، والنظام ، والوسط المشترك ، وقد تداعى وصار ترابا ، وكنس بعيدا فى الانتفاضة العامة ، وفى إعادة تنظيم المجتمع بأسره ! .. لقد هدمت طريقة الحياة البشرية كلها وخربت .. كل ما تبقى هى الروح البشرية عارية ترتجف وقد انتزعت عنها آخر اسمالها .. قوة النفس البشرية العارية التى لم يتبدل شىء بالنسبة إليها ، لأنها كانت دائما بارزة ، مرتجفة ، تسعى إلى اقرب جار يشبهها برودة ووحدة !

.. انك وإياى اشبه باول اثنين من البشر على الأرض ، نلم يكن لهما — فى بداية الدنيا — ما يستران به نفسيهما .. وها انتذا وإياى — فى نهايتها — بلا ستر ولا ماوى ، كما كانت الحال فى البداية ! .. ثم انك وإياى آخر ذكرى لتلك العظمة التى لا قياس لها ، والتى خلقت فى هذه الدنيا فى آلاف السنين التى تفصل بين زمننا وزمن الآدميين الاولين .. وما نعيش ، ونتحاب ، ونبكى ، ويتعلق كل منا بالآخر ، إلا فى ذكرى كل هذه العظمة التى ولت وتلاشت !

— ١٤ —

وسكتت برهة ، ثم استطردت ، وهى اكثر هدوءا وسكينة : — سأنبئك .. لو أن ستريلنيكوف صار « باشا انتيبوف » من جديد .. لو انه كف عن الهياج والثورة .. لو ان الزمن ارتد القهقرى ، ولو قدر لى — بمعجزة ما ، من حيث لا ادرى — أن ابصر نافذة دارنا مضيئة ، وقد انصب ضوء المصباح على منضدة « باشا » وكتبه ، ولو كان ذلك فى آخر اطراف الأرض ، لزحفت إليه على ركبتى حبوا ! .. لسوف

يستجيب كل شىء فى كيانى ! .. لست أقوى قط على ان اعصى نداء الماضى ، نداء الولاء ! .. ما من شىء احجم عن ان اضحى به ، مهما يكن ثمينا .. حتى أنت .. حتى حبنا ، ولو انه جد سعيد ، جد طبيعى ، حتى انه اصبح جزءا منى ! .. أواه ، عفوا ، فما قصدت هذا .. انه غير صحيح !

والقت بنفسها بين ذراعيه باكية . ولكنها سرعان ما تملكت نفسها ، فمسحت دموعها وقالت : « اليس هذا النداء هو عين نداء الواجب الذى يسوقك ثانية إلى تونيا ؟ .. أواه ، يا إلهى ، لكم نحن بائسان ! .. ما الذى سيصير إليه أمرنا ؟ ما الذى نملك ان نفعله ؟ » .

وإذ استردت جلدها ، عادت تقول : « ولكنى لم اجب عن سؤالك بصدد ما حطم سعادتنا .. لقد فهمته بوضوح تام فيما بعد . سأخبرك .. انها ليست قصتنا وحدنا ، بل انها اصبحت مصير كثيرين غيرنا ! » .

— حدثينى يا غرامى ، وانت على كل هذه الحكمة !

— لقد تزوجنا قبل الحرب بعامين . وكنا لا نزال نشرع فى بناء حياة خاصة بنا ، من صنعنا — بعد إذ فرغنا لتونا من اعداد بيتنا — حين انبثقت شرارة الحرب . وإنى لاعتقد الآن ان اللوم يقع على الحرب فى كل شىء ، وفى كل المحن والتعاسات التى توالت ، والتى تنهش جيلنا إلى اليوم .. اننى اتذكر تماما ما كانت عليه الحال فى طفولتى .. ما زال بوسعى أن اتذكر الزمن الذى كنا جميعا نتقبل فيه طريقة القرن الماضى فى التفكير المتسم بالسلم والمسالمة .. كان من المسلم

به أن تصغى إلى العقل ، وأن ترى أن من حقك — ومن الطبيعى — أن تفعل ما يمليه عليك ضميرك .. كان موت إنسان على يد إنسان آخر امرا نادرا ، بل حدثا غير عادى .. شيئا خارجا عن المألوف . كانت الاغتيالات لا تحدث إلا فى المسرحيات ، وعلى صفحات الصحف ، وفى الروايات البوليسية ، وليست فى الحياة اليومية ..

« ثم حدثت الطفرة من هذا الأسلوب الوادع ، البرىء ، المتزن — من أساليب العيش — إلى الدم والدموع ، إلى الجنون الجماعى ، وإلى وحشية المذابح التى تحدث كل يوم ، وكل ساعة ، والتى تكتسب صبغة شرعية ، ويكافأ عليها مرتكبوها !

« ولست أحسب أن هذا سيستمر دون عقاب إلى الأبد .. ولا بد انك تذكر — اكثر مما أذكر انا — بداية التفكك والانحلال ، وكيف أن كل شىء أخذ يتحكم دفعة واحدة وينهار .. القطارات والامدادات الغذائية فى البلدان ، وأسس الحياة المنزلية ، والقيم والمعايير الاخلاقية الواعية ! » .

— امضى فى حديثك ، فانى ادرك ما سوف تقولين بعد هذا .. ما أبدع إدراكك لكل هذا ! .. أن الانصات إليك يطرب النفس !

— فى تلك الفترة ، دخل الزيف ارضنا الروسية .. وكان نكدنا الاكبر — أس جميع ما قدر له أن يحدث من شر — هو نقدان الايمان بقيمة الآراء الشخصية . فلقد توهم الناس أن

اتباع ادراكهم الخلقى أمر لا يتمشى مع روح الزمن الحاضر ، وأن عليهم أن يتغنوا جميعا بنفس اللحن ، فى إنشاد جماعى ، وأن يعيشوا على ما يراه الغير من آراء كان يحشى بها حلق كل امرىء .. وعند ذلك ، قامت قوة العبارات البراقة .. وكانت قيصرية فى البداية ، ثم أصبحت ثورية !

« وأصبح الشر الاجتماعى وباء . كان سريع العدوى ، وقد أصاب كل شىء ، فلم يبق شىء لم يمس به ! .. ولم ننج نحن — فى دارنا — من تأثيره ، فقد طرأ على البيت شىء من الخلل ، وبدلا من أن نكون طبيعيين ، وعلى سجيتنا — كما اعتدنا دائما — بدأ التعاظم والخيلاء يدبان فيما بيننا بطريقة تنم من غباء . فتسلل إلى حديثنا شىء من التظاهر ، والاصطناع ، والافتعال .. كنت تحس أن عليك أن تكون بارعا — بطريقة معينة — بصدد بعض موضوعات معينة ذات أهمية دنيوية . فكيف كان بوسع « باشا » الذى كان بالغ الحصافة ، مفرط الدقة فى محاسبة نفسه ، والذى كان يميز بين الواقع والمظهر دون ما خطأ — أن يغفل الزيف والخداع الذى تسلل إلى حياتنا ؟

« ولكن هذا بالذات كان موضوع غلطته الشنيعة ، القاضية .. لقد أخطأ فهم روح العصر .. أخطأ فهم الشر الاجتماعى العام، فظنه خاصا ، مقتصرا على حياته الخاصة . كان ينصت إلى عباراتنا ومصطلحاتنا المنمقة ، وإلى لهجتنا الرسمية غير الطبيعية ، فيظن أنه نكرة ، وأننا لم نكن نتحدث على هذا النمط إلا لأنه كان فى الصف الثانى .. ذا قيمة ثانوية !

.. واحسب انك لا تصدق انه كان لهذه الأمور التافهة اثر كبير فى حياتنا الزوجية ! .. ليس بوسعك ان تتصور مدى ما كان لهذه الأمور من أهمية .. ليس بوسعك أن تتصور الأعمال الطائشة التى حمله عليها هذا الهراء الصبيانى !

« ان احدا لم يطلب إليه ان يذهب إلى الحرب ، وإنما ذهب لانه توهم نفسه عبئا علينا ، فاراد ان نتحرر منه ! .. وكانت هذه هى بداية جنونه كله ! .. كان — بفضل غرور مراهق سيىء التوجيه — يشعر بأن كرامته جرحت من اشياء لا تنطوى على عدوان على الكرامة . فبرم بمجرى الاحداث ، وسخط على التاريخ ، فهو لا يزال — إلى يومنا هذا — يحاول ان ينال منه . وهذا ما يجعله متحرشا مستفزا إلى درجة جنونية .. إن هذا الطموح الأرعن هو الذى يسوقه إلى حتفه . يا إلهى ! ليتنى استطيع ان اوفق إلى انقاذه ! » .

— ما اطهر حبك اياه وأقواه ! .. امضى فى حبك اياه ، امضى ، فلست اغار منه ! .. لن اقف فى طريقكما !

— ١٥ —

واقبل الصيف وانتهى ، دون ان يفطن إليه احد .. واسترد « يورى » عافيته . وتولى ثلاثة مناصب — وليس منصبا واحدا — بينما كان يرسم خطته للذهاب إلى موسكو . وكان الهبوط السريع فى قيمة النقود يجعل من العسير عليه ان ينسق اموره .

وكان يستيقظ مع صياح الديكة — فى كل صباح — فيغادر البيت ، وينطلق فى شارع (التاجر) ، مارا بدار سينما « العملاق » ، حتى يصل إلى دار مطبعة « جيش قوزاق الاورال » سابقا ، التى اصبحت تدعى « جامع الحروف الاحمر » . وعند ناصية شارع (جوروودسكايا) ، كان باب قاعة البلدية يحمل لافتة كتب عليها « الشكاوى » . وكان « يورى » يجتاز الميدان ، ويعرج على شارع (بويانوفسكا) ، حتى يصل إلى المستشفى ، فيدخل – خلال الباب الخلفى – إلى « العيادة الخارجية » ، فى القسم الخاص بالجيش ، حيث كان يعمل .. وكان هذا هو منصبه الرئيسى .

وكان الشطر الأكبر من طريقه — من دار « لارا » حتى المستشفى — يمتد فى ظلال اشجار وارفة ، مارا ببيوت صغيرة غريبة ، من الخشب ، ذات سقوف منحدرة ، وابواب مزخرفة ، ونوافذ بزينات محفورة وملونة . وكان البيت المجاور للمستشفى مباشرة ، وقد قام فى وسط حديقة خاصة به ، ملكا لارملة التاجر « جورجليادف » ، وقد آل إليها بالوراثة وقد كسيت جدرانه بقطع من القرميد اللامع ، المصقول ، « المشطوف » — كقطع الماس — على نمط بيوت كبار التجار القديمة فى موسكو .

وكان يورى يحضر اجتماعات مجلس إدارة « مرفق يورياتين الصحى » — بشارع (مياسكى) — ثلاث مرات او اربعا ، خلال الأسبوع الذى كان يتألف من عشرة ايام .

وفى الطرف الآخر من المدينة ، قام « معهد علم امراض النساء » سابقا ، الذى انشاه والد سامديفياتوف تخليدا لذكرى زوجته التى ماتت اثناء الوضع .. وقد ابدل اسمه إلى « معهد روزا لوكسمبورج » . وهناك ، كان يورى يلقى محاضرات فى « علم الأمراض العام » ، وفى موضوع أو اثنين متعلقين بالبصريات ، كجزء من المنهج الجديد ، المختصر ، لدراسة الطلب والجراحة .

وكان — إذ يعود بالليل جائعا متعبا — يجد « لارا » فى غمرة مهامها المنزلية ، تطهو او تغسل . وفى هذه الناحية العادية من وجودها ومن عملها اليومى — وقد بدت مشعثة ، وشمرت عن كميها ، ورفعت ذيل ثوبها إلى وسطها — كانت تلقى الروع فى نفسه ، بجمالها المهيب ، الجليل ، الذى كان يملك عليه انفاسه اكثر مما لو رآها فى اتم اهبة للذهاب إلى مرقص ، وقد بدت اطول مما هى ، وكانما ازدادت طولا إذ ارتدت حذاءين مرتفعى الكعبين ، وثوبا طويلا ، منحسر الصدر ، جرار الذيل ، ذا حفيف رافل !

وكانت تطهو ، او تغسل وتستخدم الماء المثقل بالصابون لتمسح به ارض الغرف .. او تؤدى عملا ادعى للهدوء ، واقل دفعا للدماء إلى وجهها ، فترتق وتكوى الثياب الداخلية لثلاثتهم .. أو كانت — إذا ما فرغت من الطهو والغسيل والتنظيف — تلقى دروسا على « كاتيا » .. او كانت تعكف على كتبها مجددة تعليمها السياسى لتهيىء نفسها لمهمة التدريس القديمة ، فى المدرسة الجديدة ، وفقا للنظام الجديد .

وكان كلما ازداد قربى من « لارا » وابنتها ، قل إقدامه على الاطمئنان لحياتهم العائلية ، واخذت السيطرة — التى كان يفرضها على افكاره واجبة نحو اسرته وألمه لايمانه المنهار — تشتد تعسفا . ولم يكن فى هذا ما يمس « لارا » او « كاتيا » . بل إن مسلكه كان — من ناحيته — على العكس من ذلك .. كان يحتوى على دنيا من الاحترام الذى يحول دون الألفة المبتذلة .

ولكن هذا الحد الذى اقامه لنفسه كان مبعث اسى وعذاب له ، وما تعوده الا كما يتعود المرء جرحا لا يبرا ، فهو كثيرا ما ينكأ !

— ١٦ —

وبعد شهرين او ثلاثة من الاقامة على هذا النمط ، قال يورى للارا ذات يوم :

— اتعرفين انه يبدو اننى قد اضطر إلى الاستقالة من مهامى ؟ انه دائما عين الشىء ، يحدث مرارا وتكرارا .. فكل شىء رائع فى البداية : « تعال ، فنحن نرحب بكل عمل طيب امين .. اننا نرحب بالأفكار ، وبالأفكار الجديدة بوجه خاص .. اى شىء افضل من هذا يروق لنا ؟ .. اد عملك ، وابحاثك ، وكافح ، وامض فى سبيلك ! » .

« ثم تجدين — عند التطبيق العملى — أن ما يقصدونه بالأفكار ليس سوى كلمات .. كلمات طنانة تشيد بمديح الثورة ونظام الحكم . لقد سئمت ومللت هذا كله .. وهو ليس بالشىء الذى اصلح له !

« واحسب انهم على صواب ، من وجهة نظرهم .. ولست فى صفهم ، بطبيعة الحال . وكل ما هنالك اننى أجد من العسير على ان اتقبل الراى القائل بأنهم ابطال متألقون ، واننى — شخصيا — لست سوى شخص حقير ، صغير الشأن ، يناصر الظلم والظلامية . هل سمعت يوما عن نيكولاى فيدنيابين ؟ » .

— طبعا ! .. سمعت عنه قبل مجيئك ، ثم مما قلته لى انت نفسك . وكثيرا ما تتحدث عنه « سيما تونتسيفا » ، فهى من كبار المعجبين به . ويخجلنى اننى لم اقرا اى كتاب من كتبه ، فأنا غير مولعة بالمقالات الفلسفية .. واعتقد انه لا بد من إضافة شيء من الفلسفة إلى الحياة والفن ، على غرار « البهارات » الفاتحة للشهية ، أما اتخاذها اختصاصا للمرء ، فهذا ما يلوح لى عجيبا ، عجب الاقتصار فى الغذاء على المخللات وحدها ! .. على اننى آسفة إذ شغلتك بهذيانى هذا !

— لا ، فهو فى الواقع قريب كل القرب مما اراه انا نفسى .. وإن كنت — من جراء خالى — اعتبر مفسودا بفضل تأثيره على . فان من خطاياى الاعتقاد بالبديهة . ولكن ، انظرى كم هو مضحك .. انهم يقولون جميعا — بأعلى أصواتهم — اننى مبدع فى تشخيص الأمراض .. والواقع أن من الصحيح اننى نادرا ما اخطىء فى تشخيص اى مرض فماذا يعتبر هذا الادراك السريع للموقف — فى مجموعه — إذا لم يكن هو البديهة التى يرونها ممجوجة ؟ !

« شيء آخر .. فأنا فى حيرة وشغل بمشكلة التمثيل والمحاكاة .. التقليد والتشكل .. تكيف كائن حى — من حيث المظهر الخارجى — بلون بيئته . إذ اعتقد انها تلقى ضوءا مذهلا على العلاقة بين دخيلة النفس والعالم الخارجى .. ولقد اقدمت على ذكر هذا فى محاضراتى . وسرعان ما ارتفعت الأصوات : « مثالية ، مذهب اهل الباطن ، فلسفة « جيته » عن الطبيعة ، فلسفة شيللينج فى ثوب جديد ! » .

« لقد آن لى أن أناى .. ولسوف أبقى فى المستشفى إلى ان يطردونى منه . ولكنى سأستقيل من المعهد ، ومن إدارة الصحة . ولست ابغى أن اسبب لك إزعاجا ، ولكن شعورا يراودنى — من آن إلى آخر — بأنهم قد يأتون ويعتقلوننى فى اى يوم من الأيام » .

— معاذا الله أن يسمح بذلك . إن الأمر لم يصل إلى هذا الحد بعد ، لحسن الحظ . ولكنك على صواب ، ولا ضير فى الأخذ بمزيد من الحذر . ولقد لاحظت أن هذا العهد كلما حصل على سلطان سار فى مراحل معينة منتظمة .. فالمرحلة الأولى انتصار العقل ، انتصار روح النقد ، والكفاح ضد المعتقدات القديمة ، وما إليها ..

« ثم تأتى المرحلة الثانية .. فيتجه التركيز كله إلى القوى المحوطة بالظلام ، وإلى الانصار الزائفين ، وإلى المترددين . فاذا الشبهات فى ازدياد مضطرد .. وإذا هناك وشاة ، ودساسون . واحقاد .. وإنك لعلى صواب تام ، فنحن نلج الآن المرحلة الثانية .. ولسوف اطلعك على مثال يثبت ذلك .

فان المحكمة الثورية المحلية حظيت بعضوين جديدين ، نقلا إليها من (خوداتسكوى) .. وهما معتقلان سياسيان قديمان ، من العمال : تيفرزين ، وانتيبوف . وكلاهما يعرفاننى تمام المعرفة ، بل إن احدهما حماى ، فى الواقع وبصريح العبارة . .

« ومع ذلك ، فاننى لم ابدأ ارتجف فرقا ، خوفا على حياة كاتيا وحياتى ، إلا منذ وصولهما .. إن انتيبوف لا يحبنى، وإنى لاعتقد انهما معا قادران على اى شىء ، ولن يكون مستغربا منهما ان يقضيا على ، بل وعلى باشا نفسه ، فى يوم من الأيام ، باسم العدالة الثورية العليا » !

* * *

وحدث مصداق هذا الكلام ، بعد وقت جد قصير . فقد اجرى تفتيش — ذات ليلة — فى دار الأرملة «جورجليادوفا» ، رقم ٤٨ بشارع (بويانوفكا) ، المجاورة للمستشفى . فعثر على مخبأ للأسلحة ، واكتشفت مؤامرة ضد الثورة .. واعتقل عدد من الناس ، واستمرت موجة التفتيش والاعتقالات . وتطايرت الشائعات بأن بعض المشتبه فيهم قد هربوا عن طريق النهر . فقال الناس : « ومع ذلك ، فماذا يجديهم الفرار ؟ .. هناك فارق بين انهار وانهار .. خذ نهر (أمور) مثلا ، عند (بلاجوفيشتشينسك) . .ليس عليك سوى ان تقفز إليه ، وتعبره سباحة ، فاذا بك فى الصين ! .. هذا هو النهر حقا ، وهذه مسألة اخرى ! » .

وقالت لارا : « ان الجو يزداد اكفهرارا . لقد ولى زمن سلامتنا ، ومن المؤكد انهم عاقدوا العزم على اعتقالك

واعتقالى ، فلماذا يجرى لكاتيا إذ ذاك ؟ .. اننى أم ، ولا استطيع ان ادع هذا النحس يحدث ، بل لا بد من التفكير فى مخرج .. يجب ان ارسم خطة .. إن هذا الأمر يكاد يخرجنى عن رشدى ! » .

— دعينا نحاول ونفكر ، بالرغم من اننا لا نملك شيئا إزاء حال كهذه .. اليس دفع هذه الضربة فوق طاقتنا ؟ .. اليس الأمر كله موكولا للقدر ؟

— من المحقق ان لا نجاة لنا ، ولا مكان هناك نذهب إليه . بيد اننا قد نستطيع ان نخرج من نطاق الأنوار الكاشفة .. قد نستطيع ان نذهب إلى (فاريكينو) مثلا ، فانى لا افتأ افكر فى الدار التى هناك .. انها بمعزل ، ومهملة ، ولكنا هناك نكون اكثر بعدا عن الاحداث منا هنا ، وقد لا نجتذب كثير اهتمام .. ان الشتاء مقبل ، ولست ارى بأسا البتة فى قضائه هناك . وإلى ان يصلوا إلينا ، نكون قد اكتسبنا عاما من الحياة ، وهذا كسب يذكر دائما ! .. ولسوف يعنى سامديفياتوف بجعلنا على اتصال بالبلدة . بل إنه قد يساعدنا على الاختباء كذلك ! .. فما رأيك ؟ .. من الصحيح ان ليست ثمة نفس حية هناك ، فالدار خاوية ، موحشة ، او انها كانت كذلك عندما ذهبت إليها فى شهر مارس . ويقال إن ثمة ذئابا . وهذا امر يدعو إلى الخوف ، ولكننا يجب ان لا ننسى ان امثال تيفرزين وانتيبوف اكثر اخافة من الذئاب ، فى هذه الأيام !

— لست أدرى ما ينبغى ان اقول . الم تكونى تستحثيننى — طيلة هذه المدة — على الذهاب إلى موسكو ، وتطالبينني

بأن لا ارجىء ذلك ؟ . . لقد أصبح هذا اسهل تحقيقا ، إذ سألت فى المحطة . . والظاهر انهم قد كفوا عن الاشتغال بالمتجرين فى السوق السوداء . ولم يعودوا ينتزعون من القطار كل من ليست اوراقه مكتملة ، وقل عدد من يرمونهم بالرصاص . . لقد تعبوا وسئموا !

« إنما يزعجنى اننى لم اتلق ردا عن خطاباتى إلى موسكو ، وجدير بى ان اذهب إلى هناك ، لاتبين ما يجرى لهم . . انك لا تفتأين تنصحينني بذلك ، انت نفسك ! . . ثم ، كيف لى ان اقتنع بما تقولينه عن (فاريكينو) ؟ . . من المؤكد انك لا تجرؤين على الذهاب إلى مكان كهذا — بعيد عن العمران — وحدك . .

— لا ، بطبيعة الحال . . سيكون هذا مستحيلا بدونك !

— ومع ذلك ، فأنت تطالبينني بالذهاب إلى موسكو ؟

— اجل ، يجب ان تذهب .

— اسمعى ، لقد واتتنى فكرة رائعة ! . . لنذهب — ثلاثتنا — إلى موسكو .

— إلى موسكو ؟ . . إنك مجنون ! ما الذى افعله فى موسكو ؟ . . لا ، لابد لى من المكث هنا ، يجب ان اظل على مقربة من هنا . فهنا سيتقرر مصير « باشا » ، ولا بد لى من ان انتظره ، وان اكون على مقربة منه إذا ما احتاج إلى !

— إذن ، فلنفكر فى امر « كاتيا » !

— لقد كنا نتحدث عنها . . مع سيما . . سيما تونتسيفا ، فهى تأتى لزيارتى احيانا .

— اجل ، اعرف ، فانى كثيرا ما اراها .

— لو كنت فى مكانك لوقعت فى هواها ، فى الحال . . لست ادرى اين عيونكم ايها الرجال . . يا لها من حبيبة ! . . رشيقة ، لطيفة ، ماهرة ، متعلمة ، كريمة ، عاقلة !

— لقد قصت لى اختها شعرى يوم وصولى : جلافيرا ، الخياطة .

— اعرف هذا . فهما تعيشان مع اختهما الكبرى « افدوتيا » . . امينة المكتبة . انهن يؤلفن اسرة صالحة ، عاملة ، شريفة . ولقد فكرت فى أن اسألهن — لو حدثت اسوا الامور ، والقى القبض عليك وعلى — عما إذا كن يرين مانعا من أن يأخذن كاتيا ويرعينها !

— هذا إذا لم يكن ثمة تدبير آخر . . فلندع الله ان لا تتطور الأمور إلى هذا الحد .

— انهم يقولون إن « سيما » غريبة الأطوار نوعا ما . . ليست مكتملة العقل . والحق انها لا تبدو عادية تماما ، ولكن هذا إنما يرجع إلى انها عميقة ، فذة فى نوعها . . انك وإياها تتشابهان فى الآراء إلى درجة عجيبة . واعتقد اننى اكون جد مطمئنة إلى حال « كاتيا » ، لو أن « سيما » تولت تربيتها !

— ١٧ —

وذهب يورى إلى المحطة مرة اخرى . . ومرة اخرى ، رجع صفر اليدين . كان كل شىء لا يزال غير محسوس ، وكان و « لارا » يقفان امام المجهول . . وكان باردا ومعتما ، كما هى الحال قبيل تساقط الدفعة الأولى من الجليد . وكانت

السماء تتشح – حيثما يقدر لك ان ترى رقعة كبيرة منها ، عند مفترق الطرق – بغلالة الشتاء ..

وكانت ثمة زائرة لدى لارا ، هى « سيما » ، وقد راحتا تتبادلان الحديث ، ولكن كلامهما كان أشبه بمحاضرة تلقيها « سيما » على مضيفتها . ولم يشأ « يورى » أن يثقل عليهما ، كما انه كان يبغى أن يخلو إلى نفسه ، فاستلقى على الأريكة فى الحجرة المجاورة . وكان الباب – بين الحجرتين – مفتوحا ، وثمة ستارة تنسدل عليه ، من « الشراعة » حتى الأرض ، ولكنها لم تحل دون ان يسمع « يورى » ما كانتا تقولان .

– سأستمر فى الحياكة ، ولكن لا تحفلى بهذا يا عزيزتى سيما ، فانى مصغية إليك ، وكلى آذان .. لقد درست التاريخ والفلسفة اثناء وجودى فى الكلية . وإنى لأميل كثيرا إلى نظرتك إلى الأمور . فضلا عن اننى أشعر بارتياح إذ انصت إليك .. اننا لم نحظ بالنوم كثيرا – فى الليالى القلائل الأخيرة – لفرط قلقنا من اجل « كاتيا » . فأنا أعرف أن من واجبى كأم لها ان اطمئن إلى سلامتها ، لو إن شيئا جرى لنا . وخليق بى ان افكر فى ذلك بهدوء وروية ، ولكنى لا اصلح كثيرا لذلك ، وكم يحزننى أن اتبين ذلك .. إننى حزينة ، لأننى متعبة ، ولم احظ بنوم كاف ، ولكن الانصات إليك يرد إلى اتزانى . ثم إن الجليد لن يلبث ان يتساقط فى أية لحظة ، وانا احب ان اصغى إلى حديث طويل ، حكيم ، حين يتساقط الجليد ! .. هل لاحظت انك إذا نظرت إلى النافذة – عندما يتساقط الجليد – فانك تشعرين دائما بان ثمة شخصا ما مقبل على

البيت عبر الحديقة ؟ .. امضى فى حديثك يا عزيزتى سيما ، فانى مصغية اليك !

– اين وقفنا فى الحديث ، فى المرة السالفة ؟

ولم يسمع « يورى » رد لارا ، ولكنه لم يلبث ان سمع « سيما » تقول :

– لست احب الكلمات التى من قبيل « ثقافة » و « حقبة من التاريخ » ، فهى تؤدى إلى اضطراب الذهن . وإنى لأفضل ان اعبر عنها بطريقة اخرى . فان الإنسان – فى رأيى – مصنوع من شطرين : الله والعمل . فكل مرحلة تتلو اخرى – فى طور النفس البشرية – تمتاز بتحقيق عمل شديد البطء طويل الأجل ، يستغرق اجيالا عديدة .. ولقد كانت (مصر) مثالا لهذا العمل ، و (اليونان) مثلا آخر ، وفقه انبياء العهد القديم (التوراة) مثالا ثالثا . وآخر مثال – فى الترتيب الزمنى – هو الذى لم يبدل بعد بعمل آخر .. هو « المسيحية » .. وهى – كعمل – لا تزال تستكمل على أيدى الملهمين فى زمننا ..

« ولكى ابين لك هذا الشىء الجديد – تمام الجدة – الذى جلبته المسيحية على العالم بكل نضرتها وجدتها – لا كما عرفتها والفتها ، وإنما بمزيد من البساطة ، والقصد المباشر ، وعدم التوقع – اود أن أستعرض بضعة احداث مقتبسة عن النصوص الدينية .. مجرد مقتبسات قليلة ، وموجزة لهذه الغاية :

« ان طائفة من النصوص الدينية تبين فى مجموعها نظريات

« العهد القديم » و « العهد الجديد » ، وتسوقهما بعضهما بجانب بعض .. مثال ذلك الدغل المحترق ، والخروج من مصر ، والأطفال فى الأتون المتأجج ، ويونان (يونس) والحوت .. وهذه — فى « العهد القديم » — تقارن بولادة العذراء ، وبعث المسيح ، فى « العهد الجديد » .. مثل هذه المقارنة تبين بوضوح مدهش جدا — فيما أرى — كيف أن « العهد القديم » قديم ، و « الجديد » جديد .. وكثير من النصوص تقيس ولادة العذراء بعبور اليهود البحر الأحمر .. فهناك — على سبيل المثال آية تبدأ بـ : « إن مثل العروس العذراء قد ضرب يوما فى البحر الأحمر » . ثم تستطرد لتبين انه : « كما ان البحر أصبح متعذر العبور ، بعد ان اجتازه بنو إسرائيل ، فكذلك كانت الطاهرة غير مفسودة بعد مولد عمانوئيل » .. اى أن عبور البحر سيرا على الأرض ، أصبح مستحيلا بعد أن اجتازه اليهود ، وكذلك ظلت بكارة مريم دون سوء بعد مولد الرب . وهكذا اقيم شبه بين الحادثين . فأى نوع من الأحداث هما ؟ .. كل منهما خارق للطبيعة ، هما سواء من حيث اعتبارهما معجزتين معترفا بهما . ولكن ثمة فارقا بين المعجزتين .. فارق فى نوع الشىء الذى كان الناس يرونه معجزة فى تينك الحقبتين المختلفتين من الزمن . فقد كانت إحداهما قديمة ، بدائية .. وكانت الأخرى جديدة بعد قيام الرومان ، فهى أكثر تقدما .

« وفى إحدى الحالتين ، تجدين زعيما قوميا — هو زعيم العشيرة موسى — يأمر البحر بالانحسار ، فاذا البحر ينشق

تحت ضربة عصاه السحرية ، فيتيح لشعب بأسره — لا حصر لعدد نفوسه .. مئات الآلاف من الناس — بالمضى خلاله ، حتى إذا اجتازه آخر رجل منهم ، إذا به ينطبق ثانية ، فيبتلع المصريين الذين يطاردونهم ويغرقهم . إن الصورة كلها رسمت وفقا للاسلوب القديم .. فاذا العناصر تطيع الساحر .. وجحافل حاشدة من الناس — كجيوش الرومان — تسير قدما .. شعب وقائد زعيم .. كل شىء واضح ، بين ، مدو ، هائل !

« وفى الحالة الثانية ، تجدين فتاة — عادية الشكل جدا ، حتى لقد كان من الممكن أن تثير اى اهتمام فى العالم القديم — تنجب طفلا فى هدوء وتكتم .. تنجب حياة .. تنجب معجزة الحياة ، « حياة الكل » كما اطلق عليه فيما بعد .. ومولد طفلها لا يقتصر على أنه غير مشروع — وفقا للشرائع — فحسب ، بل انه ضد قوانين الطبيعة . وهى لا تلد بحكم الضرورة ، وإنما بمعجزة .. بالهام . ومنذ ذلك الحين لم يعد اساس الحياة هو الاضطرار ، وإنما اصبح اساسها ذلك الالهام بالذات ، وهذا ما يوحيه « العهد الجديد » .. اصبح اساسها « غير العادى » بدلا من « العادى » ، « الاحتفالى » بدلا من « العمل اليومى » ، «الالهام» بدلا من « الاضطرار » .

« وبوسعك أن ترى اى تبدل عظيم المعنى هذا الذى جرى ! .. فلماذا يقاس حادث بشرى خاص ، غير ذى قيمة البتة — إذا قيس بالمعايير القديمة — بهجرة شعب بأسره ؟ .. لماذا تكون له هذه القيمة فى نظر السماء ؟ .. إذ إن

الحكم عليه لا بد ان يتم على ضوء نظرة السماء إليـه ، لأنه لا يقام للأمر كله وزن إلا امام وجه السماء ، وفى الضوء القدسى المنبعث عن تفرده الفذ .

« لقد تغير شىء ما فى الدنيا . كانت (رومـا) قد بلغت نهايتها ، وحكم الجماعات قـد بلغ غايته .. والغى الواجب الذى فرضته القوة المسـلحة .. الواجب الذى كان يفرض على الفرد أن يعيش مغمورا ، فلا وجود للشعب .. للأمة فى مجموعها .. اصبح الزعماء والأمم يمتون إلى الماضى ، وحل محلهم مذهب الشخصية الذاتية والحرية .. وصارت قصة حياة بشرية ، هى سيرة الرب ، التى ملأت الكون .. وكمـا ورد فى النصوص الدينية ، فى « عيد البشرى » ، أن آدم حاول أن يكون ربا فاخفق .. ولكن ها هو ذا الـرب قـد جعل إنسانا ، حتى يتسنى جعل آدم ربا ! » .

* * *

وأمسكت سيما عن الاسترسال لتقول : « سأعود إلى هذا بعد لحظة ، فانى أحب ان أخرج عن الموضوع قليلا .. ففى كل ما يتعلق برعاية العمال ، وحماية الأم ، والكفاح ضد سلطان المال ، نجد أن عهدنا الثورى عهد رائع ذو إصلاحات جديدة ، باقية ، دائمة .. أما تفسـيره للحيـاة ولفلسـفة السعادة التى يبشر بها ، فـ .. فمن المستحيل أن يصدق المرء أنه تفسير جدى ، إذ إنه بقية هزلية متخلفة من المـاضى ولو كان لكل هذه البلاغة ــ عن الزعماء والشعوب ــ قوة على قلب التاريخ ، لردتناآلاف السنين إلى عهود التوراة .. عهود

الرعاة وزعماء القبائل . ولكنها ــ لحسـن الحظ ــ لا تملك هذا .

« والآن ، لنقل بضع كلمات عن المسيح ومريم المجدلية .. انها ليست من الأناجيل ، وإنما هى من الصلوات فى يوم من ايام الأسبوع المقدس ، واظنه يوم الثلاثاء او الأربعاء . انك تعرفينها جميعا يا لاريسا فيودوروفنا ، وإنما أريـد ان اذكرك بشىء ما .. فان كلمـة « العاطفة » لدى الكنيسـة السلافية تعنى ــ قبل كل شىء ــ « الألم » ، الم المسـيح : « احتمل المسيح المه » . كذلك تستعملها النصوص الدينيـة بمعنـاها الذى ترجمت إليـه بالروسية فيمـا بعـد ، معنى الشهوات والرذائل : « نفسى تستعبدها الشهوات ، وقـد اصبحت كوحوش الحقل » .. «اما وقد طردنا من الجنـة ، فلنجعل انفسنا اهلا للعودة إليها ، بالعزوف عن شهواتنا » ، وما إلى ذلك .. وقـد اكون مخطئـة ، ولكنى لا اميل إلى النصوص التى وردت فى الصوم الكبير بشأن كبح الأحاسيس وقمع شهوات الجسد . إنها فجة ، بـلا روح ، مجـردة من شاعرية الكتابات الروحية الأخرى ، إلى درجة عجيبة . وقد درجت دائما على الظن بأنها من نظم رهبان سمان ، لم يكونوا يراعون سنن نظامهم ! .. وليس معنى هـذا اننى أحفـل بخرقهم هذا النظام ، وبخداعهم الناس ، ولا بأنهم عاشوا وفقا لما كان ضميرهم يوحيه إليهم ، فليس الرهبان هم الذين أعنى بهم ، وإنما الذى أعنى به هو المضمون الحقيقى لتلك الفقرات .. إن كل هذا الندم يضفى اهمية اكثـر مما ينبغى على علل الجسد ، وعلى ما إذا كان سمينا او كان مهزولا .. انه لأمر

يثير الاشمئزاز ! لكم يلوح لى انه يخلع شيئا غير طاهر ، ولا ذا بال ، وإنما هو ثانوى الأهمية ، على كرامة لا تمت إليه بصلة .. الا اغفرى لى هذه الشطحات !

« ومما يثير اهتمامى دائما ان مريم المجدلية قد ذكرت عند الاستعداد لعيد الفصح بالذات ، على اعتاب موت المسيح وبعثه . ولست ادرى السر فى ذلك ، ولكن هذه التذكرة تبدو لى كما لو كانت قد سيقت فى وقتها المناسب ، فى لحظة وداعه الحياة ، وقبل عودته إليها ثانية .. فانظرى إلى الطريقة التى سيقت بها هذه التذكرة .. اية عاطفة حقيقية توجد فيها ، واية صراحة مباشرة مستهترة !

« وهناك بعض شك فيما إذا كانت هذه التذكرة تقصد المجدلية ، او تقصد اية مريم من « المريمين » الاخريين . ولكنها — على اية حال — تتوسل إلى ربنا قائلة : « فك دينى ، كما افك شعرى » ! .. اى «خلصنى من ذنبى كما احل شعرى» . فهل ثمة تعبير عن الندم ، وعن التعطش للمغفرة ، اشد من هذا رسوخا ، واكثر من هذا وضوحا ؟ !

« وتأتى بعد ذلك — فى النصوص الدينية الخاصة باليوم ذاته — فقرة اكثر تفصيلا ، ويكاد يكون من المؤكد فى هذه المرة ، انها تشير إلى مريم المجدلية :

« ومرة اخرى ، يشتد بها الحزن بشكل ملموس فظيع ، على ماضيها وعلى الفساد الذى تغلغل فيها ، حتى انه كان يبعث فيها فى كل ليلة ، من جديد : « أن تأجج الشهوة اشبه

لدى بالليل .. إنه سورة الإثم المظلم ، الذى لا قمر له » ! . وهى ترجو المسيح أن يقبل دموع توبتها ، وأن يتأثر بصدق تنهداتها ، حتى تستطيع أن تجفف قدميه المفرطتى الطهر بشعرها .. فتذكره بأن حواء لا ذات بأمواج شعرها المتدافعة ، عندما طغى عليها الخوف والخجل فى الجنة : « دعنى اقبل قدميك المفرطتى الطهر ، وارويهما بدموعى ، واجففهما بشعر رأسى ، الذى كسا حواء وسترها عندما تولاها الخوف فى هدوء يوم الجنة الرطيب ، إذ ملأ اذنيها الصوت » .. وسرعان ما تهتف ، بعد كل هذا الذى قيل عن شعرها : « منذا الذى يستطيع أن يسبر غور خطاياى ، وعمق حكمك ؟ » .. اية الفة ، واية تعبيرات متساوية بين الرب والحياة ، والرب والفرد ، والرب وامرأة ! » .

— ١٨ —

وكان يورى قد عاد من المحطة منهوك القوى .. وكان اليوم يوم عطلته الأسبوعية ، وقد اعتاد أن ينام فيه نوما يكفيه طيلة الأيام التسعة الأخرى من الأسبوع الذى كان يتألف من عشرة ايام .. واستلقى على الأريكة ، وراح يتمطى عليها من آن إلى آخر . ومع أنه كان يصغى إلى « سيما » خلال ضباب النعاس الزاحف ، إلا أن تأملاتها اطربته . فقال فى نفسه : « لقد اخذتها كلها من كتب الخال كوليا ، طبعا ! .. ولكن ، لكم هى ذكية موهوبة بالرغم من هذا ! » .

ونهض من رقدته فسار إلى النافذة .. وكانت تطل على فناء الدار ، وكذلك كانت نافذة الحجرة المجاورة ، حيث كانت



واستلقى على الاريكة ، وراح يتمطى عليها من آن الى آخر ..

لارا وسيما تتحدثان دون أن يستبين حديثهما . وكان الظلام يزحف ، وبدا كأنما الجليد يتساقط . وطار غرابان من الطريق ، فراحا يحومان بحثا عن مكان يستقران فيه ، والريح تعبث بريشهما . وحطا على غطاء مستودع القمامة ، ثم طارا فوق السياج ، وهبطا إلى الأرض ، وراحا يقفزان فى الفناء .

وقال يورى فى نفســه : « الغربان نذر الجليد » . وفى اللحظة ذاتها ، قالت سيما — فى الحجرة المجاورة — بصوت مرتفع : « الغربان نذر الأنبــاء . ســيأتيك ضــيوف ، أو خطاب ! » .

وإن هو إلا قليــل ، حتى جذب شخص ما مقبض جرس الباب ، الذى كان « يورى » قد اصــلحه . وبرزت لارا من الستار ، وسارت بخفة عبر البهو لتفتح الباب . وسمعهــا يورى تتحدث إلى « جلافيرا » ، شقيقة « سيما » :

— اجئت فى طلب اختك ؟ .. اجل ، انها هنا !

— لا ، لم آت من اجلها ، وان كان من الممكن ان نعود معا إلى البيت . إذا كانت ســيما متأهبــة .. لقد احضرت خطابا لصديقك . ومن حسن حظه اننى كنت اعمل يومــا فى مكتب البريد .. لست أدرى كم من الأيدى قد مر بها ، فهــو من موسكو ، وقد استغرق خمسة اشهر فى الطــريق . ولم يوفقوا إلى العنوان . ثم خطر لهم — آخــر الأمــر — ان يســالونى ، فعرفت بالطبع .. لأنــه جاءنى مــرة لأقص له شعره .

وكان الخطاب الطويل — الذى كتب على عدة صفحات من الورق ، مكرمشة ، ومتسخة فى الظروف الممزق الذى فض فى مكتب البريد — كان الخطاب من تونيا . والفاه « يورى » بين يديه ، وإن لم يدر كيف وصل إليهما ، إذا انه لم ير لارا وهى تبسطه إليه. وعندما بدأ يقرؤه ، كان لا يزال يدرك انه فى (يورياتين) ، فى دار « لارا » . بيد انه لم يلبث — كلما راح يوغل فى القراءة — ان راح يفقد كل شعور بذلك . وخرجت « سيما » فحيته ، ثم تهيأت للانصراف ، فرد عليها بعبارات مناسبة — بطريقة تلقائية — بيد انه لم يعرها اهتماما ، ولا فطن البتة إلى انصرافها !

وبعد برهة ، نسى كل شىء عما كان يحيط به .. كانت تونيا قد كتبت له :

—« يورا : اتعرف اننا قد رزقنا ابنة ؟ .. لقد عمدناها باسم « ماشا » ، اكراما لذكرى امك .

« والآن ، هناك شىء آخر .. إن كثيرا من المبرزين ، والأساتذة الذين كانوا ينتمون إلى حزب الطلبة العسكريين والاشتراكيين اليمينيين، وميليوكوف، وكيزيفيتر، وكوسكوفا ، وآخرين عديدين — منهم خالك كوليا ، وابى ، وبقيتنا — ينفون الآن من روسيا ..

« وهذا من سوء الطالع ، لا سيما فى غيابك ، ولكن علينا ان نتقبله ، ونحمد الله على ان اقصاءنا يتخذ صورة هينة لينة ، فى مثل هذا الوقت العصيب الذى كان من المحتمل ان تكون الأمور فيه أسوأ من هذا بالنسبة الينا . ولو انك كنت

هنا ، لامكنك ان تأتى معنا . ولكن أين انت ؟ .. إننى ارسل هذا الخطاب إلى عنوان انتيبوفا ، وسوف تسلمه إليك حين تعثر عليك . لكم يحيرنى اننى لا ادرى ما إذا كانت « تأشيرة الخروج » — التى نحصل عليها كأسرة — ستمتد بحيث تشملك فيما بعد ، عندما يتسنى العثور عليك ، إن شاء الله .

« اننى لم اتخل بعد عن الايمان بانك على قيد الحياة ، وانك لن تلبث أن تظهر . إن قلبى يحدثنى بهذا ، وانى لأثق فيه . ولعل الظروف فى روسيا تكون إذ ذاك — عندما تظهر ثانية — اهون شأنا ، فتعمل على الحصول على « تأشيرة » منفصلة لنفسك ، فيقدر لنا ان نجتمع مرة أخرى فى مكان واحد . على اننى — إذ اكتب هذا — لا اومن فى دخيلة نفسى باحتمال توفر كل هذا القدر من السعادة !

« ان كل نكبتى هى اننى احبك وانت لا تحبنى . ولا انفك احاول ان اكتشف معنى هذا القدر الذى قضى على به .. ان افهمه .. ان اتبين سببه . اننى افتش فى نفسى ، واستعرض كل حياتنا معا وكل ما اعرفه عن نفسى ، فلا استطيع أن اعثر على البداية ، ولا اتذكر ما الذى فعلته ، وكيف اجتلبت على نفسى هذا النكد . إن لديك فكرة زائغة ، قاسية عنى ، فأنت ترانى فى مرآة مشوهة !

« اما انا فاننى احبك . الا ليتك تدرك كم احبك ! .. اننى احب فيك كل ما هو غير عادى ، اللائق منه وغير اللائق .. وكل الأشياء العادية التى تسمو قيمتها فى نفسى ، لاجتماعها فيك بطريقة غير عادية .. ووجهك الذى يكسبه

محياك جمالا ، وأن كان خلوا من الجمال بدون هـذا التعبير يتجلى على محياك .. وذكاءك ، وموهبتك التى تحـل محل إرادتك .. فانك بـلا إرادة . كل هـذا عزيز على ، ولست أعرف احدا افضل منك فى الدنيا .

« ولكن ، اسمع .. هذا ما ابغى ان اقوله لك .. حتى إذا لم تكن عزيزا لدى إلى هذا الحد ، وحتى إذا كنت اقل حبا لك وميلا اليك ، لظللت ارى اننى احبك ، ولظللت الحقيقـة البغيضة — وهى اننى كنت عديمة الاكتراث — خافية على ، ولحرصت — دون أن افطن — على تجنب تبين اننى لم احبك ، لمجرد الخوف من أن انزل بك مثل هذا الهوان .. مثل هـذا العقاب الفتاك . وما كنت لتعرف هذا ، ولا كنت اعرفه انا . فان قلبى كان خليقا بأن يظل خافيا عنى ، لان عدم الحب يكاد يشبه القتل ، وما كنت لأجد القوة على ان اوجـه مثل هـذه الضربة إلى اى امرىء !

« لم يستقر الراى بعد على شىء ، بوجه قاطع ، ولكن من المحتمل ان نذهب إلى (باريس) . ساكون فى تلك البلاد النائية التى اصطحبوك إليها وانت طفل ، والتى نشا فيها ابى وعمى . إن ابى يبعث إليك بتحياته . ولقد كبر « ساشـا » كثيرا ، وهو ليس مليحا إلى درجة ملحوظة ، ولكنه ولد ضخم قوى، وكلما تحدثنا عنك بكى احر بكاء ، ولم يتقبل اية تسرية.

« ليس بوسعى ان امضى ، فلسـت املك ان اكف عن البكاء . فوداعا .. دعنى أرسم عليك علامـة الصـليب ،

واباركك بما يكفى لجميع السنين المقبلـة ، والفـراق الذى لا نهايـة له ، والمحاكمـات ، والهواجس .. ولكل طريقك الطويل ، الطويل ، المظلم . لست الومك على شىء ، ولست اعتب عليك ، فتول تشكيل حياتك كما تبغى ، فليس من المهم سوى أن تكون بخير .

« قبل ان تغادر (الأورال) — ولكم تجلى انه كان مكانا مقيتا ، مشئوما ، بالنسبة لنـا — قدر لى أن اعـرف « لارا فيودوروفنا » معرفة وثيقة . وانى لاشكر لها وجودها الدائم بجوارى ، عند ما كنت فى الضـيق ، ومساعدتهـا اياى فى مخاضى . ومن واجبى ان اقر — بأمانة وصراحة — بانها طيبة صالحة ، ولكنى لا ابغى أن اكون مرائية .. فهى على النقيض تماما منى . لقد فطرت انا على تبسيط الحياة ، والسعى إلى حلول معقولة .. اما هى ، فقد فطرت على تعقيد الحيـاة ، وزيادة اضطرابها .

« لقد آن ان اكف عن الكتابة ، فليحفظك الله ! .. لقد جاءوا يطلبون الرسالة ، وحـان وقت حزم المتـاع . اواه يا يورا ، يا يورا ، يا عزيزتى ، يا حبيبى ، يا زوجى ، يا والد طفلى ! .. ما الذى يجرى لنا ؟ .. هل تدرك اننـا لن نلتقى ابدا ؟ .. هل تتبين معنى هذا ، بعد إذ كتبته ؟ .. هل تفهم ، هل تفقه ؟ .. انهم يتعجلوننى ، فكأنهم جاءوا ليحملونى إلى حتفى . يا يورا ! .. يا يورا ! » .

* * *

وفرغ « يورى » من القراءة ، فرفع عينيــه .. كانت نظراتهما غائبة ، وكانتــا خاليتين من الدمــوع ، جافتين من الحزن ، ناضبتين لفرط العذاب . فلم يكن يرى أو يعى شيئا مما حوله .

وكان الجليــد يتساقط فى الخــارج .. واخذت الريح تدفعه ، وهو يزداد كثافة ، ويشتد سرعة ، وكأنه كان يحاول ان يلحق بشىء ما .. فاخذ يورى يحملق فيه .. لا كما لو انه كان يبصر الجليد ، وإنما كما لو انه كان لا يزال ماضيا فى قراءة خطاب تونيا .. وكأنما النتف البيضــاء ــ التى راحت تمــر امامه سريعة ــ لم تكن نتف الثلج الصغيرة ، اليابسة ، وإنما كانت الفراغات التى كانت تتخلل الحروف الصغيرة السوداء .. فراغات بيضاء ، لا نهاية لها !

وصرخ دون ما ارادة منه ، وضــم يديه إلى صــدره بشدة .. وشعر بأنه يوشك ان يغمى عليه ، فترنح بضــع خطوات حتى بلغ الأريكة ، وهوى فوقها فاقد الوعى !

الفصل الرابع عشر
العودة الى فاريكينو

ــ ١ ــ

كانَ الشتاء قد استتب ، والثلج ينهمر غزيرا .. وكان يورى قد عاد لتوه من المستشفى ، حين قابلته « لارا » عنــد الردهة ، فقالت له بصــوت تختنقه الحيرة والانزعاج ، وقد وقفت كالمأخوذة ذهلها الأرتباك :

ــ كوماروفسكى هنا !

ــ اين ؟ فى مسكننا ؟

ــ كلا ، هذا محال، انه جاء فى الصباح وقال انه سيعود هذه الليلة ، واحسبه على وشك القدوم . إنه يريد ان يكلمك.

ــ ولمــاذا جاء ؟

ــ لم افهم كل ما قاله ، ذكر انه رحل إلى الشرق الأقصى وانه عرج علينا ليرانا ، وبالأخص ليراك أنت و « باشــا » . وقال إن ثلاثتنا فى خطر ، أنت وباشا وأنا ، وإنه وحده الذى يستطيع إنقاذنا إذا اتبعنا نصيحته !

ــ اننى سأخرج ، فلست اريد ان ارى وجهه !

فانفجرت لارا باكية ، وهمت بأن ترتمى تحت تدميــه وتحتضن ركبتيه ، ولكنه ارغمهــا على الوقــوف . وأخذت تناشده :

— ارجوك ان تبقى ، من اجلى أنا .. لا لأننى اخاف ، بل لأننى اكره الأنفراد به ، فانقذنى من ان اقاتله وانا وحدى . ثم انه رجل عملى محنك ، فلعل فى جعبته حقا نصيحة تنفعنا . إننى اعلم كم تشمئز منه ، ولكن نح عنك هذا شعور وابق معى .

— ماذا دهاك يا حبيبتى ؟ لا تستسلمى هكذا للانزعاج . ما الذى تريدين فعله ؟ كفى عن السجود وقفى مبتسمة منشرحة الفؤاد . ينبغى لك التخلص من الخوف من هذا العفريت الموهوم ، انه ملأك رعبا شديدا ، إننى بكلمة منك اقتله عن طيب خاطر .

وحل المساء بعد قرابة نصف ساعة ، واطبق ظلام حالك . وكانت قد انقضت ستة اشهر منذ ان سدت جحور الفئران فى المسكن ، وظل « يورى » يرقب هل من فأر طارىء يلزم أن يسد على الفور جحره !

وكانا قد استبقيا ايضا بمسكنهما قطا كبيرا ناعم الشعر يمضى وقته فى التأمل ، وكأنه يبطن — فى غموض — أسراره .. ذلك أن الفئران لم تكن قد بارحت مسكنهما ، غير انها صارت اشد حذرا .

واخذت «لارا» — وهى تترقب قدوم «كوماروفسكى» — تقطع شرائح من خبز البطاقات الأسود . وتضع على المائدة طبقا به حبات قليلة من البطاطس المسلوق . وقرر الاثنان أن تتم المقابلة فى حجرة الأكل التى خلفها سكان المنزل السابقون — وكانا لا يزالان محتفظين بعادة تناول الطعام بها — بمائدتها

السوداء الكبيرة الثقيلة المصنوعة من خشب البلوط ، والبوفيه الباقى من اثاثها القديم . وكانت فوق المائدة زجاجة كبيرة من زيت الخروع بها فتيل ، يستخدمونها كقنديل متنقل .

وهبط عليهما « كوماروفسكى » — كأنما انشقت عنه غياهب ليل ديسمبر الحالك — تتساقط عن قبعته ومعطفه وحذائه نتف من الثلج المتراكم عليها ، وتتحول على ارض الحجرة إلى برك صغيرة من الوحل .. وقد لطخ الثلج شاربه ولحيته ، فبدا اشبه بمهرج فى سيرك ! (وكان فى الأيام الخالية امرد الوجه) . وكانت بذلته انيقة — ولو قديمة — وبنطلونه المخطط محتفظا بثنيته . ومن قبل أن يلقى عليهما تحيته ، صرف وقتا غير قصير فى ترجيل شعر رأسه المبتل بمشط جيبى صغير ، ثم مد يديه وهو صامت باشارة تومىء ، بتوجس شر قادم .. مد اليد اليسرى إلى « لارا » واليمنى إلى « يورى » .. ثم التفت إلى « يورى » قائلا :

— دعنا نفترض ان بيننا معرفة قديمة ، فلعلك تعلم اننى كنت صديقا حميما لابيك — بل لقد مات بين ذراعى ! — وإنى لأرقبك لأعرف هل نشأت على شاكلته ، ولكنى لا اظن انك تحذو حذوه ، إذ كان رجلا مندفعا ، يفتح قلبه ويطيع اول نوازعه ! .. على انك فيما يبدو ورثت عن امك رقتها واستغراقها فى الأحلام ..

« لقد سألتنى « لارا فيودوروفنا » ان اقابلك ، وقالت إن لديك مسألة تريد ان تبحثها معى ، وقد وافقت — فلست انا الذى اردت هذا اللقاء — وعندى ان لقاءنا هو لقاء بين

غريبين ، فهل نشرع فى التحدث عن هذه المسألة ؟ ماذا تريد ؟ اننى سعيد يا عزيزى ان اراكما معا . اننى فاهم ، فاهم كل شيء ، واسمح لنفسى بان اقول اننى ارى كـلا منكما لائقا للآخر ، فنعم التوافق بينكما !

— كفى ، ارجوك ! اهتم بشئونك انت ولا دخل لك بنا . لسنا فى حاجة إلى عطفك ، إنك تنسى نفسك .

— لا تسرع يا فتى بالهياج والغضب . يخيل إلى الآن انك ورثت طباع ابيك ، إذ كان يفقد حلمه كما تفعل انت . على كل حال إننى اتمنى لكما كل خير ، ولكنكما لسوء الحظ طفلان غريران ، لا على سبيل المجاز ، بل هو الحق . طفلان غارقان إلى آذانهما فى الجهل والغفلة ، وقد علمت عنكما فى يومى هذا اشياء اكثر مما تعلمانه — يقينا او حدسا — عن نفسيكما . إنكما تمشيان — وانتما لا تدريان — على حافة هاوية ، فاذا لم تجدا لكما حيلة ، فان ايامكما فى التمتع بالحرية — بل وربما بالحياة ذاتها — تصبح معدودة !

« إن هناك منهجا شيوعيا يا « يورى اندرييفيتش » ، لا يقوى عليه إلا القليلون ، ولكن احدا لا يستطيع ان يتحدى ويهزأ علنا ، كما تفعلان، بهذا المنهج الجديد فىالحياة والفكر . لا افهم لماذا تداعبان الخطر ! انكما تجعلان نفسيكما بمثابة دليل سبة وسخرية بهذا المنهج . وليت ماضى حياتكما كان سرا مجهولا ، فهناك اناس من موسكو يعرفون دخائلكما ، وليس بين أصحاب السلطة رجل واحد يكن لكما الحب ، بل إن

الرفيق « انتيبوف » والرفيق « تيفرزين » يشحذان مخالبهما للانقضاض عليكما !

« يا « يورى اندرييفيتش » : انت رجل رشيد وانت سيد نفسك ، يحل لك ان ترتكب ما تشاء من الحماقات ، وتخاطر بحياتك إن اعجبك هذا ، ولكن « لارا فيودوروفنا » ليس لها شأن بالسياسة . انها مسئولة عن حياة ابنتها ، ولا تستطيع ان تغمض عينيها عن الحقيقة وتسبح فى الخيال . ولقد اضعت صبيحة هذا اليوم فى محاولة إقناعها بأن تنظر إلى الواقع نظرة الجد ، فلم تأبه لكلامى ، فهلا اقنعتها انت — بفضل سلطانك عليها — بانها ليس لها حق العبث بسلامة ابنتها ، وانها ينبغى أن لا تغفل الحجج التى تستند إليها نصيحتى ؟

— اننى لم افرض قط آرائى على احد من الناس ، ومن باب اولى احرص على ان لا افرضها على من هم بجانبى . إن للارا فيودوروفنا كل الحق — كما تشاء وتهوى — أن تقتنع بقولك او لا تقتنع . هذه مسألة ترجع إليها وحدها . ثم اننى لم اسمع بعد هذه الحجج التى تقول انك تستند إليها !

— انك تذكرنى — اكثر فاكثر — بأبيك ، فقد كان عنيدا مثلك . دعنى الآن اشرح لك الأمر . إنها مسألة معقدة ، فاصبر على ولا تقاطعنى : سيدخل تعديل على السياسة العليا — نعم ، صدق هذا لأننى علمته من مصدر موثوق به . إن فى عزمهم التحول إلى نظام اكثر ديموقراطية ، استرضاء منهم

لن يطالبون بنظام شرعى للحكم ، وسيحدث هذا فى القريب
العاجل . وهذا التحول سيقضى بالغاء مناصب العملاء الذين
عهد إليهم بتنفيذ حملات الانتقام والتطهير ، ولذلك فانهم
يسرعون الآن فى تقفيل حساباتهم ، كل فى دائرته . ولذلك ستمر
بنا — قبل إجراء هذا التحول — فترة يعم فيها ارتكاب
الفظائع ، بوحشية وقسوة لم تعرفا من قبل ، وانت يا يورى
اندرييفيتش من بين من تقرر إهدار دمهم ، إن اسمك مدرج فى
القائمة السوداء . إنه جد لا هزل ، لقد رايت اسمك بعينى . .
فينبغى أن تتدبر كيف تنجو بنفسك قبل فوات الأوان . كلامى
هذا كله بمثابة مقدمة ، وساصل إلى صميم المسالة .

« ان العناصر السياسية التى لا تزال موالية للحكومة
المؤقتة وللجمعية التأسيسية المنحلة ، وتحتشد الآن فى
الولايات المجاورة للمحيط الهادىء ، ويتجمع فيها رجال من
ذوى النفوذ ، كأعضاء مجلس الدوما والمجالس البلدية
والقروية ، وغيرهم من شاغلى المناصب العامة ورجال الأعمال
والصناعة ، وكذلك بقية من الجيش الذى كان قد تالف من
المتطوعين . وفى عزمهم ان يقيموا «جمهورية الشرق الأقصى» ،
وفى نية الحكومة السوفييتية ان تغض الطرف عنها ، إذ ترى
من مصلحتها الآن ان تقام هناك حكومة تكون بمثابة سد يحمى
سيبيريا من عدوان العالم الخارجى ، وتصر موسكو على ان
يكون اكثر من نصف اعضائها من الشيوعيين ، ثم تعمد فى
الوقت الذى يروق لها إلى تدبير انقلاب فى هذه الجمهورية
وتخضعها لسلطانها . إن هذه الخطة واضحة كالشمس ،
ولكنها تتيح لكما فسحة من الوقت لطلب النجاة ، فاعرفا كيف

تحسنان الانتفاع بهذه الفرصة . وقد كنت قبل الثورة اتولى فى
وقت من الأوقات أعمال مصارف وشركات كثيرة فى
فلاديفستوك ، فانا معروف هناك . وقد جاءنى رسول من قبل
مجلس وزراء الجمهورية — وهو لم يعلن عن نفسه بعد —
يعرض على منصب وزير العدل فى الحكومة القادمة ،
وقد حدث هذا المسعى سرا ولكن برضاء غير رسمى من جانب
السوفييت . وقد قبلت ، وها انذا فى طريقى إليهم . وكل الذى
قلته لكما يحدث برضاء ضمنى من قبل الحكومة السوفييتية
ودون أن تفصح عنه علنا ، لهذا ليس من الحكمة ان تفيض
الألسن بالتحدث عن خبره . وفى استطاعتى ان آخذكما معى
— انت و « لارا فيودوروفنا » — ومن هناك يسهل عليك ركوب
باخرة تحملك إلى اسرتك فى الخارج ، فانت تعلم ولا ريب انها
نفيت من روسيا ، وكان لهذا النفى وقع كبير ، ولا تزال موسكو
تتحدث عنه طويلا . وقد وعدت « لارا فيودوروفنا » ان انقذ
ستريلنيكوف وفى وسعى — إذ اصبح عضوا فى حكومة مستقلة
تعترف بها موسكو — ان ابحث عنه فى سيبريا الشرقية ،
واعينه على اجتياز الحدود إلى اقليمنا المتمتع باستقلاله ،
اما إذا لم ينجح فى الهرب ، فانني سأقترح تبادله مع اسير
آخر — ممن فى قبضة الحلفاء — تود حكومة موسكو وضع
يدها عليه .

تابعت لارا شرح كوماروفسكى بمشقة ولكنها اعارته
اذنيها حين بدأ يتحدث عن الخطة المرسومة لنجاة يورى
وستريلنيكوف . ثم تورد وجهها خجلا وقالت ليورى :

— انت ترى يا عزيزى ان هذا الأمر هام بالنسبة لك ولباشا .

— يا عزيزتى ، انت سريعة التصديق . هناك فرق بين خطة لا تزال فى دور الاعداد ، وبين تنفيذها فعلا . انا لا اقول إن « فيكتور ابوليتوفتش » يغرر بنا عن عمد ، ولكنه لم يزد عن ان يبنى لنا قصورا فى الهواء !

ثم التفت إلى « كوماروفسكى » وقال له :

— اما عن نفسى فانى اشكرك على عنايتك بشئونى ، ولكن أياك ان تحسب انى ادعك انت تتولى تدبيرها لى . اما عن « ستريلنيكوف » فان لارا ستفكر فى الأمر .

وقالت لارا :

— كل المسألة : هل نذهب معه أم لا نذهب ؟ وأنت تعلم حق العلم انى لا اذهب إلا إذا كنت معى .

واخذ « كوماروفسكى » يحتسى الكحول المخفف بالماء — الذى سبق ليورى أن جاء به من المستشفى — وفمه مشغول بمضغ البطاطس المسلوق ، وقد بدأ الخمر يغتال وعيه شيئا فشيئا .

— ٢ —

تثاءب الليل ، وكان الفتيل كلما شذب طرفه يثور ويتوهج ويعم ضياؤه الحجرة ، ثم يخفت فيطبق الظلام من جديد . ودب النعاس إلى جفون « لارا » و « يورى » ، انهما يريدان أن يبحثا — على انفراد — شؤونهما ، ثم ياويا إلى فراشهما .

ولكن كوماروفسكى لا يبرح مكانه ، وقد ضاقا ذرعا بصحبته ، كما ضاقا ذرعا برؤية البوفيه الثقيل ، وبظلام ليل ديسمبر الحالك من وراء النوافذ .

وكانت نظرة كوماروفسكى — إذ تنبعث من عينين اضفت عليهما الخمر لمعان الخزف وجموده — غير مصوبة إليهما ، بل تمر فوق رأسيهما إلى هدف بعيد ، وهو ماض فى حديثه، يغالبه النعاس ، فى ثرثرة لا تنقطع ، تبعث على الضجر . كانت كثرة التحدث عن الشرق الأقصى قد صارت هوايته الاخيرة ، فاخذ يشرح ما لمنغوليا من اهمية سياسية ، وهذا موضوع لم يكن يهم « لارا » ولا « يورى » ، فلم يصغيا إلى المقدمات ، وحين انتبها عند النتائج تعذر عليهما فهمها ، مما زاد من ضجرهما من حديثه . .

وكان يقول :

— سيبريا هى أمريكا الجديدة ، كما يقال . إنها تعد بامكانيات هائلة ، انها مهد مستقبل روسيا وعظمتها ، ومقياس تقدمنا نحو الديموقراطية والنضج السياسى والاقتصادى . بل إن منغوليا الخارجية ، جارتنا الكبرى فى الشرق الأقصى ، تفوقها فى هذه الامكانيات التى ستتكشف مستقبلا . ماذا تعلمان عنها ؟ الا تخجلان من التثاؤب واستسلام عيونكما للنعاس ؟ هل تعلمان أن مساحة منغوليا هى مائة مليون ميل مربع ، وان فى باطنها ثروة معدنية طائلة ؟ إنها ارض بكر ، تطمع فيها الصين واليابان والولايات المتحدة . إنهم على استعداد للانقضاض عليها إضرارا بمصالح روسيا وطننا ،

على ان مصالحنا قد اعتــرف بها غرماؤنا ، كلمــا جــرى ذكر تقسيم هذا الركن المنعزل من العالم إلى مناطق نفوذ .

« والصين — عن طريق مشايعتهــا لطائفة اللامــا — قساوسة منغوليا — تستغل لمنفعتها نظامها الاقطاعى الرجعى المعتد على رجال الدين .. واليابان تعتمد على الأمراء ملاك الرقيق .. اما روسيا الشيوعية الحمراء فقد وجدت حليفا لها فى اتحادات الرعــاة المنادين بالثورة . اننى اتمنى أن ارى منغوليا تنعم بالرخاء ، وتقوم فيها حكومة معتمدة على مجلس نيابى يتم انتخاب اعضائه فى جو من الحرية ، اما ما يهمكمــا انتما فهو انكما — حين تجتازان الحدود إلى منغوليا — تنفتح لكما ابواب الحرية ، وتصبح الدنيا كلها فى متناول ايديكما .

انهكت هذه الثرثرة اعصاب « لارا » ، وتملكها الضجر والإعياء حتى كادت تذرف الدموع . فمدت له يدها تقــول له فجاة وهى لا تخفى نفورها :

— لقد تأخرنا وآن اوان انصرافك ، فانى فى حاجة إلى النوم .

— ارجو الا يبلغ بك انكار واجب الضيافة أن تقذفى بى إلى الخارج فى مثل هذه الساعة من الليل ، فما احسبنى مهتديا إلى طريقى فى هذا الظلام المطبق ، وانا لا أعرف مسالك المدينة .

— كان الأولى بك ان تفكر فى ذلك من قبل ، بدلا من ان تطيل جلستك ، ونحن لم نسالك البقاء معنا .

— لمــاذا تتحدثين إلى بهــذه اللهجة الجافة ؟ . انت لم تسالينى على الاقل هل لى مكان آوى إليه ..

— لا يهمنى ذلك قط ، وانت قادر على ان تدبر امورك ، وإذا كنت تتصيد دعوة منى للبقاء هنا الليلة فانى لا استطيع ان اجعلك ترقد فى الحجرة التى ننام فيها نحن و « كاتيا » ، اما بقية الحجرات فهى تعج بالفيران .

— اننى لا اخافها ولا أبالى بها .

— إذن انت وشانك ..

— ٣ —

ماذا دهاك يا ملاكى ؟ تتوالى عليك الليالى وانت لا تنامين ولا تأكلين ، وينقضى نهارك وانت شاردة اللب . فيم تفكرين ؟ لا تدعى الهموم تفترسك .

— إن « ايزوت » خفير المستشفى عــاد من جديد ، انه يأتى لزيارة الغسالة تحتنا — فبينهما علاقة غرام — وقد عرج على ليحمل إلى نبــأ سارا : إن زوجك مشرف على السجن ، ثم لا تلبثين ان تلحقى به انت » ! وقد سألته : « من اين علمت هذا ؟ » ، فأجاب بأن الخبر اكيد ، وأنه استقاه من الغــراب الأسود ! هكذا يسمى اللجنة المركزية للمجلس البلدى !

فاندفع الاثنان يضحكان . وقال « يورى » :

— انه على حق ، فقد يحدث هذا فى اية ســـاعة . ان الخطر على الأبواب ، وينبغى لنا ان نختفى فورا ، ولكن اين نذهب ؟ هذه هى المسألة . ينبغى ان نفلت من أيديهم فى هدوء ، ولكن لن نسطتيع الذهاب إلى موسكو ، إذ لا يتأتى لنا ترتيب

سفرنا دون إثارة الانتباه إلينا . انصتى إلى ياعزيزتى ! لماذا لا تنفذ رأيك فنذهب إلى « فاريكينو » ونعيش هناك مستترين اسبوعا او اسبوعين ، وربما شهرا كاملا ؟ .

ــ اشكرك ، اشكرك يا حبيبى ، ما اسعدنى ! إنك تكره هذا السفر ، ولكننا لن نسكن فى منزلك ، فانك لن تقوى على رؤية الحجرات المهجورة ، وسيهلك الأسى وأنت تستعيد ذكريات الماضى وتقارنها بالحاضر . هل تظننى لا افهمك ؟ اننى اعلم عذاب من يبنى هناءه على حطام الآخرين ، ومن يدوس بالأقدام كل ما هو عزيز مقدس . اننى لا اقبل مثل هذه التضحية منك . ولكن لا داعى للحيرة ، فان منزلك اصبح مخربا لا تصلح حجراته للسكنى ، ومن رايى ان نقيم فى المنزل الذى كانت تقيم فيه من قبل اسرة « ميكوليتسين » .

ــ هذا حق ، وانى اشكر لك رقتك وفهمك لمشاعرى ، ولكن انتظرى لحظة . على لسانى سؤال انساه دائما : ماذا حدث لكوماروفسكى ؟ هل لا يزال هنا أم سافر ؟ اننى منذ عراكى معه وطردى له لم اسمع عنه شيئا !

ــ وانا كذلك لا اعلم شيئا عنه ، ماذا يعنيك من امره ؟ لا تشغل بالك به .

ــ يزداد اقتناعى بانه ما كان ينبغى لنا نحن الاثنين ان يتفق رأيانا فى نصيحه ، فوضع كل منا يختلف عن الآخر . إن لك بنتا لا مفر لك من الاهتمام بأمرها ، وحتى لو اردت مشاركتى فى المخاطر فهذا ليس من حقك . دعينا نتحدث عن (فاريكينو) من جديد ، الواقع أن الاقامة فى هذا التيه فى عز

الشتاء بلا طعام ولا جلد ولا أمل هو الجنون بعينه ، ولكن لم لا يا حبيبتى ، إذا لم يكن قد بقى لنا شىء سوى هذا الجنون ؟ سنعيش فى تقشف ، ونناشد « سامديفياتوف » أن يعيرنا حصانا ، ثم نسأله هو ــ او نسأل الخاضعين له من المضاربين فى السوق السوداء ــ ان يقدموا لنا حاجتنا من الدقيق والبطاطس تحت الحساب ، طبقا لتقديرهم لما فى وعدنا بالدفع من ضمان ، ثم نقول له آلا يتذرع بما يسديه إلينا من معروف ليأتى لزيارتنا فورا ، بل يؤجل زيارته فلا يأتى إلا حين يحتاج إلى حصانه ، وبذلك نخلو لأنفسنا برهة من الزمن ..

« فلنمض إلى هناك يا حبيبتى ، وسنشعل الموقد ونقطع من الحطب فى اسبوع واحد ما يزيد عما تنفقه ربة بيت مدبرة فى سنة كاملة اثناء السلم . اغفرى لى مرة اخرى جيشان عواطفى ! كم اود ان اكلمك وانا رابط الجأش غير مندفع فى خطب رنانة . ولكنك ترين ان قولى حق ، فليست لنا حيلة اخرى . ومهما كان تفسيرك للأمر الواقع ، فإن الموت يدق ابوابنا . إن أيامنا أصبحت معدودة ، فلنحسن الانتفاع بها كما نحب ونهوى . دعينا نستفيد هذه الأيام الباقية من عمرنا ، فنقول وداعا للحياة ، وتضمنا نحن الاثنين وحدنا خلوة للمرة الأخيرة قبل الفراق الأبدى . سنقول وداعا لكل ما كان عزيزا لدينا : لمألوف عاداتنا ، لأحلامنا عن المستقبل ، لمبادئنا فى الحياة ، ويقول كل منا للآخر : وداعا ! .. لتكن كلماتنا بقية من هذا الهمس الذى نتناجى به . الليل فى سكينة وانطلاق ، وكأن هذا الهمس يستمد وصفه من اسم المحيط الهادى

الفسيح . انه قدر عجيب ان القاك بجانبى يا ملاكى الخفى المحرم على ، وانا فى نهاية العمر تحت سماء الحروب والكروب ، كما لقيتك فى عهد الطفولة تحت سمائها الوادعة . فى تلك الليلة – وانت فى زى المدرسة الثانوية بلونه الكستنائى – حين ابصرتك فى ظلام حجرة الفندق ، كنت – كما اراك الآن – تبهريننى بجمال مشرق طاغ . وقد حاولت مرارا – منذ ذلك الحين – ان اجد اسما ، او وصفا محددا ، لهذا السحر المشرق الذى غرست يدك بذوره فى قلبى ، هذا الضوء الذى ظل يتراجع على مهل ، وهذه الالحان الهاربة التى سرت فى كيانى واصبحت رائدى فى فهم كل شىء آخر فى هذه الدنيا ، والفضل راجع لك انت . وحين انفلت شخصك كالشبح من ظلام الحجرة ، احس الصبى الذى لم يكن يدرى عنك شيئا ، ولا يدرك سر هذه الاستجابة المضيئة التى قفزت من قلبه .. احس هذا الصبى من فوره ان هذه الفتاة النحيلة الرقيقة ، يسرى فى جسدها – كتيار الكهرباء – كل ما اودع من انوثة فى بنات حواء قاطبة ! .. ولو قد اقتربت منك او لمستك فى ذلك اليوم ، ولو باطراف اصابعى ، لانبعثت شرارة اضاءت الحجرة ، فإما صرعتنى على الفور أو ملأتنى بقية العمر – وانا مشدود اليك – بأنين فيض من الوجد والضنى . لقد فاض بى الدمع واخذت ابكى ، وبين جنبى نور وهاج . شعرت باشفاق شديد على الصبى الذى كنته ، وباشفاق اشد نحو الفتاة النحيلة التى هى انت .. وانى لأسائل نفسى فى حيرة : إذا كانت معرفة القلب للحب واهتزازه بتياره الكهربائى تولد بين احضانه مثل هذا الضنى ، فكم يبلغ ضنى هذه الانثى التى

تهب هذا الحب كله وينبعث منها تياره الحارق ؟ ها أنذا أفصحت عما أريد قوله – وإنه ليبعث على الجنون – وقد وضعت فيه كل عواطفى ومشاعرى .. » .

وكانت «لارا» راقدة بملابسها على حافة الفراش منهوكة القوى ، تضم ساقيها إليها وتختبىء تحت دثار ، بينما جلس «يورى» على مقعد إلى جانب الفراش يناجيها بحديثه العذب ، تقطعه فترات صمت طويلة . وكانت « لارا » ترفع احيانا جيدها ، معتمدة على كوعها مسندة ذقنها إلى كفها ، وتنظر إلى « يورى » وشفتاها منفرجتان ، ثم تحنى راسها على كتفه وتبكى – دون أن تفطن لدموعه – بكاء رقيقا ينطق بالغبطة . ثم مالت إليه وطوقته بذراعيها وهمست له فى جذل :

– ما ابرعك يا حبيبى « يورى » . لا يغيب شىء عن علمك او فهمك . انت حصنى وملاذى ، غفر الله لى هذا الشرك . كم انا سعيدة . دعنا نذهب يا حبيبى ، وهناك سأذكر لك شيئا يقلقنى .

وظن «يورى» انها توحى إليه – وهى لا شك واهمة – انها حبلى ، فأجابها :

– نعم ، اننى اعلم .

– ٤ –

ورحلوا عن المدينة فى صباح يوم شتاء ملبد بالسحب الداكنة ، لم يكن يوم عطلة ، وكان الناس فى الشوارع ماضين إلى اعمالهم ، فعرفوا بينهم عددا غير قليل . وحين بلغوا

مفارق الطرق عند التلال وجدوا صفوفا من النساء ممن ليس لديهن آبار فى افنية دورهن ، يقفن امام مضخة الماء القديمة ، وقد وضعن الدلو وحمالته الخشبية بجانبهن على الأرض . وتفادى « يورى » — بحذر — المرور بجانبهن ، واخذ يشد اللجام يكفكف من جموح الحصان الأغبر الذى اعاره لهم سامديفياتوف . وكانت الزحافة تنزلق إلى حافة الطريق المنبعج وتعلو الأرصفة ينعقد فوقها الماء المتناثر من العجلات والأقدام فى طبقة من الثلج ، أو تصطدم بأعمدة النور .. ثم ارخى يورى العنان لحصانه حتى لحق بسامديفياتوف وهو يسير امامهما فى الطريق ، وسبقه دون ان يلتفت وراءه ، ليرى هل عرفهم الرجل او عرف حصانه ، او هل لديه ما يقوله لهم . ثم صادف بعد قليل كوماروفسكى ، فمرق من جانبه دون ان يلقى إليه بتحية .

وقفت جلاشا جانستيفا تهتف لهم عبر الطريق :

— ما اكذب الناس ! قالوا انكم رحلتم بالأمس ، هل تذهبون لاحضار البطاطس ؟

وعبرت باشارة منها عن انها لا تسمع ردهم ، ولوحت بيدها متمنية لهم رحلة موفقة .

ولم يحاول « يورى » أن يخفف من سرعته إلا حين صادف « سيما » ، ولكن الطريق كان منحدرا بحيث يتعذر الوقوف . وكلما شد اللجام جذبه الحصان من بين شدقيه . وكانت « سيما » تتغطى من راسها إلى ساقيها باكثر من شال

واحد ، وجسدها متخشب كأنه جذع شجرة مستدير ، وقد اقتربت منهم حتى بلغت وسط الطريق بخطى جامدة متعثرة ، فألقت عليهم التحية وتمنت لهم رحلة طيبة، ثم قالت «ليورى» :

— لابد أن أراك حين تعود ، فاننى اريد أن اتحدث إليك .

واخيرا خلفوا المدينة وراءهم . ومع أن « يورى » كان قد سبق له أن عبر هذا الطريق مرارا — ابان الشتاء — إلا انه لا يذكره إلا كما كان يبدو له أيام الصيف ، بحيث كاد الآن أن تنكره عيناه .

وكانوا قد دفنوا أكياس الطعام والحزم الأخرى فى بطن التبن الموضوع فى مقدمة الزحافة . ربطوها بحبال . وكان « يورى » يسوق إما راكعا على ركبتيه فوق أرض الزحافة — كما يفعل الفلاحون فى تلك الأرجاء — أو جالسا على حافتها مدليا قدمين يدفئهما حذاء من الفرو تلقاه من «سامديفياتوف» .

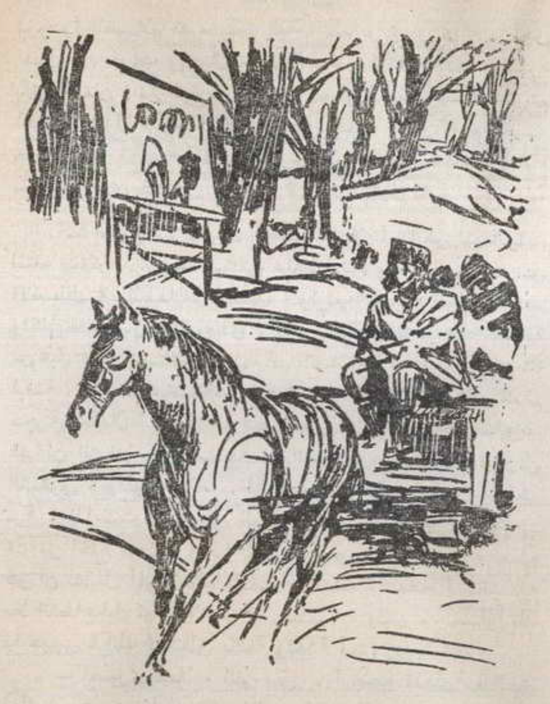
وبعد العصر — حين يوهم النهار الناس بضوئه الشاحب ، بأنه سيولى من قبل غروب الشمس — أخذ « يورى » يلهب ظهر الحصان بلا رحمة ، فانطلق كالسهم والزحافة تتواثب فوق الحفر كأنها سفينة تتلاعب بها العواصف .

وغرقت « لارا » و « كاتيا » فى معاطف الفرو حتى تعذرت عليهما الحركة ، والزحافة تمرق مندفعة تدور حول المنحنيات أو تقفز فوق الحفر ، فتتمايلان من جنب الزحافة

إلى الجانب الآخر ، كأنهما زكيبتان من التبن ، وتضجان بالضحك . وكان « يورى » على سبيل المزاح ، يميل الزحافة إلى طرف الطريق ، حتى يرتفع جانبها فوق الثلج المتراكم وتنقلب ، وتسقط « لارا » و « كاتيا » على الأرض سقطة لا تؤذيهما ، وتنطلق الزحافة به وهو متشبث باللجام ، ثم يوقف الحصان ويعدل الزحافة ، ويتلقى احتجاجات حامية من « لارا » و « كاتيا » وهما تنفضان الثلج عنهما ، ثم تأخذان مقعديهما فى الزحافة ، وهما تتضاحكان وتزعمان الغضب .

وحين ابتعدت المدينة من ورائهم ، قال لهما « يورى » : « ساريكما الموضع الذى قبض الثوار على عنده » . ولكنه لم يستطع الوفاء بوعده ، إذ ابهم عليه المكان وضاع منه وسط عرى الغابات فى الشتاء ، ومن حولها صمت القبور وخلاء التيه . ثم رأى على الطريق أول لافتتين مكتوب عليهما (موروفيتشكين) فصاح : « ها هنا ! » ، وخلط بذلك بين موضع فى عرض الطريق وبين موضع القبض عليه وسط الغابات . ولما مروا سراعا باللافتة الثانية — وهى لا تزال باقية بمكانها القديم ، وسط شجيرات ملتفة عند مفرق طرق يؤدى احدها إلى قرية (ساكما) — اخطأتها عيونهم ، فلم يروها من خلال ستار صفيق من الثلج المتجمد ، منسدل على الشجيرات ، له لمعان يخطف الأبصار ، وتتزين الغابات منه بشرائط فضية تتدلى وسط السواد .

وبلغوا (فاريكينو) عند الغسق ، وكان منزل «جيفاجو» اول ما لقوه . لذلك وقفوا عنده وولجوه متعجلين — كأنهم لصوص — اكتسابا للوقت من قبل أن يحل الظلام وشيكا ،



ثم رأى على الطريق أول لافتتين مكتوب عليهما (موروفيتشكين) فصاح : « ها هنا ! »

فوجدوا الظلام قد سبقهم إليه ، فلم ير « يورى » ما لحق المنزل من خراب وإهمال . وكان بعض الأثاث الذى يذكره باقيا ، فان (ناريكينو) اصبحت مهجورة ليس بهـا أحد يتم تخريب المنزل . وهذا الأثاث الذى يذكره ، كان غائبا عنه حين فارقته الأسرة ، فهو لا يدرى الآن ما الذى اخذته الأسرة منه وما الذى خلفته . واخذت « لارا » تقول له :

ــ اسرع .. سيحل الظلام عاجلا .. ليس لدينا وقت لنقف ونفكر . ان كنا سنبقى هنا فينبغى وضع الحصان فى الاصطبل ، والطعام فى المدخل ، وارتب انا هذه الحجرة لنا . ولكنى لست من هذا الراى . لقد فرغنا من تدبر هذه المسالة من قبل ، إن إقامتك هنا فيها الم لك ، ومن ثم ففيها الم لى أنا ايضا . فيم كانت تستخدم هذه الحجرة ؟ اهى حجرة نومك ام حجرة الأطفال ؟ هـذا هو مهد ابنك ، ولا اظنه يتسع لكاتيا . غير ان النوافذ بقيت سليمة ، والسقوف والجدران خالية من الشقوق ، والموقد بديعا . لقد اعجبت به حين جئت هنا آخر مرة . إذا كنت تصر على البقاء هنا ــ وان كنت اخالفك ــ فدعنى أخلع معطفى وابدا العمل من فورى . اول شىء نفعله هو أن نشعل الموقد طلبا للدفء . الدفء ! الدفء ! سنشعله بلا انقطاع ليل نهار ثلاثة أيام متتالية . ولكن .. مـاذا بك يا حبيبى ؟ إنك لا تنطق بكلمة واحدة !

ــ اصبرى قليلا . اننى بخير . ارجـو المعذرة ، الحق معك . يحسن بنا ان نلقى نظرة على مسكن ميكوليتسين .

ومضوا إليه .

ــ ٥ ــ

كان باب منزل « ميكوليتسين » مغلقـا بقفل خارجى ، فخلع « يورى » مساميره ، لكنها انتزعت معها شـظايا من الخشب . ودخلوا هذا المنزل ايضا متعجلين ، وذهبـوا من فورهم إلى الحجـرات الداخلية دون ان يخلعـوا معاطفهم وقبعاتهم وأحذيتهم المصنوعة من الفرو . وقد دهشوا حين راوا بعض الحجرات نظيفة مرتبة ، وبخاصـة حجرة مكتب ميكوليتسين . لاشك ان بعض الناس كان يسـكن المنزل إلى عهد قريب . ولكن من ؟ اهى اسرة ميكوليتسين ؟ فاذا صح هـذا ، فاين ذهبوا ؟ ولمـاذا سمروا الباب ولم يكتفوا بغلقه بمفتاحه ؟ وإذا كان الأمـر كذلك ، فلمـاذا لم يجد القادمون الحجرات كلها ــ لا بعضها فحسب ــ نظيفـة مرتبـة ؟ إن الدلائل تدل على ان السـاكن كان مغتصـبا للمنـزل . فمن يكون ؟ ولكن « يورى » و « لارا » لم يقلقهما هذا الغموض ، ولا هما اجهدا فكرهما فى البحث عن تعليل له . فقد شاع فى تلك الأيام ــ التى كثر فيها المهاجرون ــ اغتصاب المنـازل ونهبها . وقال احدهما للآخر : قد يكون ضـابطا من الجيش الأبيض هاربا يتخفى . إذا عاد فسنتفق معه ، فالمنزل يتسع لنا جميعا .

ومرة اخرى وقف « يورى » ــ كما كان يفعل من قبل ــ عند باب حجرة المكتب ، معجبا باتساعها واثاثها المريح الذى ينم عن الجـد والوقـار ، وبخاصة المنضـدة العريضـة

الوافية بجانب النافذة ، التى تغرى بالانكباب عليها فى عمل صبور مثمر .

وكانت ملحقات المنزل تضم الإصطبل — وهو مبنى ملاصق لمخزن التبن ، وكان مقفلا . على أن « يورى » لم يعمد إلى فتحه لأنه توقع ان يجده غير صالح للاستعمال ، وقرر ان يمضى الحصان الليل فى مخزن التبن ، وبابه يفتح بسهولة . ففك عن الحصان طقمه ، وتركه ينتعش قليلا ، ثم اتى له بماء من البئر . وكان يريد ان يقدم له التبن الموضوع فوق الزحافة ، ولكنه ألفاه قد نعم كالتراب تحت أقدامهم . وعثر لحسن الحظ على قدر من التبن فى أركان المخزن .

اما هم فقد رقدوا — دون أن يخلعوا ملابسهم — متدثرين بمعاطفهم ، فاستغرقوا من فورهم فى نوم عميق آمن لذيذ ، كأنهم اطفال امضوا نهارهم جريا ولعبا فى الهواء الطلق .

— ٦ —

واخذ «يورى» — منذ اللحظة التى هبوا فيها من النوم — يرمق المنضدة الموضوعة بجانب النافذة ، كأنها تناديه . كانت اصابعه متلهفة إلى الورق والقلم ، ولكنه اجل الكتابة إلى المساء ، عازما على أن يصبر إلى ان تأوى « لارا » إلى الفراش ، وإلى ان تحل الساعة التى يفرغ هو فيها من العمل ، حتى ولو اقتصروا على ترتيب حجرتين اثنتين فحسب .

على انه — فى ترقبه هذا للمساء — لم يكن فى ذهنه

موضوع حاضر يسجله ، ولكنها شهوة الكتابة .. لا بد له ان يكتب شيئا ، ولذلك فسيعمد اول الأمر إلى تسجيل خواطر قديمة باقية فى ذهنه لم يكتبها بعد ، وبذلك تنطلق يده ، وسيتاح له مستقبلا ، فيما يرجو — إذا اتيح له ولـ « لارا » البقاء فى المنزل — ان يؤلف شيئا جديدا يرضى عنه .

— هل انت مشغول ؟ ماذا تفعل ؟

— لا اكف عن اشعال الموقد . وانت ؟

— اننى فى حاجة إلى طست لغسل الملابس .

— سينفد الحطب إذا استمر اشعال الموقد بلا انقطاع ينبغى ان اذهب لمخزن بيتنا القديم لأرى هل فيه بقية منه . من يدرى ؟ فان وجدت اتيتك به ، سأفعل ذلك توا . اتحتاجين إلى طست ؟ اظن اننى رايت طستا فى مكان ما هنا ، ولكن لا اذكر أين .

— وانا مثلك قد رايته ، ولكن لا ادرى اين هو . لا شك انه موضوع فى غير المكان المعد له ، وهذا ما يجعلنا لا نذكر اين رايناه . دعنا منه الآن . إننى اسخن قدرا من الماء لأغسل ارض الحجرة ، وما يتبقى منه اغسل به ملابسى وملابس « كاتيا » ، فاعطنى ملابسك أنت ايضا ، ثم نستحم فى المساء حين نفرغ من عملنا وقبل ان نأوى للفراش .

— شكرا ، سأجمع لك ملابسى الآن ، وقد ازحت كل الأثاث الثقيل عن الجدران كما أردت منى .

— حسنا ، وإذا لم نجد الطست فانني ساغسل الملابس فى حوض الأطباق ، ولكنه ملطخ بالدهن ويتطلب منى ان احكه .

— سأنتظر حتى تسرى النار فى الحطب ثم أنقب فى بقية الأدراج ، إذ عثرت فيها على صابون وثقاب وورق وقلم وحبر وقلم رصاص ، والمصباح الموضوع فوق المنضدة ممتلىء إلى نصفه بالبترول . انا واثق أن أسرة « ميكوليتسين » لم يكن لديها بترول ، فلا شك أن مصدره اناس غيرهم . يا لحسن الحظ ! إنها مخلفات هذا المغتصب المجهول ، نكتشفها كما يكتشف ابطال القصصى « جول فيرن » عجائب الأرض ، ولكن ها نحن نستغرق من جديد فى الثرثرة والماء يغلى فى القدر ويتدفق منه .

وانطلقا بين الحجرات ذهابا وجيئة ، وايديهما غير فارغة ابدا ولا تكف عن الحركة ، ويصطدمان احدهما بالآخر ويتعثران بـ « كاتيا » وهى لا تنفك تعترض سبيلهما ، فاذا زجراها امتعضت ، وهى ترتعش وتشكو من البرد . قال « يورى » لنفسه :

— يا لبؤس اطفال هذا العهد الجديد ! إنهم ضحايا حياتنا المقلقلة ، نجرجرهم ويعيشون معنا متشردين .

وقال لـ « كاتيا » :

— اين جلدك ومرحك يا فتاتى ؟ كيف تشعرين بالبرد والموقد محمر من شدة النار ؟

— هو محمر من شدة النار وانا مصفرة من شدة البرد !

— إذا صبرت قليلا حتى المساء فستتاجج النار فى الموقد وتنعمين بحمام ساخن كما قالت لك امك . والآن مدى يديك والتقطى هذه اللعب .

وكوم امامها على الأرض لعب « ليبريوس » القديمة ، كان قد وجدها فى مخزن الحطب . لعب بعضها سليم وبعضها معطوب : قطع من خشب مكعبة ومستطيلة ، قطارات سكك حديدية ، لوحات مقسمة إلى مربعات أو عليها صور أو أعداد لألعاب يستخدم فيها النرد .. الخ .

لكن « كاتيا » أجابته محتجة بلهجة الكبار :

— ماذا جرى لك يا « يورى أندرييفيتش » ؟ إنها ليست لعبى . إنها لعب تصلح للأطفال ، اما انا فأكبر من هذه السن .

ولكنها لم تلبث ان هيأت لنفسها مكانا مريحا وسط السجادة ، واخذت تصف قطع الخشب لتبنى بها منزلا لـ « نينا » — الدمية التى جاءت بها من المدينة — وبنت منزلا لعله اكثر استقرارا واقرب إلى فهمها من منازل الأغراب التى انقضت حياتها فى التنقل بينها ، لا تمكث فى كل منها إلا زمنا قصيرا .

واخذت « لارا » ترقبها من المطبخ وهى تقول :

— انظر إلى غريزة البحث عن عش ، إنها تثبت أن لا شىء يطفىء جذوة الحنين إلى مأوى مرتب هادىء . إن

الأطفال اكثر منا صدقا وصراحة ، إنهم لا يخافون الحقائق ، اما نحن ، ففى خشيتنا من ان نرى شيئا متخلفين عن الزمن ، لا نتورع عن خيانة كل ما هو عزيز لدينا ، ونمدح ما نكـره ، ما لا نفهم !

وعاد « يورى » من مدخل المنزل المظلم وهو يقول :

— ها هو الطست ! إنه لم يكن حيث نظنه ، بل كان فى المدخل موضوعا تحت شق فى السقف ، واظنـه بقى فى ذلك المكان منذ الخريف الماضى .

— ٧ —

انتفعت « لارا » بذخيرة المأكولات الى جاءوا بها ، واعدت طعاما يكفى ثلاثة ايام ، وقدمت لهم عند العشاء مأدبة لا يحلمون بها : حساء بطاطس ، ولحم ضأن وبطاطس مشوية . واكلت « كاتيا » ملء بطنها ، واخذت تضحك وتعبث ، فلما خدرها الشبع والدفء ، التفت فى شال امها على الأريكة واستغرقت فى النوم .

اما « لارا » فبعد ان اجهدها التعب وحرارة الفرن ، امست لا تقل عن ابنتها ميلا إلى النوم ، ولكنها كانت سعيدة بأن اجادت طبخ الطعام ، فلم تتعجل رفع الأطباق عن المائدة ، وجلست تلتمس فترة من الراحة . ولما وثقت من ان ابنتها مستغرقة فى النوم ، اخذت تقول وهى مستندة إلى المائدة وراسها معتمد على قبضة يدها :

— اننى راضية أن اشقى كالعبد الرقيق ، واكون

سعيدة لو وثقت من ان هناك جدوى من هذا العناء ، وانه لا يضيع سدى . ولكن ها انذا احيد عن الصواب .. انت لا يضيرك أن تفكر مرة ومرتين وان تتردد ، اما انا فينبغى لى ان اخضع للمنطق وأن اتبعه بإخلاص وثبات .. أنت حين دخلت منزلك ورايت مهد ابنك كاد يغمى عليك — ولك كل الحق فى ذلك — اما انا فلا يسمح لى بأن ينتابنى القلق والخشية على « كاتيا » ، او ان افكر فى المستقبل ، فكل شىء ينهزم امام حبى لك .

— « لارا » يا حبيبتى ، اهدئى روعا واعملى فكرك ، فان الوقت لم يفت بعد ان اردت العدول عن قرارك . ولقد كنت انا اول من اشار عليك بالاستجابة إلى نصيحة « كوماروفسكى » ، والحصان لا يزال باقيا لدينا ، فاذا شئت عدنا من الغد إلى « يورياتين » ، فلا يزال « كوماروفسكى » فيها لم يبرحها . لقد رايناه فى الطريق ، وان كنت اظن انه لن يلحقنا ، وإنى واثق اننا سنجده .

— ها انا لم اكد افتح فمى بكلمة حتى غضبت . ولكن خبرنى : هل انا مسرفة فى الخطأ ؟ الم يكن الأجدى ان نبقى فى « يورياتين » ما دمنا لا نحسن هنا إخفاء انفسنا ؟ إذا كنا نطلب النجاة حقا فلا مفر من ان تكون لنا خطة محكمة ومرسومة ، هذا هو صميم نصيحة « كوماروفسكى » . إنه وغد ولكنه ليس بالأحمق ، إنه رجل عملى يعرف حقائق الأمور . والواقع ان هذا المكان اشد خطرا علينا من اى مكان آخر . فكر فى الأمر قليلا ، إننا نعيش وحدنا فى تيه مكشوف لا نهاية له ، تجتاحه

الرياح . فلو انهمر علينا الثلج فى الليل لما عرفنا فى الصباح كيف نشق طريقنا للخروج . أو قدر أن رب نعمتنا المجهول ، ساكن هذا البيت ، وقد يكون من قطاع الطرق فيدخل علينا ويذبحنا ! هل لديك — على الأقل — بندقية ؟ لا اظن ذلك ! اترى ؟ إن ما يزعجنى فى طبعك هو قلة مبالاتك ، وقد انتقل إلى هذا الطبع بالعدوى ، فلا استطيع ان افكر تفكيرا مستقيما .

— ولكن ماذا تريدين ؟ ماذا تريدين ان افعل ؟

— اننى أنا نفسى لا ادرى كيف اجيب ، ابقنى دائما فى قبضة يدك وشد على ، ذكرنى دائما اننى جارية لك تحبك وان لا شأن لى بالفكر والجدل .. ساقول لك كيف ارى الواقع . إن زوجتك « تونيا » وزجى « باشا » هما اسعد حالا منا الف مرة ، ولكن ليست هذه هى المسألة . المسألة ان نعمة الحب — مثل أى نعمة اخرى — مهما كبرت لا تزال فى حاجة إلى أن يباركها الله حتى تنطق بكل معانيها . اننى وانت ، كانما تعلمنا فى السماء كيف نحب ، ثم بعث الله بنا معا إلى الأرض ليرى مبلغ انتفاعنا بما تعلمنا . إن ما بيننا هو ذروة الانسجام والتوافق ، لا حدود ولا درجات ، نجد فى كل شيء قيمته المثلى ، ونجد فيه النشوة والجذل . كل شيء ينقلب بين ايدينا إلى روح ، ولكن هذا الحنان الجامح — الذى يتلقفنا فى كل وقت — مركب غير ذلول ممتنع علينا . إنه قوة طاغية محطمة تجافى الأمن فى عش هادىء ، ومن واجبى ان اخشاه ولا اثق به .

وطوقته بذراعيها وهى تغالب دموعها ، ومضت تقول :

— الا ترى ان وضعنا مختلف ؟ إنك اعطيت اجنحة تحلق بها فى السماء . ولكننى امراة ، اجنحتى اعطيت لى لأبقى على الأرض احمى صغارى .

وملأه قولها سرورا كبيرا ، ولكنه لم يفصح عنه خشية ان يبدو لها سريع الاستجابة للعاطفة . وقال :

— حقا إن حياتنا المتنقلة غير المستقرة لا تخلو من الزيف والأنفعال . إنك على حق . ولكن هل اخترنا نحن طواعية هذا النمط من الحياة ؟ إن هذا التنقل المخبول من مكان إلى مكان حادث لكل الناس ، إنه طابع العصر الذى نعيش فيه . لقد ظللت افكر فى هذا الأمر طول اليوم ، وسأبذل جهدى للبقاء هنا بعض الوقت . إنك لا تعلمين كم اتوق للعودة إلى العمل ، وانا لا اقصد زرع الأرض كما كنا نفعل من قبل . نعم إن الزراعة كانت عمل الأسرة كلها وسر نجاحها ، غير اننى لا اجد فى نفسى القوة لأن اعود للزراعة من جديد . وفى ذهنى فكرة اخرى ، ان النظام يستتب شيئا فشيئا ، وسيأتى يوم يعود فيه طبع الكتب ، فالذى افكر فيه هو : هل نستطيع ان نصل إلى اتفاق مع « سامديفياتوف » بأن يتكفل بنا ستة اشهر لقاء ربح غير قليل نضمنه له ، على ان افرغ فى هذا الوقت من تاليف كتاب ، وليكن مثلا كتابا مدرسيا فى علم الطب ، أو كتابا فى الأدب ، ديوان شعر ، أو اترجم عن اللغات الأجنبية اثرا قيما ؟ لقد رايت من قبل إعلانا عن ناشر فى (بطرسبرج)

لا يطبع إلا الكتب المترجمة ، وإنى واثق ان اجـرى سـيدفع فورا ، ويسعدنى ان اكرس نفسى لهذا العمل .

قالت له « لارا » :

ــ يسرنى ان ذكرتنى بهذا الأمر ، فقد كنت اليوم افكر فى شىء مثله ، ولكنى لا اثق بمستقبلنا هنا ، بل يخالجنى شعور باننا سنتعرض لاجتياح جديد ، وسيقذف بنا مرة اخرى إلى مكان ابعد ، وما دام لا يزال امامنا فسحة من الوقت نتنفس فيها بأمان ، فإنى أسالك ان تسدى إلى معروفا إننى أريد منك ان تكرس بعض الساعات كل مساء فى الأيام القادمة لتحرر القصائد التى كنت تنشدها لى فى مختلف الأوقات ، لقد أضعت نصفها والباقى لم تكتبه قط ، واخشى أن تنساها وتضيع أيضا كما حدث لك من قبل ، باعترافك .

– ٨ –

وفى نهاية اليوم اغتسل الاثنان بماء ساخن كثير ، واشرفت « لارا » على استحمام « كاتيا » ، واستمتع «يورى» بنعمة النظافة وجلس إلى المنضدة فى مواجهة النافذة ، مديرا ظهره للحجرة وللارا ، وهى ملتفة بدثار الحمام تفوح منها رائحة الصابون ، وقد عقصت شعرها وكومته فوق راسها كالعمامة ، ولفته بفوطة تركية ، وارقدت « كاتيا » فى الفراش وحبكت الغطاء حولها . ومع ان « يورى » كان يتهيأ للاستمتاع بلذة الاستغراق فى العمل ، إلا انه كان يحس بكل ما يجرى حواليه ، ويتتبعه بانتباه مطمئن مريح . واغمضت « لارا » عينيها توهمه انها غارقة فى السبات ، إلا أنها استسلمت اخيرا لسلطان النوم ، وكانت الساعة قد بلغت الواحدة صباحا ،

وكان قميص نومها وقميص «كاتيا» واغطية الفراش ــ لحداثة عهدها بالغسل والكى ــ تستريح العين لنظافتها ولجمال زينتها المصنوعة من الدانتلا . وقد أتيح « للارا » ــ حتى فى تلك الأيام ــ أن تظفر بما تحتاج إليه لزينة ملابسها من النشا .

ووجد « يورى » الصمت من حوله مفعما بالسعادة والحياة : فضوء المصباح يسقط فى صفرة رقيقة على بياض الورق . والحبر يلمع فى الدواة بلون ذهبى ، ووراء النوافذ يسدل صقيع الشتاء على الكون غلالة من ضوء شاحب ضارب إلى الزرقة ، واراد « يورى » ان يتملى من منظر الليل ، فخرج إلى الحجرة المجاورة غير مكترث ببردها ، ومد بصره من خلال النافذة ، فاذا ضوء البدر المكتمل يسيل على السهول كانه الزلال او دهان صمغى ابيض . ان جمال ليالى الشتاء القارس يجل عن الوصف . وامتلأ قلبه بالأمن والطمانينة ، وعاد إلى نور حجرته ودفئها .. وبدا يكتب .

وحرص « يورى » على ان ينطق خطه بنبض يده ، لئلا تفقد خلجات قلبه روحها وتوثبها حتى فى مظهرها الخارجى . واخذ يسجل مرة بعد مرة ، وكلما فعل كانت اللاحقة افضل من السابقة ، حتى ابتعد كثيرا عن النص الأول . وكانت اكثر قصائده بقاء ووضوحا فى ذاكرته : قصيدة « نجم عيد الميلاد » و « ليلة شتاء » ، وقصائد اخرى من نوعها اضاعها فيما بعد ولم يعثر عليها إنسان .

ولما فرغ من هذه القصائد الكاملة القديمة ، بدا يسجل القصائد التى كان بداها ولم يتمها . فجعل يتلو مطالعها

ليستلهم منها خواتها ، وهو لا يأمل ابدا أن يتمها فى جلسته . واخيرا سلس قيادة قريحته ، وجرى تيار افكاره ، وبدأ يكتب قصيدة جديدة .

لقد فاضت من ذهنه مطالع القصيدة ، وتداعت له تشبيهات دهش لها هو نفسه ، فاستحوذ عليه قلقه واحس ان ما يسميه بالوحى سيهبط عليه وشيكا . فى هذه الآونة تنقلب العوامل التى تخلق الأثر الفنى رأسا على عقب ، فلا تبقى فى قمتها ملكة الكاتب أو المعانى التى تدور فى رأسه ويريد ان يعبر عنها ، بل الذى يقفز إلى القمة هو اللغة : اداة التعبير . فاللغة هى المأوى والمستكن للجمال والمعانى ، إذا استحضرها الإنسان اخذت هى — مستقلة — تفكر وتنطق له ، وتذوب كلها فى لحن موسيقى ، لا تتبين نغمته فتسمعها الآذان ، بل هو لحن يغمره فيض داخلى بفضل قوته واندفاعه ، وحينئذ يصبح تيار النهر العظيم — الذى يصقل الأحجار ويدير الطواحين — يشبهه فيض الكلام : يخلق فى تدفقه — وبفضل قوانين يختص بها لذاته — نغمة وراء نغمة ، بل يخلق ما هو اهم من ذلك : اشكالا وتراكيب لا حصر لها ، لم يسبق لأحد من قبل أن فطن لها او اكتشفها أو وجد لها اسما .

واحس « يورى » حينئذ انه ليس هو صانع هيكل الاثر الفنى ، بل هى قوة مجهولة تعلوه وتسيطر عليه ، هذه القوة هى ذهن الكون وقصيدة فى تلك الآونة وفى المستقبل ، وإن الذى يسيره إنما هو خطو هذه القوة فى تطور تاريخها ، وانه هو فى يدها ليس إلا ذريعة ، واداة ، ومرتكزا .

ولقد انقذه هذا الشعور برهة من ضجره بنفسه ، التى كان يلومها ولا يرضى عنها . وتحت وطأة شعوره بالتلاشى ، رفع راسه وتلفت حوله .

راى راسيهما راقدين على الوسادة البيضاء كالثلج .. وإذا براءة ملامحهما ، ونظافة الفراش والحجرة ، والليل والثلج والنجوم والقمر ، قد اختلطت كلها وطغى مدها فى معنى واحد ملأه جذلا بانتصار طهارة هذا الوجود . واخذ يهمس : « يا إلهى ! يا إلهى ! كل هذا لى انا ؟ لم هذا الكرم ؟ لماذا جعلتنى امثل تحت ظل عرشك ؟ كيف فتحت لى أبواب الحياة بين كنوزك ، وتحت النجوم ، واسلمتنى إلى حب شقى جموح لا يئن ولا يشكو ؟ » .

ومضى الوقت حتى بلغ الساعة الثالثة ، فرفع وجهه عن الورق ، وعاد من استغراقه — الذى طوح بروحه بعيدا — إلى الواقع وإلى نفسه ، يحس بالسعادة والقوة والأمن ، وإذا بصمت هذا التيه المترامى من وراء النافذة يقطعه عويل ينقبض له القلب ، فمضى إلى الحجرة المجاورة الغارقة فى الظلام . ولم يستطع أن يرى شيئا ، إذ كان الثلج قد انعقد فوق زجاجها حين كان يعمل ، فذهب إلى المدخل وجر السجادة الملفوفة والمدسوسة فى عقب الباب لتمنع تيار الهواء ، وارتدى معطفه وخرج . خطف بصره لألاء ضوء القمر ينعكس على الثلوج العارية بلا ظلال ، فلم يستطع اول الأمر أن يتبين شيئا ، ثم وصله مرة اخرى نفس العويل ينبعث من اعماق

السهول ، متقطعا مكتوما لأنه يأتى من بعيد ، ولمح ظلالا اربعة طويلة نحيلة كأنها خط رسم بقلم على حافة السهل من وراء الأخدود ، ووقفت الذئاب فى صف ، برؤوسها مرتفعة ومخاطمها مصوبة إلى الدار ، تنبح القمر ولألاءه الفضى على زجاج النافذة . ولم يكد « يورى » يفطن إلى انها ذئاب حتى استدارت وركضت مثل الكلاب كأنها قرأت افكاره ، وضاع منه شبحها قبل ان يلحظ إلى اين كان اتجاهها . وإذ اختفت ، قال لنفسه :

— لا ينقصنا إلا هذا ! هل جحرها قريب ؟ لعله فى بطن الأخدود . إن حصان « سامديفياتوف » فى مخزن التبن . ولا شك انها شمت رائحته .

ولم يشأ ان يوقظ « لارا » وينبئها بالخبر المقلق ، لكنه دخل واغلق كل الأبواب بين الحجرات الباردة والحجرات الدافئة ، ودس السجاد والملابس فى الشقوق ، ليصد تيار الهواء ، وعاد إلى المنضدة : وكان المصباح لا يزال يضىء بنور فياض ، ولكنه لم يجد فى نفسه إقبالا على العمل ، ولم تهدأ نفسه بعد أن استحوذت على فكره الذئاب والمشاكل المعقدة التى تنتظرهم ، ثم لأنه فوق ذلك امسى متعبا جدا . وهنا استيقظت « لارا » وقالت له بصوت يغالبه النعاس .

— الا تزال تعمل يا حبيبى ؟ إنك تتقد وتضىء كأنك شمعة تحترق بالليل . تعال اجلس إلى جانبى قليلا لأروى لك احلامى .

واطفأ المصباح .

— ٩ —

ومرّ يوم آخر من حياة طيشهم واستهتارهم ، وكانوا قد عثروا على زلاقة للأطفال ، فركبتها « كاتيا » وهى متشحة بمعطفها ، واخذت — وهى تصيح وتضحك — تنزلق بها فوق منحدر اقامه « يورى » بضغط الثلج بمجرفته وصب الماء فوقه لينعقد سطحه ويصبح أملس ، ثم لا تكف عن الصعود من جديد إلى قمة المنحدر وهى تجر إليها الزحافة بحبل ، والابتسامة لا تفارق وجهها .

واشتد الصقيع وانعقد الثلج وجمد ، ولكن الشمس ظلت ساطعة تنعكس اشعتها بلون اصفر على الثلج عند الظهر ، ثم تتشرب شيئا فشيئا بلون برتقالى ينبىء عن اقتراب الغروب . وكان الغسيل والاستحمام ، بالأمس ، قد ملأ منزلهم بالرطوبة ، واعتم البخار زجاج النوافذ وتثلج فوقها ، وجعل يتساقط فى فتات ، وانبعج ورق الجدران وتموج ، وازعجهم فى الحجرة ظلامها وافتقادهم الراحة فيها . وظل « يورى » ينقل الحطب والماء ويديم التنقيب فى الدار ، لا ينفك يكتشف كل يوم شيئا جديدا ، وهو إلى ذلك يعاون « لارا » ايضا فى خدمة الدار . . وكان يحدث فى زحمة العمل ان تتلامس ايديهما فيلقيان ما بها ويعقدان راسيهما فى غمرة من اللهفة والحنان . ثم تمر الساعات فينتبهان فى جزع إلى ان « كاتيا » بقيت طويلا وحدها مطلقة القياد ، أو أن الحصان لم يصب شيئا من الماء أو القوت ، فيهرعان نادمين لملاقاة هذا النسيان .

لم يرتو « يورى » من النوم ، فهو يحس فى راسه بدوار

خفيف كأنه مخمور ، وجسده من الضعف فى خدر لذيذ . وإنه ليترقب المساء فى شغف ليعود إلى استئناف عمله . أما هيكل البناء الذى سيقيمه ، فقد تكفل به عنه هذا الخدر الذى تملكه والذى أطلقه من أسر أفكاره الحاضرة وتأثره المباشر بما حوله ، فكأن هذا الغموض الذى يلف كل أحاسيسه مرحلة لازمة للوصول إلى الدقة والوضوح الناصع فى الصورة الأخيرة للأثر الفنى ، وكما أن تزعزع المحاولة الأولى واضطرابها يفضيان به إلى الدقة والوضوح ، فكذلك فراغه ساعة بعد ساعة بالنهار تمهيد لازم لاستغراقه فى العمل بالليل، وهو بسبب هذا الفراغ والملل لا يكف عن الحركة، وإنه ليتناول كل ما يقع تحت يده فينقله أو يبدله على هيئة جديدة .

وشعر « يورى » أن أحلامه فى البقاء فى (فاريكينو) لن تتحقق ، وأن ساعة الافتراق عن « لارا » قد قربت ، وأنه لا شك سيفقدها وسيفقد معها كل إرادة له فى البقاء على قيد الحياة ، بل قد يفقد الحياة ذاتها ! امتلأ قلبه بالأسى والفجيعة، ولكن أكبر عذابه كان فى ترقبه للمساء ، حتى يعبر عن هذا الضنى الذى لو وقع فيه غيره لعبر عنه بالدموع .

إن منظر الذئاب لم يبرح ذاكرته طول النهار ، لم تعد عنده ذئابا تعوى عبر السهول تحت ضوء القمر ، بل دلالة ترمز إلى قوة معادية عازمة على تحطيمه هو و « لارا » ، وعلى طردهما من (فاريكينو) .

ونمت فى ذهنه فكرة جبروت هذه القوة المعادية ، حتى إذا

جن الليل انقلبت إلى صورة غول من عصور ما قبل التاريخ ، يطلع عليهما متعطشا إلى دمه ، متحرقا فى غلمته إلى اغتصاب « لارا » !

* * *

وأقبل المساء ، وأضاء « يورى » المصباح ، وآوت « لارا » و « كاتيا » إلى الفراش مبكرتين .

أمامه الأوراق التى سودها بالليل تنقسم إلى نوعين : الأول مكتوب بخط جميل ، وهى النسخة النهائية لقصائده الأولى بعد تنقيحها . والنوع الثانى مكتوب بخط غير واضح مضطرب مملوء بالاشارات والفجوات ، وهى أولى محاولاته فى قصائده الجديدة . ولما فك رموز هذا الخط ، أحس ـ كعادته ـ بخيبة أمل كبيرة . فهذه العبارات البكر التى دهش لها حين صاغها فى أبيات من الشعر فى الليلة الماضية ، و اغرورقت عيناه من فرط فرحته بتوفيقه إليها ، هذه الأبيات ذاتها ملأته حزنا حين أعاد قراءتها ، إذ وجدها بينة الافتعال ، مولودة فى توتر وعسر . وقد ظل يطمع ـ طول حياته ـ أن يبتدع له أسلوبا أصيلا مبتكرا يعتمد على الهمس والتلميح ، متخفيا ـ مع ذلك ـ تحت قناع بقية الأساليب الجارية المألوفة. إنه سعى طول عمره ـ فى نصب شديد ـ ليصل إلى أسلوب متحفظ لا يتباهى ببراعته ، تنتقل به المعانى إلى القارىء أو السامع واضحة جلية ، دون أن يحس بالجهد الذى بذله صاحبها فى صياغتها . . إنه يجرى وراء أسلوب يخامر القارىء دون أن يقلقه بإثارة انتباهه ، ولشد ما يرعبه أن يرى أنه لا زال قاصرا عن أن يبلغ أمله المنشود .

لقد حاول فى الليلة الماضية — بكلمات بسيطة مسربلة بالحياء ، مكتوبة كأنها مناغاة أم تنيم طفلها — ان يعبر عما يساور قلبه من شعور مختلط يجمع بين الحب والأسى ، والخوف والإقدام ، على صورة تبرز فيها المعانى بفضل كيانها وحده ، كأنها لست فى حاجة إلى الفاظ . ولما أعاد تلاوة محاولاته الأولى وجد انه تنقصها الفكرة الأساسية التى تربط اجزاءها ، وتجمع ابياتها فى وحدة متناسقة . فالغى ما كتب عن منازلة القديس جورج للتنين ، واستعان ببحر فسيح من بحور الشعر ، إلا انه وجد أن سلاسة الكلام ليست وليدة المعانى ذاتها ، بل مستمدة من نغمة البحر ذاته ، واكربته منه تفاعيله المتتالية الرتيبة ، فعدل عن هذا البحر الرنان المنغم إلى بحر قصير يختصر لغو الأبيات الطويلة ، كما تختصر الألفاظ الزائدة فى النثر .

وبدا له بلوغ الهدف الجديد اشد عسرا ، وإن كان اشد استمالة للنفس . ودبت الحياة فى الكلمات ، وإن لم تخل بعد من الاطناب ، فعدل من جديد إلى بحر اقل طولا ، حينئذ وجد الألفاظ تتجمع محدودة بلا اطناب ، واصبح « يورى » فى تمام الوعى والحماس ، وساق له وزن البحر طلبته من الألفاظ الصائبة ، واخذ الأسلوب يوحى إليه بمعان مستكنة من غير حاجة إلى الاشارة إليها ، حتى ليسمع فى قصيدته وقع حوافر الحصان كما يسمعه فى احد الحان شوبان : هذا هو القديس جورج على حصانه ينهب البرارى المترامية إلى ما لا نهاية ، وإنه يستطيع أن يراه يتضاءل كلما ابتعد شيئا فشيئا . واخذ يكتب

فى عجلة محمومة ، لا تجارى يده سرعة فيض الألفاظ . . وكانت كلها صائبة ، تسقط فى قالبها المرسوم الذى خلق لها .

ولم يلحظ « لارا » وهى تقوم من فراشها وتقترب من المنضدة ، وقد بدت فى قميص نومها اشد نحولا وطولا ، ففوجىء بوقوفها بجانبه ، شاحبة الوجه يتملكها الخوف ، تمد له يدها وتهمس :

— اتسمع ؟ هذا كلب يعوى ، بل اظنه عواء كلبين ، آه . . كم هذا مخيف ! إنى اراه فالا سيئا ، سنتحمله إلى ان يطلع النهار ثم نرحل ، نعم ، نرحل . . لن ابقى هنا دقيقة واحدة !

ولكنها لم تلبث ان هدأت — بعد نحو ساعة — وهو يلاطفها ، وعادت إلى النوم . وخرج « يورى » فوجد الذئاب قد ازدادت قربا من البيت عما كانت فى الليلة الماضية ، ثم اختفت فى سرعة اشد ، ولم يلحظ كذلك إلى اين كان اتجاهها . ولم يتسع له الوقت ليتبين عددها ، ولكن خيل إليه انه زاد عن الأمس .

— ١٠ —

وحل اليوم الثالث عشر من ايام إقامتهم فى (فاريكينو) ، وكان يوما ليس به شىء جديد او غير مألوف ، وعادت الذئاب تعوى بالليل ، وكانت قد اختفت فى اواسط الأسبوع ثم رجعت . وقد ظلت « لارا » تحسب صوتها عواء كلاب ، وإنه نذير سوء ، ولم تتخل عن عزمها على الرحيل . فلقد كانت

امراة ذات خبرة بالعمل الشاق ، لم تالف ان تقضى يومها تنضفض بما يعتلج فى نفسها من خوالج ومشاعر ، أو وهى تنعم بترف التمسح فى احضان حنان باذخ ، لذلك كان يتناوبها الهدوء والاتزان تارة ، والحيرة والقلق تارة اخرى .

وكانا قد الفا هذا المشهد مرة بعد اخرى ، ولكنه لما تكرر فى ذلك الصباح من الأسبوع الثانى من إقامتهم ، وبدات «لارا» تجمع من جديد متاعها استعدادا للرحيل ، بدت لهما الأيام الماضية فى (فاريكينو) كانها حلم موهوم . .

وغرقت الحجرة من جديد فى الظلام والرطوبة ، إذ كان الجو ــ هذه المرة ــ مغبرا حزينا ، وقد خف الصقيع ، وإن اوحت رؤية السحب السود المنخفضة بان الثلج سيتساقط وشيكا .

وكان « يورى » قد انهكه الاجهاد الجسمانى والذهنى ، اثر ليال عديدة لم ينعم فيها بنوم ، فاحس ان ساقيه ضعيفتان ، وذهنه مرتبك ، وهو يرتجف من البرد ويحك كفيه ، ويجول من حجرة إلى حجرة ، ينتظر من « لارا » أن تصدر قرارها ليعرف ما سيفعله . ولكنها بقيت فى حيرتها ، لا تدرى هى ذاتها ما الذى تريده . كانت ساعتئذ مستعدة لأن تقبل تحمل كل تضحية من اجل أن تستبدل بهذه الحرية التى تبلغ حد الفوضى حياة تخضع لنظام ايا كان ، مهما بلغت مشقته ، بل يكفى ان يكون نظاما مستتبا لا يتغير ، يكون لهم فيه عمل وواجبات ، ليستقيم لهم العيش حلالا متحشما معقولا .

وقد استفتحت يومها ــ كعادتها ــ بترتيب الفراش وكنس الارض ومسح الأثاث وإعداد الفطور ، ثم بدات تجمع المتاع . وسألت «يورى» أن يجهز الحصان ، فقد صح عزمها اخيرا على الرحيل .

ولم يجادلها « يورى » . لقد كانت من الجنون هذه العودة إلى المدينة ، حيث بلغت حملة الاعتقالات ــ بلا شك ــ ذروتها . ولكن كان من الجنون أيضا البقاء حيث هم ، فى عزلة وبغير سلاح فى هذا التيه الذى يكتنف شتاءه اكبر المخاطر . ثم إنه لم يبق من التبن إلا حمل ذراع . ولو كان فى استطاعتهم البقاء طويلا فى (فاريكينو) لخرج « يورى » يجول فى المنطقة بحثا عن طعام لهم ولحصانهم ، ولكن ذلك يصبح جهدا ضائعا لو بذل من اجل إقامة مقلقلة لن تدوم إلا اياما معدودة . وصرف « يورى » هذا الخاطر عن نفسه ، ومضى يجهز الحصان .

لم يحسن وضع العريش وربط اللجام ، وكان « سامديفياتوف » قد علمه كيف ينبغى أن يفعل ، ولكنه كان قد نسى ما تعلمه . ومع ذلك ، افلح اخيرا فى إعداد الزحافة على قدر علمه ، وقاد الحصان إلى المدخل وربطه ، ثم دخل ينادى « لارا » .

وارتدت « لارا » و « كاتيا » معطفيهما ، وكانت « لارا » قد اتمت حزم المتاع ، ولكنه وجدها فريسة قلق شديد ، حتى لتكاد تبكى . وسألته أن يجلس قليلا ، ثم اخذت ترتمى على مقعد وتهب واقفة . وتتكلم بصوت عال كلاما مضطربا وهى

تتلعثم مرارا ، وتسأله هل هو موافق على رأيها أم غير موافق . كانت تقول :

— ليس الذنب ذنبى ، لا ادرى انا نفسى كيف حدث هذا . انت ترى بنفسك اننا لا نستطيع الرحيل فى هذه الساعة المتأخرة ، وسيحل الليل سريعا ، وسنضيع وسط ظلام تلك الغابة المخيفة . الست من هذا الراى ؟ إننى رهن إشارتك ، ولكنى لا اجد فى نفسى إقداما على الرحيل . شىء يهمس فى صدرى يقول لى ان لا نرحل ، فافعل انت ما تراه افضل لنا . لماذا لا ترد بكلمة ؟ لقد اضعنا نصف النهار هباء ، اليس من الحكمة ان نؤجل السفر إلى غد ؟ وما الضير فى ان نبقى ليلة اخرى ، ونستيقظ غدا مبكرين ، ونخرج اوائل النهار ، فى الساعة السادسة او السابعة ؟ ماذا تظن ؟ سنشعل الموقد ، وتنصرف انت هذا المساء إلى الكتابة ، ونمضى هنا ليلية اخرى. فكرة بديعة مدهشة ؟ يا إلهى ! هل اخطأت من جديد ؟

فقال لها :

— انك تبالغين ، فان الغسق لا يزال بعيدا ، وامامنا متسع من الوقت . ولكن ليكن ما تريدين، ولنبق هنا هذه الليلة. فيم هذا الانزعاج والقلق؟ . تعالى نخلع معاطفنا ونفك متاعنا. ان «كاتيا» تقول انها جائعة ، ولا بد من إعداد الطعام . انت محقة فى رأيك ، فلا معنى لأن نرحل هكذا فجأة دون ان نستعد للسفر استعدادا كافيا . لم هذا القلق وهذه الدموع؟ سأشعل الموقد حالا ، ولكن يحسن بى قبل ذلك — ما دامت الزحافة لا تزال امام الباب — ان اذهب لأحضر ما تبقى من الحطب

من مخزن بيتنا القديم ، إذ لم يبق لدينا هنا شىء منه .. لا تبكى ، سأعود سريعا .

— ١١ —

رسمت الزحافة على الثلج خطوطا عديدة من اثر سيرها فى الايام السابقة إلى مخزن الحطب فى منزل « جيفاجو » ، وبقى الثلج على المدخل ملوثا مضغوطا من وقع اقدامه حينما ذهب إلى الدار منذ يومين ، وانقشعت السحب التى كانت ملبدة فى السماء منذ الصباح ، وزال الصقيع . وكان البستان القديم المترامى الأطراف يحيط بالمنزل والفناء ، ويمد فى رحابه حتى يبلغ مخزن التبن ، كأنه يريد ان يلقى نظرة على « يورى » ويذكره بشىء . وكان الثلج قد تساقط غزيرا هذا الشتاء ، وطغى على المدخل حيث بدت سقيفته اقل ارتفاعا ، والمخزن كأنه محدودب ، وتراكم الثلج على السطح الذى يهبط متماسكا حتى يكاد يمس رأس « يورى » فكأنه قبعة ضخمة على هيئة نبات عش الغراب . وتدلى هلال القمر كأنه يكاد ينغرس فى الثلج ، وقوسه يفيض بضياء سنجابى . وملأ الظلام والحزن قلب «يورى » حتى خيل إليه — والنهار لا يزال عند العصر — انه يقف وسط ظلام غابة تتمثل فيها حياته ، وان القمر الذى هبط إلى مستوى نظره نذير بالفراق والوحدة .

وبلغ به التعب أن كاد يعجز عن الوقوف ، ولم يستطع ان يحمل بين ذراعيه من الحطب إلا مقدارا اقل مما كان يحمله



ولم يجد فى الحركة دفئا ، ان شيئا فى قلبه قد تحطم ، وأخذ يلعن حظه الاسود ..

من قبل ، ولسعه — رغم القفاز — برد الحطب المنعقد حوله كساء من ثلج لزج . ولم يجد فى الحركة دفئا ، إن شيئا فى قلبه قد تحطم ، واخذ يلعن حظه الأسود ، ويدعو الله ان يصون حياة « لارا » حبيبته ، الوسيمة الحزينة ، المتواضعة الطيبة القلب . وظل القمر يطالعه من فوق السطح ، ينكشف وجهه ولا ينير ، كأنه يسكب بدل النور بردا .

وادار الحصان رأسه ناحية منزل « ميكوليتسين » ، واخذ يصهل صهيلا خافتا منكسرا ، ثم زاد ارتفاعا ووثوقا ، وراح « يورى » يسائل نفسه : لم هذا الصهيل ؟ أمبعثه السرور ام الخوف ؟ ليس هو الخوف فان الخيل لا تصهل إذا خافت ، وليس هذا الحصان بالأحمق حتى يثير انتباه الذئاب إن كان قد أحس قربها . إنه حنين العودة إلى الدار .. فاصبر قليلا ، ها نحن ذاهبون .

واضاف إلى غنيمته شظايا صغيرة من الحطب تصلح لإشعال الموقد ، ولفافات مستديرة من لحاء الخشب ، ووضع فوق حمولة الزحافة كيسا من الخيش وربط عليها بحبل ، ثم استدار ومشى محاذيا راس الحصان . واخذ الحصان يصهل من جديد ، مستجيبا هذه المرة لصهيل حصان آخر يأتى من بعيد . ترى ما الخبر ؟ هل تكون (فاريكينو) غير مهجور من كل سكانها كما كنا نحسب ؟ كيف يدور فى خلده أن ضيوفا قد اقبلوا نحوهما ، او ان هذا الصهيل يسمع من ناحية مسكنهم ؟

واستدار ليضع الزحافة خلف بناء المزرعة حيث تغيب عنه رؤية المنزل الغارق فى الثلج المتراكم .. واخذ نفسه

بالاناة ، فلم العجلة ؟ .. نصف الحطب وفك الحصان وترك الزحافة بمخزن التبن ، وقاد الحصان إلى الاسطبل امام ابعد مذود ، حيث يقل تيار الهواء ، ثم وضع له فى الحوض حفنة كانت لا تزال باقية من التبن .

وحين فرغ من مهمته وسار عائدا إلى المنزل ، احس بالقلق ، إذ وجد أمام الباب زحافة عريضة من زحافات الفلاحين معلق بها حصان أسود قوى ، وكان يمشى بجانبها ، جيئة وذهابا ، فلاح مفتول العضل عفى كحصانه ، يربت بين الحين والآخر على ظهر الحصان ويتفحص رباطه .

ووصلته أصوات تنبعث من المنزل ، ولم يكن من طبعه أن يسترق السمع ، فلم يتبين منها إلا كلمات عابرة متقطعة . ومع ذلك وقف على غير إرادة منه ، واخذ يتسمع الكلام ، فتبين صوت « كوماروفسكى » يتحدث إلى « لارا » و « كاتيا » ! .. لا شك انهم فى الحجرة الأولى بجانب الباب . كان الحديث جدلا ونقاشا ، وصوت « لارا » ينطق بالقلق والبكاء ، فهى ترفض قول محدثها بعنف تارة ، وترضى به مستسلمة تارة اخرى . واوحى إليه إحساس غامض بأن « كوماروفسكى » كان حينئذ يتحدث عنه ، ويقول عنه انه رجل لا ينبغى الوثوق به ! وخيل إليه أنه سمع العبارة الآتية : إن ولاءه موزع بين عاطفتين ، وأنه من العسير أن يعرف هل ولاؤه وقف على « لارا » أم وقف على أسرته ، وأن « لارا » ينبغى لها ان لا تعتمد عليه لأنها لو فعلت فلن تظفر بشىء وستقع فى مأزق .

وقطع « يورى » استماعه ودخل عليهم ، فوجدهم كما كان يظن ، فى الحجرة الأولى على يمين الباب . « كوماروفسكى » يرتدى معطفا من الفرو يهبط كمه إلى معصمه ، و « لارا » تمسك بياقة معطف « كاتيا » تحاول عقد ازرارها فلا تصيب العروة ، وتنهر « كاتيا » لتثبت وتكف عن الحركة ، فتجيبها :

— برفق يا ماما ! انت تخنقيننى !

كان ثلاثتهم يرتدون معاطفهم استعدادا للخروج ، فلما دخل يورى اقبل عليه الاثنان يتكلمان فى وقت واحد :

— اين كنت طول هذا الوقت ؟ كنا فى حاجة شديدة إليك .

— كيف حالك يا « يورى اندريفتش » ؟ ها انت ترى اننى — رغم ما نشب بيننا سابقا من خصام — قد عدت إليكم من جديد ، ومن غير دعوة منكم .

فرد عليه « يورى » بامتعاض قائلا : « كيف حالك ؟ » .

وسألت « لارا » يورى مرة اخرى :

— بحق السماء ، اين كنت ؟ الآن استمع إلى ما يقوله واحكم عاجلا بيننا نحن الاثنين ، فليس لدينا وقت نضيعه إذ ينبغى ان نسرع .

— لماذا الوقوف يا « فيكتور ابوليتوفتش » ؟ اجلس من فضلك ماذا تعنين يا حبيبتى بسؤالك اين كنت ؟ انت تعلمين

انني ذهبت لآتي بالحطب ، وعنيت بامر الحصان . اجلس يا « فيكتور ابوليتوفيتش » .

وقالت « لارا » :

ـ الا تتعجب لرؤيته ؟ لماذا لا تبدو الدهشة عليك ؟ الم تكن تندم لو رحل عنا دون ان نستجيب لنصحه من فورنا ؟ ها هو ذا أمام بصرك وانت لا تبدى شيئا من الدهشة . إن اكبر الدهشة فيما يقوله لنا ، اخبره يا «فيكتور ابوليتوفيتش» .

ـ لا ادرى ماذا تعنى « لارا فيودوروفنا » ، ولكنى استطيع ان أوضح لك امرا واحدا : لقد اشعت عن عمد اننى رحلت ، ولكنى بقيت لأترك لكما فسحة من الوقت للتدبر فيما بحثناه معا ، عسى ان تصلا إلى قرار اقل طيشا وحمقا .

وتدخلت « لارا » :

ـ إننا لا نستطيع أن نؤجل العزم دقيقة اخرى ، ان هذا هو انسب وقت للرحيل ، فى صباح الغد .. ولكن دع « فيكتور ابوليتوفيتش » يخبرك بنفسه .

ـ صبرا يا عزيزتى « لارا » . لماذا نقف مرتدين معاطفنا ؟ فلنخلعها ولنجلس ، فان هناك مسائل ينبغى ان نبحثها فى هدوء ، ولن نفرغ منها فى غمضة عين . اخشى يا « فيكتور ابوليتوفتش » ان يمس الحديث مسائل حساسة من غير المستساغ ان نفيض فيها ، فهذا يدعو إلى الحرج ، الواقع اننى لم ارض قط ان ارحل معك ، ولكن موقف « لارا » مختلف . ولقد حرصت فى المرات النادرة التى اختلفت فيها

همومنا ، وذكرنا أننا شخصان لا شخص واحد ، حرصت دائما على ان اوصيها بأن تولى نصيحتك قدراً اكبر من الاهتمام والعناية ، وهى فى الواقع لم تكف ابدا عن التفكير فى نصيحتك .. فهى تعود لذكرها مرة واخرى .

فقاطعته « لارا » :

ـ ولكن بشرط أن ترحل معنا ! .

ـ كم هو عسير عليك كما هو عسير على أن نفكر فى الافتراق ، ولعل الخير فى أن ننحى عواطفنا جانبا ، ونقبل هذه التضحية ، إذ لا امل فى ان ارحل انا ايضا .

ـ ولكنك لم تسمع حديثه بعد . انت لا تعلم ، فاستمع لما يقوله . غدا صباحا يا « فيكتور ابوليتوفيتش » ..

ـ إن « لارا فيودورفنا » تشير إلى الأنباء التى سبق أن اخبرتك بها : فى محطة « يورياتين » يقف قطار خاص بعثته حكومة الشرق الأقصى ، وقد وصل أمس من موسكو ، وسيتحرك غدا إلى الشرق ، إنه تابع لوزارة المواصلات فى حكومتنا ، ونصفه من عربات النوم ، وسأرحل بهذا القطار ، وقد حجزت فيه مقاعد لمساعدى فيمكنكما السفر معى فى راحة تامة ، ولن تتاح لكما فرصة مماثلة مستقبلا . اننى اعلم انك لست رجلا جعجاعا ، يعدل عما يقرره ، وانك عقدت العزم على البقاء ، ولكن الا تتدبر الأمر من جديد إكراما لـ « لارا » ؟ لقد سمعتها بنفسك ترفض السفر إذا لم تصحبها . فتعال معنا ، إن لم يكن إلى فلاديفوستك ، فعلى الأقل إلى يورياتين .

ليس امامنا دقيقة نضيعها . إن لدى سائقا ــ فانا لا اسوق بنفسى ــ ولا تتسع الزحافة لخمسة اشخاص ، ولكنى فهمت انكما تحتفظان بحصان « سامديفياتوف » . الم تقل إنك ذهبت به لتاتى بالحطب ؟ الا يزال مربوطا إلى الزحافة ؟ .

ــ كلا . لقد فككت رباطه .

ــ إذن ، اربطــه فــورا ، واسرع ما اســـتطعت . وسيساعدك سائقى ، ولكن على فكرة . . لم كل هذا العناء ؟ لننس زحافتك ولنندس خمستنا فى زحافتى ، نستطيع ان نفعل ذلك باى شكل ، ولكن ــ بحق السماء ــ ينبغى الإسراع . لا تأخذا معكما إلا ما يلزمكما من متاع للسفر . فلا معنى لإضاعة الوقت عبثا فى حزم المتاع ، فى حين أن حياة هذه الصبية رهن بالسفر فورا ! .

ــ إننى لا افهمك يا « فيكتــور ابوليتوفيتش » . انك تتحدث كأننى قبلت الســفر ، اذهب . . وأتمنى لك حظــا سعيدا . وإن شاءت « لارا » ، رحلت معك . لا تلقيا بالا إلى المنزل ، فانى سأنظفه واغلقه بعد سفركما .

فقالت « لارا » :

ــ عن اى شىء تتحدث يا « يورى » ؟ ما هذا الهراء ؟ انت نفسك لا تقصد ما تقول . لو شاءت « لارا » ؟ حقا ؟ كأنك لا تعلم حق العلم اننى لا ارحل دونك ، ولن اتخــذ قرارا قط يتعلق بشخصى وحدى . وما هذا ؟ . . ما معنى هذه البطولة السخيفة والتطوع بتنظيف البيت وغلقه ؟

وقال كوماروفسكى :

ــ اراكما متشبثين برايكما لا تحيدان عنــه ، لذلك اود ــ إذا اذنت « لارا فيودوروفنا » ــ ان اقول لك يا يورى . ولنتكلم ، إن امكن ، على انفراد .

ــ بالتأكيد ، إن كان الأمر مهما ، فلنذهب إلى المطبخ . عن إذنك يا حبيبتى .

— ١٢ —

ــ لقد قبض على « ستريلنيكوف » وحكم عليه بالموت ، واعدم رميا بالرصاص !

ــ يا للبشاعة ! اواثق أنت ؟

ــ هذا ما قيل لى ، وانا واثق ان الخبر صحيح .

ــ لا تذكر هذا الخبر لــ « لارا » ، انها تجن له !

ــ بالتأكيد لن افعل ، ولهذا طلبت لن اتحدث إليك على انفراد . والآن ، وقد حدث هذا ، فانها هى و «كاتيا» فى خطر داهم ، وينبغى أن تساعدنى على إنقاذهمــا . اواثق انت من ان قرارك بالبقاء لا عدول عنه ؟

ــ كل الوثوق ، وقد اخبرتك بذلك .

ــ ولكن « لارا » لن ترحل بدونك ، اننى لا أدرى ماذا افعل . ينبغى لك ان تساعدنى بطريقة اخرى . فلنتفق على ان توهمها انك قد تغير رايك ، وانك تميل إلى الاســتماع إلى

نصيحتى . اننى لا أقوى على رؤيتها تقول لك : « وداعا » ، وتتملى منك نظرتها الأخيرة ، التى لا لقاء بعدها ! لا أقوى على رؤيتها تفعل ذلك ، لا هنا ولا فى (يورياتين) . فاجعلها تؤمن – كذبا – إنك راحل ، ان لم يكن برفقتنا ، فوحدك من بعدنا ، حيث تلحق بنا حين اهيىء لك فرصة اخرى للسفر . وتوهمها انك لن تدع هذه الفرصة تفلت من يدك . ينبغى أن تقتنع هى بقولك ، حتى ولو حلفت لها ايمانا باطلة ، وليس هذا وعدا كاذبا منى ، اننى اقسم لك اننى سألبى اول اشارة منك واهيىء لك السفر إلى الشرق ، وأتيح لك أن تسافر من هناك إلى حيث ترغب . ولكن لا بد أن تقتنع «لارا فيودوروفنا» انك قادم معنا – على الأقل – لتشجيعنا . ينبغى ان تحملها على تصديق قولك . ازعم لها مثلا انك ستعد الزحافة ، ثم تحثنا على السفر فورا دون أن ننتظرك ، كسبا للوقت ، وتؤكد انك ستلحق بنا بمجرد ان تعد الزحافة .

– أن خبر إعدام « ستريلنيكوف » قد زلزلنى فلم الق بالا إلى كل ما قلته . انت على حق ، انهم ما داموا قد اتموا تصفية الحساب مع « ستريلنيكوف » فان منطق هذه الأيام يقضى بأن حياة « لارا » و « كاتيا » اصبحت فى خطر . لا بد أن يقبضوا على احد منا ، وبذلك يتحقق ما نخشاه من الافتراق ، فاذا كان هذا هو الواقع فالخير أن يتم الافتراق على يديك ، وأن تصحبهما إلى ابعد ما تستطيع . وما فائدة قولى وقد اصبح الأمر بيدك ، وفق رايك ؟ وقد ياتى يوم انتهى فيه إلى الانهيار فأجثوا امامك على ركبتى ، استرحمك ان تعيد

إلى « لارا » وان تنقذ حياتى وتعمل على نجاتى ، ثم يسعدنى ان اتلقى كل هذا الإحسان من كفك انت ! .. ولكن دعنى ارتب افكارى ، لقد استحوذ على الخبر الذى ذكرت ، إنه حطمنى وروعنى فلا استطيع ان افكر بهدوء . لعلى استجيب لرايك فأرتكب حماقة محطمة لحياتى لا علاج لها ، واتفجع لها إلى آخر رمق من حياتى .. كل الذى أستطيع أن أفعله الآن ان اوافق واطيعك طاعة عمياء كرجل مسلوب الإرادة . حسنا ! اتفقنا ، إكراما لها ساخرج الآن واقول إننى ساعد الزحافة ، وازعم لها اننى سالحق بكما ، ثم ابقى هنا وحدى . ولكن هناك مسالة اخرى : كيف تستطيعون السفر الآن وقد اقترب الظلام ؟ إن الطريق يشق الغابات والذئاب منتشرة ، فخذوا حذركم .

– اعلم ذلك . لا تقلق ، لدى بندقية ومسدس ، وقد احضرت معى قدرا من الكحول من قبيل الحيطة اتقاء للبرد . هل تتناول قدحا منه ؟ إن لدى قدرا كافيا .

– ١٣ –

ماذا فعلت ؟ ماذا جنيت ؟ لقد سرحتها ، تخليت عنها ، نفضت منها يدى ، ينبغى أن الحق بهم .. لارا .. لارا إنهما لا يستطيعان سماعى ، فالريح معاكسة ، ولعلهما يتحدثان بصوت مرتفع . أن لهما الحق فى ان تشعر بالسعادة والاطمئنان ، إنها لا تدرى اننى خدعتها وكذبت عليها . إنها تناجى نفسها ويدهشها أن الأمور سارت على خير وجه : إن حبيبها « يورى » العنيد قد لان فى نهاية الأمر .. « حمدا لله ،

سنذهب إلى مكن جميل مأمون ، حيث الناس أكثر اتزانا ، وحيث يسود القانون والنظام . وحتى لو فرضنا — من قبيل السخف — أنه لن يلحق قطار الغد ، فان « كوماروفسكى » سيرسل له قطارا آخر ليأتى به وينضم الينا فى اقرب وقت . إنه عاد فى تلك اللحظة إلى الإسطبل ، يعمل فى لهفة واضطراب ليجهز الحصان وينهب بـه الأرض ليلحق بنا قبل ان نلج الغابة » .. هـذا ما يجول فى خاطرها ، ونحن قد افترقنا دون أن نشبع أنفسنا من التواصى عند الوداع . لم افعل إلا أن لوحت لها بيدى ، ثم أدرت ظهرى أزدرد من الألم ما تكاد غصته تسد حلقى .

ووقف عند مدخل الدار ومعطفه معلق على كتف واحدة ، ويده الطليقة تشد على عمود المدخل كأنه يريد ان يخنقه . وكان كل انتباهه مصوبا إلى نقطة تلوح عن بعد ، حيث كانت تتاح له رؤية جانب قصير من الطريق يصعد التل ، تحوطه شجيرات قليلة ، وأشعة الشمس الغاربة تسقط على السفوح ، وقد اختفت الزحافة فى منحدر ، ولكنها لن تلبث طويلا حتى تجتازه وتبين من جديد ، بين لحظة وأخرى .

وفيما هو ينتظر ظهور الزحافة ، راح « يورى » يردد ، فى فحيح خائر ، وهو يلتقط بصعوبة أنفاسه التى قطع أوصالها هواء الغسق البارد : « وداعا ! وداعا ! وداعا يا حبيبتى ، وداعا يا حبى الوحيد ، حبى الذى فقدته إلى الأبد ! » .. ثم غمغم هامسا لنفسه من شفتين شاحبتين جافتين ، حين رأى الزحافة تمرق كالسهم إلى حافة المنحدر

وتمر بالشجيرات واحدة بعد الأخرى ، ثم تتمهل وتقف — يا للفرح ! — عند آخر شجيرة : « ها هم أولاء .. ها هم ! » .

وكادت ضربات قلبه تحطم صدره من فرط اهتياجه ، حتى تخاذلت ساقاه وأحس من ضعفه انه على وشك الانهيار ، وأن جسده يتهدل كهذا المعطف الذى يتدلى على كتفه . يا الهى ! هل شاءت رحمتك أن تعيدها إلى ؟ ماذا حدث ؟ ما الذى يجرى على الأفق عند مغيب الشمس ؟ ما معنى هذا ؟ لماذا وقفوا لا يتحركون ؟ كلا . انتهى الأمر . عادت الزحافة للسير من جديد ، ومضوا فى طريقهم . لا شك أنها وقفت لتلقى لارا على المنزل نظرة أخيرة ، أو لعلها أرادت أن تتأكد من أننى بدأت أغادر الدار ، وأننى أعدو فى أثرهم لألحق بهم . كلا ، إنهم مضوا . وتعلق يورى بأمل أن لا تغرب الشمس ، حتى لا يحجب الظلام رؤيتهم ، فتملى للمرة الأخيرة بالنظر إلى الزحافة وهى تجتاز الأخدود الذى يشق السهل ، حيث ارتفع عواء الذئاب منذ ليلتين .

ثم جاءت هذه اللحظة ، ومضت هى الأخرى ، وكانت الشمس لا تزال فى احمرارها كأنها كرة معلقة على الأفق وسط ضباب أزرق من غبار الثلج ، ومن تحتها سهول تغطيها الثلوج تتشرب — بجشع — ضوءها العسلى الرقراق . وتمتم « يورى » حين رأى الزحافة تبدو له ثم تختفى : « وداعا يا لارا ، حتى نلتقى فى العالم الآخر ! وداعا يا حبى ، يا هنائى

الذى لا ينفد ولا ينسى إلى آخر العمر . لن أراك ، لن أراك
مرة اخر !! » .

وحل الظلام ، وابتلع سريعا ما تبقى هنا وهنـــاك على
الأرض من ضوء احمر كالبرونز خلفته الشمس الغـــاربة ،
وتحول لون السهول — يغطيها ثلج هش ناعم — من صفرة
النرجس إلى لون قاتم كالبنفسج ، وانبهمت وســـط ضـــباب
كالدخان اشباح الشجيرات كأنها مرسومة بخط القلم على لوحة
الأفق الوردى ، وقد رق من أثر الشحوب .

وزاد الألم والتفجع من حدة إحساسات « يورى » مائة
مرة ، فخيل إليـــه أن كل شيء حـــوله يختلف عن العهـــد به
اختلافا بينا ، وكأنه فريد فى بابه . حتى الهواء لم يكن يشبه
هواء يوم آخر . وحتى المساء ، انه يتنفس بالعطف عليه ،
كأنه شاهد عطـــوف يرثى لكل ما نزل به . والأرض كأنها لم
تعرف غسقا مثل هذا من قبل ، وانه ليبسط جناحه لأول مرة
هكذا ليجد فى حنانها بلسما لجراحه فى وحدته ومصابه . وكأن
السهول لم تنبت من قبل اشجارا تواجه الأفق . بل كان هذه
الأشجار اتخذت مواضعها حينئذ فحسب — عن عمد — لتقدم
له عزاءها . وكاد « يورى » أن يلوح بيديه لهـــذا الجمـــال
الناطق — كأنه ينفلت من حلقة أصدقاء يحيطونه بعطفهم —
وهو يتمتم لما بقى من الغسق : « شـــكرا ! شـــكرا ! إننى
بخير .. » .

ووقف عند المدخل يواجه البـــاب ، موليا ظهره للدنيا

كلها ، وصوت قلبه يهمس : « لقد غابت شمسك » .. دون
أن يجد فى نفسه القوة لأن ينطق بهذه الكلمات !

ثم دخل البيت تتنازع نفســـه نجويان ، لا واحـــدة ،
إحداهما تختلف عن الأخرى اختلافا شديدا . الأولى اخذ ورد
فى جد واقتضاب ، كأنما الأمر يتعلق بتصريف عمل ، والأخرى
تفيض نحو « لارا » كالنهر المتدفق :

— سأذهب الآن إلى موسكو ، إن همى الأول أن احافظ
على حياتى . ينبغى ان لا اجعل الأرق يتغلب على . فلن آوى
إلى الفراش ، بل سأكتب طول الليل حتى اسقط من الإعياء .
ثم مسألة اخرى ، ينبغى ان اشعل الموقد فورا فى حجرة النوم
حتى لا أموت الليلة من البرد .

ثم يستمع إلى النجوى الأخرى :

— سأتريث معك قليلا يا هنائى الذى لا ينسى ، تذكرك
ذراعاى وشفتاى ، سأبكيك لئلا تنفد لوعتى ، بكـــاء انت به
جديرة ، سأسجل ذراك فى صورة هى ذروة الألم والعذاب ،
وسأبقى هنا حتى يتم لى هذا ، ثم أرحل انا ايضا . سأسجل
صورتك هكذا : ارسمها على الورق ، كما يرسم البحر على
الشاطىء ، بعد عاصفة رهيبة ، آثار اقوى موجة له ، بلغت
اقصى مداها : اعشابا وقواقع وشظايا حجارة هشة كالأسفنج
.. هذا الحطام الهين الخفيف الذى يرفعه البحر من اعماقه
ويتناثر فى صفوف متقطعة على الرمل ، عند نهاية مده .. هكذا
ســـأقيس مدى طغيـــانك على قلبى يا حبيبتى ، يا حبيبتى ،
يا ذخيرتى !

ثم اغلق الباب وراءه وخلع معطفه . ولمـا ولج حجرة النوم التى احسنت «لارا» تنسيقها فى ذلك الصباح ، ثم اختل نظامها فى ربكة حزم المتـاع ، ورأى الفراش غير المـرتب ، ومخلفاتها مبعثرة على المقاعد وعلى الأرض ، ركع على الأرض فأسند صدره إلى قوائم الفراش ودفن وجهه فى غطائه وبكى. اطلق العنان لألمه ودموعه كما يفعل الأطفال .

ثم ما لبث ان قام واسرع يمسح وجهـه ، وادار حوله نظرة حائرة متعبة ، ومد يده إلى زجاجة الفودكا التى تركها « كوماروفسكى » ، فنزع سدادتها وصب منها نصف قدح ، اضاف إليه شيئا من الثلج والمـاء ، واخـذ يصـب فى حلقه ــ بلذة ــ جرعات لا تقل شـدة نهمه إليها عن شـدة الالم واليأس اللذين فاضت بهما دموعه .

ــ ١٤ ــ

إن شيئا غامضا غير مفهوم يعتلج فى نفس « يورى » . إنه مشرف على الجنون .. فهو لم يألف من قبل حيـاة غريبة كالتى يعيشها ، وقد اهمل رداءه ، وكف عن العناية بنفسه ، وانقلب الليل عنده نهارا ، وفقد أحساسه بالزمن ، منـذ ان فارقته « لارا » .. وكلما محا ما كتب ، وأعـاد كتابتـه من جديد ، زادت شخصـية « لارا » ــ كما تبدو فى قصصـه وخواطره ــ ابتعادا عن «لارا» كما هى فى حقيقتها ، « لارا » ــ أم « كاتيا » ــ التى رحلت مع ابنتهـا . وسبب المحـو والاعادة هو سعيه للاهتداء إلى تعبير قوى محـدد ، ولكنـه منبعث أيضا من رغبة الكتمان التى تصده عن أن يفضح تجاربه

الذاتية وحقائق ماضى حياته ، فى حرية قد تجرح من يتناولهم بالذكر . ولذلك تملصت قصائده من احضان الحقيقة وانفاسها الملتهبة ، وبدلا من أن تفقد هذه القصائد نبض الحياة ، وتقع فريسة لأوهام عليلة ، فإنها اصبحت تنم عن السلم والمصالحة والوئام ، وترتفع عن الخصوصيات إلى عموميات يفهمهـا الجميع . ولم تكن هذه غايته ــ يسعى إليها عن عمـد ــ بل تحققت له طواعية منها ، كأنها رسالة عزاء تبعث بها «لارا» إليه من رحلتها ، أو بمثابة تحية من بعيد ، او كأنها طيفها فى المنام ، او لمسة رأسها لجبينه .. وسره أن راى هذا السمو يتجلى فى شعره . إنه مشغول بنظم قصائده التى يتحسر فيها على « لارا » ، وفى الوقت ذاته يضيف جديدا على المذكرات التى كان يحررها ــ على فترات متقطعة فى المـاضى ــ عن الطبيعة وحياته يوما بيوم ، واشياء اخـرى . وهبطت على ذهنه ــ كما كان يحدث له من قبل ، حين يكتب ــ افكار عن حياة الفرد والمجتمع .

واخذ يفكر كيف انه حين يتأمل التاريخ أو سير التاريخ ــ كما يقال ــ لا يفهمه بالمعنى الشائع بين الناس ، بل يفهمه على صور وتشبيهات مستمدة من مملكة النبات : فغصـون الأشجار العارية فى الغابة ، حين تتجرد من كسائها ، تبدو تحت الثلج تعانى النحول والفاقة ، كالشـعر الضئيل على شامة فى وجه شيخ .. فاذا بها بعـد أيـام قليلة من الربيع تتحول وتمتد فى ثراء منطلقة إلى السـماء ، حتى ليسـتطيع السائر ان يختبىء او يضيع بين خضم أوراقها .. فالغـابة

— وهى تتحول — تنمو بسرعة تفوق سرعة نمو الحيوان ، لأن الحيوان لا ينمو بسرعة النبات . ومع ذلك فان هذا النمو يحدث دون أن تلحظه العين ، فان الغابة مشدودة إلى الأرض بجذورها ، لا تبرح مكانها ، فلا نستطيع أن نمكث أمامها نرقب نموها ونراه حين يحدث . فهى — مهما اطلت النظر إليها — مستقرة لا تحس لها دبيبا . وهكذا حياة المجتمع فى نموها الأزلى وتحولها الدائب : تبدو لنا مع ذلك ثابتة لا خطو لها شأنها فى ذلك شأن التاريخ فى تحوله الدائم غير المحسوس . هذا هو أيضا رأى « تولستوى » ، وإن لم يعبر عنه بمثل هذا التفصيل . إنه أنكر أن يكون التاريخ من صنع نابليون أو حاكم أو قائد غيره ، ولكنه لم يرتب على هذا المنطق نتائجه . إن التاريخ لا يصنعه أحد ، وأنت لا تستطيع أن تصنع التاريخ ، وتعجز عن أن ترى تحوله ، كما تعجز عن رؤية نمو أوراق الشجر . إن الحروب والثورات والملوك والدعاة — أمثال « روبسبيير » — هم عناصر النمو العضوى للتاريخ ، هم بمثابة الخميرة للعجين . أما الثورات فمن صنع رجال مدفوعين بالتعصب ، تسيطر عليهم فكرة واحدة ، رجال عمل وإقدام ، يصل بهم ضيق ذهنهم إلى مرتبات النبوغ . إنهم يقلبون النظام القديم فى ساعات وأيام قليلة ، وزلازل الثورة تدوم بضعة أسابيع ، أو قل بضع سنين على الأكثر ، ومع ذلك يمضى الناس جيلا بعد جيل ، بل قرنا بعد قرن ، وهم يعبدون — عبادتهم لصنم مقدس — هذه الفكرة الضيقة التى بعثت الثورة .

كان « يورى » يتحسر على « لارا » كما يتحسر على ذلك

الصيف البعيد فى (ميلوزييفو) ، حين هبطت الثورة هبوط إله من السماء على الأرض .. فاصبح لكل فرد ما يهوى من جنون . حياته ملك خالص له ، لا تعتسف لتتخذ دليلا على نظرية تؤيد السياسة العليا .

وجعلَ يسجل خواطره المتناثرة ، ويضيف إليها فقرة تعبر عن إيمانه بأن الفن يهب نفسه دائما لخدمة الجمال ، وأن الجمال هو سعادة امتلاك الشكل ، وأن الشكل هو مفتاح الكيان العضوى ، إذ لا يستطيع كائن حى أن يتخلق بغير الشكل ، ولذلك فان جميع فروع الفن — ومن بينها فن المأساة — تعبر عن الجذل بالحياة والوجود .

وتناوبته هواجس أخرى فى ذلك الأسبوع .. وفى ليلته الأخيرة استيقظ من نومه اثر كابوس مخيف ، رأى فيه تنينا يتخذ حجرة تحت المنزل ، ففتح عينيه .. وفجأة لمع خارج الدار ضوء ، ووصله صدى إطلاق الرصاص . ومن العجيب أنه لم تمض بضع دقائق على هذا الحادث المفاجىء ، حتى استغرق فى النوم من جديد ، وقال لنفسه فى الصباح أنه رآه فى حلم !

— ١٥ —

أما الذى حدث بعد أيام قليلة ، فهو أن « يورى » قرر أخيرا أن يميل إلى الفطنة والحجى ، ورأى أنه إذا أراد الانتحار فخير له أن يبحث عن وسيلة أخرى أسرع وأقل ألما ! وعاهد نفسه أن يرحل فور وصول « سامديفياتوف » .

وقبل الغسق بقليل، والضياء يجرر اذياله ، سمع صدى صوت تكسر الثلج تحت وقع اقدام إنسان يتجه إلى المنزل فى رباطة جاش ، له خطوات منطلقة واثقة . هذا عجيب ! من عسى ان يكون القادم ؟ إن « سامديفياتوف » يستعين بحصانه ولا يأتى سيرا على الأقدام ، و (فاريكينو) مهجورة لا يسكنها احد . وقال « يورى » لنفسه : « إنه رسول قادم يحمل إلى طلبا او امرا بالعودة إلى المدينة ، او لعلهم بعثوا بمن يقبض على . ولكن لا اظن ذلك ، فلو كان ذلك مقصدهم لبعثوا برجلين لا برجل واحد ، ولبعثوا بعربة تنقلنى » . ثم جعل يقول لنفسه فى فرح : « إنه « ميكوليتسين » لاريب » . وخيل إليه انه عرف وقع خطوه . ووقف القادم — لا يتبين بعد من هو — عند المدخل يتحسس مكان القفل المخلوع ، كأنما يتوقع أن يجده حيث كان من قبل . ثم دخل بخطى ثابتة بطيئة ، لا يخطىء الطريق ، يفتح الأبواب بين الحجرات ويغلقها وراءه بعناية . وكان « يورى » جالسا إلى مكتبه وظهره إلى باب الحجرة ، وحين قام ليستدير ويواجه الباب ، وجد الرجل الغريب قد وصل إلى عتبة الباب وتسمرت قدماه فى ارضها .

كانت اول كلمات وردت على خاطر « يورى » — دون أن يكشف فيها عن نفسه — أن قال له متلعثما : « ماذا تريد ؟ » ، ولم يدهش حين لم يجد منه جوابا على سؤاله . وكان القادم الغريب رجلا قوى الجسم ، متناسق الاعضاء ، وسيم الوجه ، يرتدى حلة وبنطلونا من الفرو ، وفى قدميه حذاء من جلد الماعز ، وعلى كتفه بندقية .

وقد دهش « يورى » لمفاجأة الدخول عليه ، لا لقدوم الرجل ذاته . فان دلائل سكن إنسان فى المنزل قد اعدته لتوقع قدومه . إن هذا الرجل هو — بلا ريب — صاحب المؤن التى وجدها ، وقد ادرك انها ليست من مخلفات أسرة « ميكوليتسين » . ولكن شيئا ما فى الرجل يحدثه بأنه ليس غريبا عليه ، وانه سبق له أن رآه . وكذلك لم يدهش الرجل لرؤية « يورى » كما كان متوقعا ، فلعله سمع من إنسان بنبأ احتلال المنزل ، وربما سمع ايضا باسماء شاغليه ، او لعله تعرف على « يورى » .

واخذ « يورى » ينقب فى ذاكرته : من يكون ؟ من يكون؟ اين رايته ؟ . فى صباح يوم قائظ من شهر مايو — والله أعلم من اى سنة — فى محطة (رازفيلى) ، فى عربة القوميسار التى توجس منها شرا .. ذكريات عن افكار قاطعة لا تقبل الجدل ، وذهن يطل من نافذة واحدة ، ومبادىء صارمة ، وايمان لا حد له بانه على صواب . آه .. إنه « ستريلنيكوف » !!!

— ١٦ —

ومضت ساعات طويلة وهما مستغرقان فى الحديث بلهفة يختص بها الروس وحدهم فى بلادهم، يزيدها ان حديثهم اصبح فى تلك الأيام العصيبة المخيفة حديث اناس يتملكهم اليأس والفزع . وكان « ستريلنيكوف » يماثل بقية الناس فى هذه الإفاضة فى الحديث بدافع القلق ، إلا انه كانت لديه اسباب اخرى تحمله على الكلام بغير انقطاع ، لا يقف هديره ،

ويتلمس كل المعاذير للمضى فى الكلام : انه يخشى ان ينفــرد
بنفسه ، فهل هو خائف من عذاب ضميره ، أم من الذكريات
المحزنة التى تلاحقه، أم يعذبه الحنق علىالنفس ـ هذا الحنق
الذى يجعل الإنسان يكره نفسه ولا يصفح عنها ، حتى ليرحب
بالموت من شدة الخزى ـ أم انه اتخذ قرارا مخيفا لا رجعة
فيه ويابى ان يخلو بنفسه إليه وجها لوجه ، فهو يتلهف على
وسيلة لتأخير تنفيذه بأن يظل يتحدث إلى « يورى » ويبقى فى
صحبته ؟ مهما يكن من أمر ، فلم يعد خافيا ان « ستريلنيكوف »
يضــمر سرا خطيرا يثقل كاهله ، وانه يحول الحــديث إلى
موضوعات أخــرى يفتح لها مغاليق قلبه ويفيض فى الحديث
بلا توقف !

وكان من العلامات المميزة لعهد الثورة وجنونها انتشار
وباء من نوع جديد ! فكل إنسان أصــبح قلبه يختلف تمــام
الاختلاف عن لسانه وأسارير وجهه ، وما من إنسان يخلــو
ضميره من التلوث ، فكل واحد يشعر بانه مذنب مسئول عن
كل شيء ، وانه مخادع ، وانه مجــرم متخف لم يقع بعــد فى
قبضة العدالة . وكانت أهون تعلة ، تكفى لأن يندفع الرجــل
فيبالغ فى تعذيب نفسه وتقريعها . . وأن الناس ليتحدثون عن
انفسهم بالسب وتوجيه الاتهامات ، لا عن رعب، بل متطوعين
من تلقاء انفسهم ، يحملهم على ذلك دافع مدمــر وليد ذهن
منحرف ، كأنهم منومون يسبحون فى عالم آخر تسوقهم شهوة
اتهام النفس والانحاء عليها باللوم ، وهى شــهوة إذا انطلقت
فهيهات ان تكفكف بعد ذلك .

وكان « ستريلنيكوف » من رجال الجيش ، تؤهله رتبته
لرياسة المحاكم العسكرية . وقد قرأ بلا ريب اعترافات كثير
من المحكوم عليهم وشــهاداتهم . وها هو الآن قد تملكه حافز
يدعوه لأن يخلع القناع ، وان يعيد تقييم حياته ، وان يســجل
حساب ما له وما عليه . . يفعل كل هــذا فى مبالغة تشــوه
الحقائق ببشــاعة ، من اثر هياجه المحمــوم . كان كــلامه
بلا روابط ، يقفز من اعتراف إلى اعتراف . كان يقول :

ـ حدث كل هذا بالقرب من « شيتا » . ربما ادهشتك
هذه الأشياء العجيبة التى وجدتها فى الأدراج . لقد حصلت
عليها من المصادرات التى قمنا بها حين احتل الجيش الأحمر
سيبيريا الشرقية . وطبعــا لم أجازف بحملهــا انا نفسى إلى
هنا ، إذ كان من حولى دواما أناس يوثق بهم وباخلاصــهم ،
بفضلهم سهلت على الحياة وطابت . هذه الشموع والكبريت
والبن ولوازم الكتابة وغيرها ، كلها من المخازن العســكرية
التى صادرناها ، بعضها من صنع تشيكوسلوفاكيا وبعضها
من صنع إنجلترا واليابان . هذا عجيب . اليس كذلك ؟ لعلك
لاحظت ان عبارة « اليس كذلك » كانت تتكرر عادة على لسان
زوجتى ، إننى لم اكن ادرى هل اخبرك بسرى حين وصلت
ام لا اخبــرك ، ولكن دعنى افض به اليك الآن . اننى جئت
لأراها وارى ابنتى ، لم يصلنى خبر وجودهما هنا إلا فى وقت
متأخر ، ولذلك لم تتح لى رؤيتهمــا . وحينمــا علمت ـ من
الشــائعات وأقوال الناس ـ انك كنت معهمــا ، وذكــر لى
اسمك ، لا ادرى لمــاذا من بين آلاف الوجوه التى رأيتها هذه

السنين تذكرت من فورى الدكتور « جيفاجو » الذى قدم لى ذات يوم لمحاكمته ..

— واسفت إن لم تحكم عليه بالاعدام رميا بالرصاص ؟

وتجاهل « ستريلنيكوف » هـذا السـؤال ، ولعله لم يسمعه . واستطرد يقول وهو غارق فى افكاره :

— لا ريب أن الغيرة تملـكتنى ، وما زالت ، وهـذا طبيعى . إنى لم آت إلى هذا الإقليم إلا منذ اشهر قليلة ، بعد ان اكتشفوا اماكن اختبائى فى جهـات شرقيـة بعيدة . كنت سأقدم لمحكمة عسكريـة بتهمة باطلة ، ولم يكن من العسير ان أتكهن بالنتيجة ! وكنت بريئـا ! فرجوت أن تتـاح لى فى المستقبل — حين تنصلح الأحوال — فرصة ادافع فيهـا عن نفسى وابرىء سمعتى ؛ ومن ثم قررت الاختبـاء — ما دمت قادرا عليه — قبل ان يقبضوا على . وانـا اعيش فى الوقت الحاضر متخفيا ، كأنى ناسـك يتجول من مكان إلى مكان ، ولعلى كنت استطيع ان انجح فى خطتى لولا شاب وغد استلب ثقتى وخاننى . حدث هذا وانا أهرب إلى الغـرب ، عبـر سيبيريا ، أمشى على قدمى فى الشتاء ، اتجنب الناس واعانى الجوع ، أنـام تحت عواصـف الثلوج او انام فى عربـات القطارات ، فهى تقف فى صفوف لا نهاية لها تحبسها الثلوج على طول الشريط الممتد عبر سيبيريا .. وحينئذ قابلت هذا الفتى المتشرد . قال لى إنه كان ضمن جماعـة وقفوا لتنفيذ الحكم بإعدامهم بالرصاص على يد الثوار ، ولكنه لم يصـب إلا بجراح ، وزحف من تحت اكوام الجثث واختبأ فى الغابة حتى

وتجاهل « ستريلنيكوف » هذا السؤال ، ولعله لم يسمعه .

اندملت جراحه ، ثم بدأ ينتقل من مخبأ إلى مخبأ كما كنت أفعل . هذه هى قصته كما زعم .. لكنه كان خبيثا شريرا جاهلا ، طردوه من المدرسة لكسله .

وكلما أضاف « ستريلنيكوف » جديدا فى وصفه للفتى ، ازداد إيمان « يورى » بأنه يعرفه ..

— أكان اسمه « تيرينتى جالوزين » ؟

— نعم .

— إذن فكل أقواله عن الفرار وحكم الإعدام كانت صادقة ، إنه لم يخترع كلمة واحدة .

— كانت فضيلته الوحيدة وفاؤه لأمه . لقد قبضوا على أبيه كرهينة ثم أعدموه ، وكانت أمه فى السجن ، قد ينتظرها نفس المصير .. فلما عرف ذلك بذل غاية جهده لإنقاذها . فذهب إلى إدارة البوليس السرى (التشيكا) حيث سلم نفسه وتطوع لخدمتهم ، فرضوا أن يمدوا له فى حبل الحرية قليلا ، ولكن بشرط أن يأتى لهم بصيد ثمين ، فدلهم على مخبئى ، ولكن لحسن الحظ كنت قد فررت منه قبل ذلك ! .. وبعد جهود شاقة ومغامرات لا نهاية لها ، اجتزت سيبريا وجئت إلى هذا الإقليم — فاننى معروف هنا فلا يدور ببالهم اننى أجرؤ على المجىء ! — وهكذا ظلوا يقتفون أثرى طويلا فى منطقة « شيتا » ، فى حين كنت اختبىء هنا ، أما فى هذا المنزل أو فى منازل أخرى أعرف أنها مأمونة . أما الآن فقد بطل تدبيرى ، فقد لحقوا بى .. اصغ إلى ، ها هو الليل يقترب ، وإنها لساعة لا أحبها . إننى لم أقو على النوم منذ عهد طويل ،

ولا بد أنك تدرك هذا العذاب . هل بقى شىء من شموعى ؟ إنها شموع جيدة غير مغشوشة ، أليس كذلك ؟ هل نستطيع أن نطيل جلستنا ونتحدث ، بقدر ما تحتمل السهر ، ونتمتع بالليل على ضوء الشموع ؟

— إن الشموع باقية كلها ، لم افتح إلا رزمة واحدة ، فقد كنت استعين بالزيت الذى وجدته هنا .

— هل لديك خبز ؟

— كلا .

— بماذا كنت تقتات ؟ يا له من سؤال سخيف .. بالبطاطس وحده بطبيعة الحال .

— صدقت . أطلب منه ما تريد ، فان أصحاب هذا البيت كانوا مدبرين يحسنون خزن البطاطس ، فهى باقية فى القبو سليمة صالحة للأكل ، لم تتعفن أو تتحجر بفعل البرد .

— ١٧ —

واستطرد « ستريلنيكوف » :

— هذا الكلام لا يعنى عندك شيئا ، فإنك لا تستطيع فهمه . لقد نشأت أنت على نمط مختلف . كان ذلك عهد الضواحى المهدمة ، والمساكن الفقيرة كالحظائر ، ومستعمرات منازل العمال ، والقذارة والفاقة والزحمة ، وامتهان كرامة الإنسان عند العامل ، وامتهان النساء .. وبجانب كل ذلك كان هناك أولاد مدللون ، وطلاب متأنقون ، وسلالة أثرياء التجار .. عهد من الفجور ، من الرذيلة السافرة الوقحة ..

اغنياء يهزءون او يستخفون بدموع الفقراء ، مسلوبى الحقوق، الذين تصب عليهم الاهانات وتحاك لهم حبائل الاغراء والخداع .. ناهيك بسيطرة الطفيليين ، الذين تنحصر ميزتهم الوحيدة فى انهم لا يابهون بشىء قط ، ولا يهبون للدنيا شيئا ولا يخلفون وراءهم اثرا ! اما بالنسبة لنا فالحياة جهاد . لقد فعلنا الأعاجيب من اجل من نحبهم ، فاذا كانوا لم يغنموا منها إلا الأسى فاننا لم نقصد قط أن نصيبهم بأدنى اذى ، ولعل الحسرة التى احسسنا بها نحن كانت تفوق حسرتهم ..

« ولكنى اجد من واجبى — قبل ان امضى فى كلامى — ان اقول لك شيئا واحدا : ينبغى لك ان تغادر « فاريكينو » ، لا تؤجل عزمك إن كنت مبقيا على حياتك ! انهم يطبقون على ، وسيرتبط مصيرك بمصيرى ، بل انت اصبحت الآن عندهم متهما ، لا لشىء إلا لأنك تحدثت معى اليوم ، هذا بالاضافة إلى انتشار الذئاب هنا ، وقد اضطررت وانا اشق طريقى من (شوتما) أن اطلق الرصاص عليها .

— كان هذا إذن إطلاق الرصاص الذى سمعته ؟

— نعم ، لا شك انك سمعته ، كنت متجها إلى مخبأ آخر ، ولكنى قبل ان ابلغه ادركت من إشارات متفق عليها انهم اهتدوا إليه ، ولعلهم أعدموا اصحاب ذلك المنزل . إننى لن أمكث معك طويلا ، سأبقى الليلة وارحل فى الصباح .. فلأمض فى الحديث إذا اذنت لى :

« .. على أن ما ذكرته لك إنما كان شائعا فى كل الأقطار ، لم تكن موسكو او اوطاننا تنفرد وحدها باحتوائها

على شوارع للرذيلة ، يخالطها شبان فاسدون همهم اناقة البنطلون وإمالة القبعات على الرؤوس ، بالمال يستأجرون الفتيات وبالمال يستأجرون العربات . إن مثل هذا الشارع ، وحياة الليل فى القرن الماضى ، والمراهنات على سباق الخيل ، وعصابات المجرمين ، وكل هذا كان موجودا فى كل بلاد العالم . لا تنكر وجود كل هذا ، ولكن العلامة التى اختص بها القرن التاسع عشر — والتى ميزته كفترة تاريخية هامة فى سير الزمن — كانت بلا شك مولد الفكرة الاشتراكية .

« لقد نشبت خلاله ثورات .. شبان انكروا ذواتهم واستشهدوا على المتاريس ، ورجال صحافة كان همهم الوحيد ان يجدوا علاجا يكبح جماح المال ووقاحته البشعة ، وكيف تصان كرامة الفقير .. ونهضت الماركسية تكشف بذور الشر ، واتت بالعلاج ، فاصبحت القوة الكبرى فى هذا العهد . لم يكن شارع الفساد علامة الفساد وحده ، بل اصبح علامة القذارة والبطولة .. اصبح رمزا لعالم الرذيلة والفقر ، والثورة والقتال من اجلها !

.. واستطرد « ستريلنيكوف » يتحدث عن زوجته « لارا » :

— آه ! انت لا تدرى كم كانت جميلة وهى صبية ما تزال فى المدرسة . كانت تأتى لزيارة زميلة لها فى الفصل تقطن فى منزل بجوارنا ، اغلب سكانه من عمال السكك الحديدية على خط «بريست ليتوفسك» . (هكذا كان يسمى، وقد تبدل اسمه بعد ذلك مرارا) . وكان ابى — وهو الآن عضو فى محكمة الثورة بـ « يورياتين » — مقدم عمال فى

محطة . وكان من عادتى أن أذهب إلى ذلك المنزل واراها هناك . كانت لا تزال صبية غريرة ، ولكن وجهها وعينيها كانت تنطق حتى فى تلك السن بما يسود تلك الأيام من ترقب ، وانتباه ، وقلق . وكانت دلالات العصر كلها : الدموع ، والإهانات ، والآمال ، والحقد المبيت ، وجراح الكبرياء ، كلها كانت تنم عنها ملامحها ، ومشيتها ، وسلوكها ، إذ تجمع بين خفر العذراء والدلال والجراة . كان اسمها وكلامها بمثابة عريضة اتهام موجهة للعصر كله . ولعلك توافقنى على أن ذلك لم يكن امرا تافها لا يستهان به ، وإنما كان نذيرا من نذر القدر . كان هبة من الطبيعة توهب للشخص منذ مولده !

— كم تحسن الحديث عنها ! لقد رايتها انا ايضا فى تلك الأيام ، فكانت كما وصفتها : فتاة غريرة ما تزال فى المدرسة ، وهى فى الوقت ذاته بطلة مأساة خفية . كانت آية ناطقة بمعانى العجز والاحتراس والتأهب للدفاع عن النفس ، هكذا رايتها ، وهكذا لا ازال اذكرها . لقد وصفتها انت على حقيقتها .

— تقول رايتها وتذكرها ، فماذا كانت جدوى ذلك ؟

— هذه مسالة اخرى .

— إذن دعنى أقل لك ، ان القرن التاسع عشر بما شهده من ثورات فى باريس ، وخروج اجيال متتابعة من المهاجرين من روسيا — فى مقدمتها هجرة «هيرزون» — ومن قتل للقياصرة ، بواسطة اناس يقفون عند حد التآمر واناس يتم على يديهم التنفيذ .. ومن نشوء الحركة العمالية العالمية ، واندلاع

الماركسية فى برلمانات أوروبا وجامعاتها ، ومن نشوء نمط جديد للفكر يمتاز بالجدة والمضى السريع إلى النتائج ، كما يمتاز بسخريته وبابتكاره — باسم الشفقة ! — عالما لا يعرف الرحمة .. كل هذا قد تجمع فى « لينين » وتمثل فى شخصه وتضمن كلامه دستوره المعبر عنه ، الذى يحل بالعالم كأنه عقاب له على آثامه ! وارتسم « لينين » لأعين العالم كله على لوحة فسيحة بلا حد — هى روسيا ، تتناهبها ألسنة النيران — ليهبط على العالم ضياء يعبر عن خلاصه من المحن والآلام . ولكن لماذا اقول لك هذا الكلام ؟ انت لا شك تراه هراء ..

« .. من اجل هذه الفتاة كرست نفسى للدراسة ، واصبحت ناظر مدرسة ، وخرجت اضرب فى أرض مجهولة حتى بلغت (يورياتين) . ومن اجلها التهمت الكتب وعرفت الكثير من العلم ، لاكون رهن اشارتها ، ذا نفع لها إن احتاجت إلى معونتى . وتطوعت فى الجيش لأستعيدها إلى بعد ثلاث سنوات من زواجنا . ولما انتهت الحرب وعدت ، أردت استغلال الإشاعة التى اكدت نبا موتى لكى اندفع فى الثورة تحت اسم مستعار .. لكى انتقم اتم انتقام لكل ما حل بها من غدر وآلام ، وان امحو عن ذهنها كل ذكرياتها الحزينة، حتى لا يكون للماضى والفساد رجعة . وكانت هى وابنتى طوال ذلك الوقت غير بعيدتين عنى هنا . اى جهد بذلت لكى اكبح جماح رغبتى فى ان انطلق إليهما واراهما ! ولكنى اردت ان اتم رسالتى فى الحياة اولا . وإنه لتهون الآن على كل تضحية من اجل ان يتاح لى ان القى عليهما ولو نظرة واحدة .

كانت إذا هلت على احسست ان النوافــذ قــد انفتحت على مصراعيها ، وغمرنى الهواء والنور .

— اعرف كم كنت تحبها ، ولكن اعذرنى إذا سألتك عن مبلغ حبها لك .

— عفوا ! ماذا قلت ؟

— سألتك عن مبلغ حبها لك . اهو حب لا تكنه لإنسان آخر ؟

— ما الذى يدعوك إلى هذا القول ؟

— لانها اخبرتنى عنه هى بنفسها .

— قالت هذا لك انت ؟

— نعم .

— معذرة ، اعلم ان سؤالى غير مستساغ ولا مقبول ، ولكنى أرجو الا تعتبرنى متطفلا إذا سألتك ان تخبرنى بما قالته لك بغير تحريف .. !

— بكل سرور . قالت إنك كنت إنسانا نموذجيا لم تقابل مثله من قبل . وإنك كنت فريدا فى إخلاصك ، وإنه لو اتيح لها ان تعود إلى المنزل الذى عاشرتك فيه ، لاقبلت إليـه تسعى من نهاية الأرض زحفا على ركبتيها ! .

— اغفرى لى مرة اخـرى ، لست اريد أن امس مكنـون نفسك ، ولكن اخبرنى فى اى ظرف قالت لك هذا الكلام .

— ذات يوم ، حين كانت ترتب هذه الحجرة ، وخرجت إلى الباب لتنفض السجادة .

— عفوا ، إذا ازعجتك بسؤال آخر : اى سـجادة ؟ عندنا سجادتان .

— هذه السجادة ، الكبرى .

— إنها اثقل من ان تحملها وحدها ، فهل ساعدتها انت ؟

— نعم .

— امسك كل منكما بطـرف ، ثم .. تميـل هى إلى الوراء ، وترفع ذراعها كأنها تطوح بها ، وتشيح بوجههـا عن التراب المنبعث ، وتزر عينيها وتضحك .. اليس هـذا ما حدث ؟ كم أعلم طباعها ! .. ثم مشى كل منكما نحو الآخر تطبقان السجادة إلى نصفين ، ثم إلى ربعين ، وهى تضحك وتعابثك .. اليس كذلك ؟

وهنا نهض الرجلان ، فمضى كل منهما إلى نافذة وصوب نظره ناحية الآخر ، وبعد برهة تقــدم « ستريلنيكوف » إلى « يورى » وامسك يديه وضمهما إلى صدره ، ثم مضى يتحدث مسرعا كما كان يفعل من قبل :

— اغفر لى ، أعلم اننى امس مواضيع هى عندك عزيزة مقدسة ، ولكنى اود ان اسألك اسئلة اخرى ، إن سمحت . ارجوك أن لا تذهب ، لا تدعنى وحدى . سأذهب انا بنفسى سريعا . فكر ، ست سنوات من الفراق ، ست سنوات من الصبر . ولكنى كنت احلم بأن الحرية لم تكتسب بعد كلهـا ، وقد قلت إننى حين اكسبها ستفك الاغلال عن يدى واصـبح

انا ملكا لهذه الأيدى ، ولكن خاب فالى كله ، فانهم سيقبضون على غدا ، وانت قريب منها عزيز لديها ، فلعلك ستراها يوما ما . ولكن ماذا اقول ؟ إننى مجنون . إنهم سيقبضون على ، ولن يسمحوا لى بأن افتح فمى بكلمة واحدة للدفاع عن نفسى ، سيأتون إلى هائجين شاتمين ثم يكممون فمى ، إنى أعرف كيف يفعلون !

— ١٨ —

.. واخيرا ، نهض « يورى » لينام ، ولأول مرة حدث له انه ما كاد يرقد حتى اطبق الكرى على جفنيه . اما « ستريلنيكوف » فبقى يقظان .. وكان « يورى » قد هيا له مرقدا فى الحجرة المجاورة .

وكلما فتح « يورى » عينيه ، وهو يتقلب فى فراشه او يجمع الغطاء المتدلى إلى الأرض ، أحس بالعافية التى يبعثها نوم هادىء عميق ، واستغرق من جديد — بلذة كبرى — فى الكرى . وراودته فى النصف الثانى من الليلة احلام قصيرة ، واضحة ، غنية بالتفاصيل ، تعيد له صور طفلته ، حتى ليظن الحلم حقيقة ! .. من ذلك انه رأى فى الحلم لوحة مرسومة بألوان الماء من عمل امه ، تصور شاطىء نهر فى إيطاليا ، تخلع فجاة من على الجدار وتسقط على الأرض ، فيوقظه صوت الزجاج حين تحطم، فيفتح عينيه ويقول : « لا ، ليس ما حدث هو سقوط اللوحة ، بل هو « ستريلنيكوف » زوج « لارا » يروع الذئاب فى (شوتما) بطلقات الرصاص . ولكن هذا غير

معقول ، لا بد انه صوت سقوط اللوحة ، وها هو زجاجها متناثرا على الأرض » . يؤكد ذلك لنفسه وهو مستغرق فى الحلم !

واستيقظ وهو يحس بصداع ، لأنه افرط فى النوم . ومضت به برهة لا يدرى من هو ، او فى اى عالم يعيش . ثم عادت له ذاكرته وقال لنفسه : « ستريلنيكوف » أمضى الليل هنا . إن الوقت متأخر وينبغى ان أرتدى ملابسى ، إنه لا شك قد غادر فراشه ، وإلا فانى سأوقظه وسأعد القهوة ونشربها معا » .

ونادى صائحا :

— بافيل بافلوفيتش !

فلم يسمع جوابا . إذن فهو لا يزال نائما ، إن نومه عميق .

وارتدى « يورى » ملابسه ودخل الحجرة المجاورة . إن قبعة « ستريلنيكوف » — التى هى على نمط قبعات اهل القوقاز — موضوعة على المنضدة ، اما « ستريلنيكوف » نفسه فلم يكن فى المنزل . وقال « يورى » لنفسه : « إنه خرج يتريض ، عارى الرأس ، طلبا للمناعة من البرد . ينبغى أن اودع اليوم (فاريكينو) واعود إلى المدينة ، ولكن الوقت متأخر فقد نمت طويلا ، وهذا ما يحدث لى كل صباح » .

ثم اشعل « يورى » الموقد فى المطبخ ، واخذ دلوا ومضى إلى البئر ، ولكنه لم يكد يخطو بضع خطوات مبتعدا عن سلم المدخل حتى فوجىء بجثمان « ستريلنيكوف » ممددا — بالعرض — على الأرض ، وراسه غارق فى الثلج .. لقد انتحر ! .. وتكور الثلج المشرب بالدم تحت صدغه الأيسر ، على حين انعقدت كرات دم صغيرة فى كل جانب ، اشبه شىء بثمار العناب المثلجة ..

الفصل الخامس عشر

الخاتمة

— ١ —

لم يبق ما يحكى إلا قصة قصيرة عن الثمانى او العشر سنوات الأخيرة من حياة (الدكتور) جيفاجو ، وهى السنوات التى راحت تقربه اكثر فأكثر من الشيخوخة ، وتفقده شيئا فشيئا علمه ومهارته كطبيب وككاتب ، وتخرجه من حالة الركود فيستأنف عمله ، ليعود فيقع فى فترات طويلة من عدم الاهتمام بنفسه وبكل ما فى الدنيا ، بعد فترة قصيرة توهج فيها نشاطه . وفى خلال هذه السنوات تفاقم عليه مرض القلب ، الذى كان قد كشفه — وهو شخصيا — وإن كان لم يدرك فى البداية مدى خطورته .

لقد عاد إلى موسكو فى بداية عهد «السياسة الاقتصادية الجديدة » — أكثر عصور السوفييت زيفا وغموضا — وكان يبدو اكثر نحولا وإهمالا لزيه مما كان حين ذهب إلى (يورياتين) عقب الهرب من أنصار الحزب . وفى خلال رحلته عاد إلى التخلص مما بقى له من ملابس لها بعض القيمة ، مستبدلا إياها بالخبز وبعض الأسمال القديمة يستر بها عريه . وهكذا تخلص من معطفه الفرو وسترته ، ووصل إلى شوارع موسكو وقد ارتدى قبعة رمادية من جلد الغنم ، وحذاء طويلا باربطة ، ومعطفا عسكريا لم يبق به زر واحد ، حتى غدا

اشبه « بعفريتة » السجناء ! .. ولم يكن فى الإمكان تمييزه
وهو فى هذا الزى من الألوف التى لا حصر لها من رجال
الجيش الأحمر الذين ازدحمت بهم محطات المدينة وشوارعها
وميادينها .

ولم يحضر وحده . لقد كان يتبعه اينما ذهب فتى فلاح
وسيم يرتدى هو الآخر الملابس العسكرية ، وقصدا وهما
على هذه الحال إلى تلك الغرف التى قضى يورى فيها سنوات
حداثته بموسكو ، وهناك تذكره القوم ورحبوا به وبرفيقه
(بعد تحريات دقيقة عن نظافتهما وترددهما على الحمام ، فقد
كان التيفوس لا يزال متفشيا) . وسرعان ما قصوا عليه
الظروف التى رحلت خلالها أسرته من موسكو .

وكان يورى والفتى يخجلان إلى اقصى حدود الخجل ،
حتى انهما تفاديا الاندماج بالناس على انفراد ، خوفا من
التورط فى الحديث ، وجرت عادة هذين النحيلين عند ظهورهما
فى اى مجتمع حافل بأصدقاء يورى ، أن ينعزلا فى ركن قصى ،
يمكنهما فيه قضاء السهرة فى صمت دون أن يضطرا إلى
الاشتراك فى المناقشة العامة .

وبدا الطبيب الطويل الهزيل ، وهو فى اسماله البالية ،
يرافقه الغلام أينما سار ، كفلاح « باحث عن الحقيقة » ،
وبدا رفيقه كمريض مطواع او تلميذ كرس نفسه — تكريسا
اعمى — لخدمة معلمه .

ترى من يكون ذلك الرفيق ؟

- ٢ -

قطع يورى المرحلة الأولى من رحلته بالقطار ، وإن كان
قد سار الجزء الأول والأطول من الطريق على الأقدام .

ولم تكن القرى التى مر بها احسن حالا من تلك التى
خلفها وراءه فى سيبيريا والأورال بعد ان ترك انصار الحزب.
كل الفارق ان الفصل كان شتاء هناك بينما اصبح الآن فى
نهاية الصيف وبداية خريف دافىء جاف ، وقد يسر تحسن
الطقس الأمور .

وكانت نصف القرى قد خلت ، وهجرت الحقول فلم تمتد
إليها ايدى الحاصدين ، كما هو الحال عادة بعد غزو العدو .
تلك كانت آثار الحرب .. الحرب الأهلية ! .. وقد سار
« يورى » ثلاثة أيام فى نهاية شهر سبتمبر بمحاذاة شاطىء
النهر الذى يتدفق تياره إلى يمينه ، وإلى يساره كانت الحقول
الشاسعة التى لم تحصد ممتدة إلى مدى الأفق ، تحت غلالة
من السحب المتراكمة . وكلما قطع من الطريق مسافة كانت
تعترضه غابات معظمها من اشجار البلوط والاسفندان
والدردار . غابات تتجه فى أخاديد عميقة إلى النهر ، فتنحدر
عموديا ، قاطعة الطريق . وقد انتشرت حبوب القمح الناضجة
على ارض الحقول المهجورة ، فجمع يورى بيديه حفنا منها ،
وحين كان يتعذر سلقها — فى اسوأ الظروف — كان يلوكها فى
فمه بصعوبة ، كما لو كان يطحنها بأسنانه . وكان يعانى
صعوبة فى هضم هذا العلف الخام نصف الممضوغ !

ولم يسبق ليورى ان راى فى حياته شعيرا بنى اللون داكنه ، صدئا كهذا الشعير الذى حال لونه فأصبح كالذهب القديم المعتم ، بينما العادة جرت — حين يحصد فى أوانه — ان يبدو فى لون أخف من هذا بكثير .

وكانت هذه الحقول التى فى لون اللهب ، كأنها تحترق بلا نار ، وتعلن سخطها فى صمت .. تحدها فى برود سماوات هادئة شاسعة ، على أساريرها معالم الشتاء ، وتظللها سحب الجليد المستطيلة ، الدائمة الحركة ، المعتمة فى وسطها ، البيضاء فى حوافيها ..

وكان كل شىء يتحرك فى حركة دائبة موزونة بطيئة : نهنا النهر المتدفق ، وهنا الطريق يمتد ليقابله ، ويورى يسير على الطريق فى الاتجاه الذى تتحرك نحوه السحب . ولم تك حقول الشعير بلا حراك ، أن شيئا يقلبها ، إنه يملؤها من اولها إلى آخرها بنبش طفيف متواصل ، تقززت به نفس يورى وامعاؤه ! .. لم يسبق أن اصيبت البلاد بطاعون من الفئران مثل هذا ! لقد تكاثرت فى اعداد لا يمكن تصورها ، وبطريقة لم ترها عين من قبل ، إنها تجرى فوق وجه يورى ويديه ، وتدخل اكمامه وبنطلونه فى الليل، حين يفاجئه الظلام، فلا يجد مندوحة عن قضاء ليلته فى الهواء الطلق .. وفى النهار تجدها تتسابق فى عرض الطريق متزاحمة متضاربة ، صارخة تنثر الأوحال إذا وطأتها الأقدام .

.. لقد توحشت حيوانات القرية ، فراحت تتبعه على مسافة قريبة ، وهى تتبادل النظرات كما لو كانت تتخذ قرارا

لاختيار أحسن لحظة للهجوم عليه ، وتمزقه إربا ! .. كانت تقتات على الجيف ، ولا تتورع عن أكل الفيران . وحين لمحت يورى من بعد راحت تتحرك خلفه فى ثقة ، كأنما تنتظر أمرا ما . ولسبب غير مفهوم لم تدخل الغابات مطلقا ، وكلما اقترب من احدها تقهقر ولوى ذيله واختفى !

وكان التناقض كاملا فى تلك الأيام بين الحقول من ناحية والغابات من ناحية أخرى . فالحقول تبدو بعد أن هجرها الإنسان ، يتيمة كأنما أصابها غيابه عنها بلعنة ، ولكن الغابة التى تخلصت منه انتعشت فى كبرياء واخذت حريتها كمن انطلق من الأسر .

ولم تكن الفرصة تترك للبندق حتى ينضج ، فالناس ـ ولا سيما أطفال القرية ـ يتخاطفونه وهو أخضر ، فيكسرون اثناء ذلك غصونا برمتها .. وكانت الغابات فى فصل الخريف قد تكاثفت فوق التلال وفى الأخاديد ، وامتلأت بأوراق الشجر الخشنة وقد بدا لونها الذهبى متربا ، وقفعتها الشمس .. ومن بينها تبرز عناقيد البندق ، كل ثلاثة أو اربعة معا ، كما لو كانت متصلة بشريط يجمعها ، وقد نضجت واستعدت للخروج من قشرتها المتفتحة . وكان يورى يقشرها طوال سيره ، ويملأ بثمارها جيوبه وحقيبته الخوص ، حتى أنه قضى اسبوعا كاملا يعتمد عليها كغذاء .

وقد شعر يورى بأنه رأى الحقول وهى تعانى من حمى خطيرة ، ورأى الغابات كما لو كانت تقضى فترة نقاهة .. لقد احس بأن الله يقيم فى الغابات ، وأن الشيطان يسعى بين الحقول !

— ٣ —

ووصل يورى عند هـذه المرحلة من رحلته إلى قريـة مهجورة محترقة . وكانت البيوت جميعا مصفوفة على الطريق مواجهة للنهر ، وهناك مسافة خالية من المبـانى بين صـف البيوت وحافة شاطىء النهر المنحدر ، ولم يبق منتصبا سوى بيت أو بيتين ، وإن كانا قد اسودا من الحريق ، ولكنها جميعا مهجورة ، أما البيوت الأخرى فلم يبق منها إلا اطلال وحطام ، وقد برزت منها مواسير الأفران .

وكانت المرتفعات المواجهة للنهر مرصـعة بنقر ؛ كان القرويون يقتطعون منها حجارة طواحينهم فتسـاعدهم على مواجهة اعباء المعيشة . وراى يورى ثلاثة من تلك الأحجار لم يتم نحتها ملقاة أمام آخر باب فى صف البيوت ، وهو واحد من القلة التى بقى هيكلهـا قائمـا . ولكن هـذا البيت كان غير مسكون أيضا ، كسابقيه .

ودخل يورى ، وكان مساء ساكنا ، ولكن خيل إليه أن لفحة من ريح شديدة انفجرت فى البيت لحظـة وطأت وقدماه مدخله . وكانت اكوام القش والدريس تملأ الأرض ، وقد تدلت بقايـا الورق الممزق على الجدران ، وبدا الكوخ كله فى حالة اضطراب وخشخشة ، فالفئران قد جلست منه مسرحا لهـا تعيث فيه وتقفز صارخة فى كل اتجاه .

وخرج يورى ، وكانت الشمس تغرب على حافة الحقول خلف القرية ، واشعتها الذهبية الدافئـة تغمر الشـاطىء

المواجه بما عليه من أعشـاب وشجيرات ، ويصل خيالهـا الباهت المنعكس على صفحة الماء إلى منتصف عرض النهر . وعبر يورى الطريق ، ثم جلس على حجر من حجارة الطواحين كان ملقى وسـط الحشائش .. وإذ ذاك راى راسـا كثيف الشـعر اشقر يبرز من حافة الشاطىء ، ثم ظهرت الكتفان ، ثم الذرعان . إن أحدا يتسلق المنحدر حاملا دلو ماء . وحين راى يورى توقف ، ولم يكن يبدو منه سوى الجزء الأعلى حتى الوسط .

هل تريد جرعة ماء ؟ إذا لم تؤذنى فلن الحق بك اذى .

— نعم . أود لو اشرب . ولكن تعال هنا . لا تخف . لمـاذا تتوقع الأذى منى ؟

وكان حامل المـاء صبيا بين العاشرة والعشرين ، حافى القدمين ، منفوش الشعر . رث الثياب . وراح الصبى يحدق فى يورى بعينين قلقتين يملؤهما الشك ، رغم كلمات يورى التى تعبر عن الصداقة . ولأمر ما بدا أن قلقه يتزايد اكثر فاكثر ، واخيرا وضع الدلو على الأرض ، واندفع نحو يورى . ولكنه توقف فى منتصف الطريق ، وراح يتمتم :

— لست .. لا يمكن ان تكون .. لا بد اننى احلم . ايها الرفيق ، أتسمح لى اسالك ؟ لقد خطر ببالى اننى اعرفك .. نعم ! . نعم . ! بكل تاكيد ! الست انت الطبيب ؟

— ومن انت ؟

— الا تعرفنى ؟

— كلا .

— لقد كنا فى القطار ذاته الذى خرج من موسكو ، وفى العربة ذاتها . لقد جندونى لمعسكرات العمل .

إنه « فاسيا بريكين » .. ورمى بنفسه على الأرض أمام يورى وراح يبكى ويقبل يديه ! .. كانت الأطلال المحترقة هى أطلال قريته (فيريتين كى) ، وقد توفيت والدته ، وحين دمرت القرية ، اختبأ « فاسيا » فى كهف بالمحاجر ، وظنت والدته انه اخذ بعيدا عن القرية ، فجنت من الحزن واغرقت نفسها فى النهر ! .. نهر (بلجا) هذا الذى ينساب عند سفح الهضبة التى يجلسان عليها ويتحدثان ، وقيل أن شقيقتيه « آليا » و « آريا » قد التحقتا بملجأ للأيتام فى منطقة أخرى ، ولكنه لم يعلم شيئا مؤكدا عنهما ، وقد شخص إلى موسكو مع يورى ، وفى الطريق تحدث إليه عن فواجع اخرى عديدة .

— ٤ —

— هذا قمح الشتاء الماضى ، انه يضيع هكذا هباء فى الحقول . كنا قد انتهينا لتونا من البذور حين بدأت متاعبنا . وكان ذلك بعد أن ذهبت العمة «بوليا» هل تذكر العمة بوليا ؟

— كلا . إنى لم أعرفها مطلقا . من تكون ؟

— لم تعرف العمة بوليا مطلقا ! لقد كانت معنا فى القطار ! انها تلك السمينة الشقراء ، التى كانت تنظر إلى عينيك مباشرة .

— تلك التى كانت تضفر شعرها ثم تعود فتطلقه ، لتضفره مرة أخرى ؟

— نعم ، تلك السيدة ذات الضفائر .. إنها هى !

— إنى أذكرها . لحظة واحدة ، إنى اتذكرها الآن . لقد قابلتها أخيرا فى إحدى قرى سيبيريا . تقابلنا فى الشارع .

— انت لا تعنى ما تقول ! انت قابلت العمة بوليا !

— إيه .. ماذا جرى لك ؟ لماذا تهز يدى بهذا الشكل ؟ حاذر لئلا تخلعها . ولماذا يحمر وجهك خجلا هكذا كالفتيات؟

— ارجوك ان تحكى لى بسرعة ، كيف حالها ؟ حدثنى .

— كانت بخير حال حين رأيتها . لقد تحدثت عنك وعن أهلك . ألم تقل إنها كانت تعيش معكم ، أم ترانى مخطئا ؟

— نعم كانت تعيش معنا . طبعا كانت معنا ، كانت تعيش معنا ، كانت أمى مغرمة بها كما لو كانت اختها بالضبط . إنها هادئة وعاملة ممتازة . إنها ماهرة جدا فى اشغال الابرة . كانت لدينا وفرة فى كل شىء فى البيت طوال إقامتها معنا . ولكنهم جعلوا حياتها جحيما فى (فيريتين كى) ، بما كانوا يتقولونه عنها ! .. كان فى القرية رجل يدعى «روتين كارلام » ، كان يجرى وراء بوليا ، إنه نمام يسعى بالوشاية ويعيش على الافتراء ! وقد جدع انفه ، ولم تكن هى تهتم حتى بالالتفات إليه ، فحقد على بسبب ذلك ، وراح يتقول الأقاويل عنى وعنها ! وهكذا بدأ كل شىء ، وفى النهاية تركتنا ، تستطيع أن تقاوم، وكان ذلك بداية لمتاعبنا جميعا .. إذ لم تلبث أن وقعت جناية قتل شنيعة فى مكان قريب . قتلت أرملة فى بيت بالغابات بالقرب من (بايوسكوى) . كانت تعيش وحيدة على دخل حقل يقع فى أطراف الغابة . وقد اعتادت الخروج فى حذاء رجالى له أربطة من المطاط . وكان عندها كلب مفترس

ربطته فى سلسلة طويلة . وكانت السلسلة من الطول بحيث يستطيع الكلب أن يدور حول البيت كله . وكانت تسميه « جورلان » . وكانت تقوم وحدها بأشغال البيت والحقل دون مساعدة من احد .. ثم جاء الشتاء الماضى مبكرا قبل أن يتوقعه أحد ، وتساقط الجليد قبل موعده ، ولم تكن تلك السيدة العجوز قد غرست تقاوى البطاطس بعد ، فجاءت إلى (فيريتين كى) وقالت لى : « ساعدنى وسأدفع لك أجرك نقدا ، أو أعطيك نصيبا من البطاطس . » .. ووافقت على العمل معها ، ولكنى حين ذهبت إلى الحقل وجدت « كارلام » هناك . لقد اغتصب العملية قبلى ، ولم تهتم هى بإبلاغى ذلك . وما كنت لأشاجره لهذا السبب ، ولذا اشتركنا فى العملية معا . وكان الجو لعينا ، أمطار وثلج وطين وأوحال ، فرحنا نحفر ونحفر .. وكنا نحرق فوهات الحفر حتى نجفف التقاوى على الدخان . ولما انتهينا سوت حسابنا بالحق والعدل ، وتركت «كارلام» يرحل ، ولكنها غمزت لى بعينها ، كأنما تطلب إلى أن أنتظر أو أعود إليها بعد حين !

« ولهذا عدت إليها ، فقالت لى : « إننى لا أريد أن أعطى الفائض للدولة . وأنت فتى طيب ، انى أعلم أنك لن تتخلى عنى أو تقف ضدى ، وأنت ترى أننى لا أخفى عنك شيئا . اننى استطيع أن أنقر الحفرة بنفسى ، ولكنك أعلم بالحالة فى الحقل ، لقد تأخرت جدا وحل الشتاء وأصبحت لا أستطيع معالجة الأمور بنفسى ، فاذا واصلت الحفر لى لن يخلو جيبك » .

« وهكذا نقرت حفرة تصلح كمخبأ ، ضيقة الفتحة

واسعة القاع ، أشبه بالأبريق ، وأشعلنا النيران مرة أخرى فدفأناها وجففناها بالدخان ، وتم ذلك كله وسط عاصفة ثلجية عاتية ، ووضعنا البطاطس فى الحفرة وعدنا فأغلقنا فتحتها بالطين والتراب ، وكانت عملية متقنة إلى أقصى حدود الاتقان ، وبالطبع لم أفتح فمى بكلمة لمخلوق ، حتى أمى وأخواتى .. لا سمح الله !

« ولم يكد يمر شهر واحد ، حتى سرق الحقل ! .. وقال القادمون من (بايوسكوى) ، الذين مروا به ، إن الباب كان مفتوحا على مصراعيه ، وقد نظف كل شىء .. ولم يكن هناك أى أثر للأرملة ! .. كما قطعت سلسلة الكلب « جورلان » واختفى هو الآخر !

« وبعد فترة قصيرة ، أخذ الثلج يذوب ، وكان عيد الميلاد فقد اقترب ، وأمطرت السماء ليلة عيد « سانت بازيل » فمسحت الثلج عن الأراضى المرتفعة ، فصار فى الإمكان أن ترى بنفسك الأرض جرداء . وعاد جورلان إلى الحقل ووجد المكان الذى دفنت فيه البطاطس .. لقد انزاح الثلج كله وأخذت البطاطس تبث جذورها فى الأرض. وراح الكلب يحفر ويحفر وينثر الأرض حوله .. حتى ظهرت أقدام السيدة بارزة من الحفرة ، فى ذلك الحذاء الرجالى ذى الأشرطة من المطاط ، الذى اعتادت أن ترتديه . ما أفظعه منظرا !

« ولقد حزن على تلك الأرملة جميع من كان فى (فيريتين كى) . ولم يشك أحد فى « كارلام » . وكيف يمكن أن يشك أحد فيه ؟ وكيف يمكن حتى أن يخطر بالبال مثل هذا

الأمر ؟ وإذا كان هو الذى ارتكب الجريمة فهل كان يجرؤ ان يبقى فى (فيريتين كى) ، وان يجول فى القرية كعادته ؟ لا بد أنه كان يهرب ، هـكذا فكروا ، لا بد أن يهرب إلى أبعـد مكان يستطيعه بعيدا عن (فيريتين كى) !

ولم يرتح لجريمة الحقل سوى «كولاك» القرية .. إنها فرصتهم لإثارة المتاعب فى القرية ، وهكذا ظنوا ، وقالوا :

ــ هذا ما فعله اهالى القرية بكم. لقد فعلوا ذلك كدرس لكم وتحذير حتى لا تخفوا الحبوب وتدفنوا البطاطس ! وانتم تظنون ان قطاع الطريق القادمين من الغابات هم الذين ارتكبوا الجريمة وقتلوها . إنكم مهابيل ! اذهبوا وافعلوا ما يأمركم به رجال القرية ، ان لديهم الكثير مما يخفونه عنكم ، فلسـوف يستولون على كل شىء ويتركونكم تموتون من الجوع . فاذا رغبتم أن تعرفوا ما هو الأصـلح لكم ، فاسـتمعوا إلينا كى نعلمكم بعض الحكمة . حين يأتون ليأخذوا منـكم ما جنيتموه بعرق جبينكم ، قولوا لهم إنه ليس لديكم حبة من الحنطة ، فما بالكم بالفائض ؟ وفى حالة العنف استخدموا فؤوسكم . وإذا وقف واحد ضد إرادة القرية فالأولى به أن يغادرها ! » .

وكان أن تحدث الكبار إلى بعضهم ، وعقدوا اجتماعات قرويـة .. وكان ذلك ما يريده « كارلام » تماما ، فما كان منه الا أن ذهب إلى القرية يحكى قصته ويقول :

ــ احداث بديعـة تجرى فى القرية ! فكيف تتصرفون حيالها ! « لجنة الفقراء » . هذا هو ما نحن فى حاجة إليه . اعطونى كلمة وسأجعلهم يمسكون بخناق بعضهم البعض قبل أن يرتد إليكم طرفكم !

وسار إلى مكان ما ، ولم يظهر مرة اخرى فى نواحينا !

.. وما حدث بعد ذلك ، وقع من تلقاء نفسة هكذا ..

لم ينظمه احد ، ولا يلام عليه احد : بعثوا من المدينـة برجال الجيش الأحمر ،وعقدوا محكمة . وبدءوا بى، وكان ذلك نتيجة لما تقوله « كارلام » عنى . اتهمونى بأننى فررت من الخدمة فى معسكرات العمـل .. واننى الذى قتلت الأرملة العجوز .. واننى الذى اثرت القرية ! هكذا ادعوا على . وحبسونى . ولكن لحسن الحظ ، كان لى من الفطنة ما جعلنى أخلع لوحا من ارضية السجن فتح لى طريق الهروب . واختفيت فى غار فى المحاجر القديمة ، وحرقت القرية بسببى ، ولكننى لم أرها .. واغرقت أمى نفسها فى حفرة فى جليد النهر ، ولم أعلم . حدث هذا كله من تلقاء نفسه هكذا . لقد وضـعوا رجـال الجيش الأحمـر فى بيت وحدهم ، واعطوهم الفودكا ، حتى ماتوا من الشراب .. وفى المسـاء اشتعلت النيران فى البيت نتيجة للاهمـال ، وانتقلت النيران من بيت إلى بيت . ولمـا بدات ، قفز رجال قريتنا من بيوتهم وفروا . ولكن أهالى المدينة ــ ولا تنس ان احدا لم يعرضهم للحريق ــ احترقوا بالطبع حتى الموت . لم يطلب احد من اهالى قريتنا ان يفروا او ان يبتعدوا عن دورهم المحترقة . ولكنهم خافوا أن تصيبهم كارثة اخرى . فقد اشـاع «الكولاك» أن كل عاشر رجل يقبض عليه سيضرب بالنار فورا ، وحين خرجت من الغار كان الجميع قد ذهبوا . لم اجد نسمة واحدة . لقد تشتتوا وتشردوا هنا وهناك ! » .

— ٥ —

وصل يورى و «فاسيا» إلى موسكو فى ربيع عام١٩٢٢ ، حين بدأ تطبيق « السياسة الاقتصادية الجديدة » . وكان الطقس بديعا ، يشيع فيه الدفء . وكانت خصلات من اشعة الشمس تترامى على قباب كنيسة « المخلص » الذهبية ، حتى تصل إلى الميدان الفسيح تحتها ، حيث كانت الحشائش قد نمت فى الفواصل بين بلاط الأرض .

وكان حظر الاشتغال بالأعمال الخاصة قد رفع ، وسمح بعمليات تجارية فى نطاق حدود ضيقة معينة ، وكانت الصفقات تعقد على نطاق صفقات باعة المخلفات والفضلات القديمة ، فأدى الربح الضئيل الذى كان يعود من ورائها إلى تشجيع الاختزان والاتجار فى الأسواق السوداء والمضاربات المالية . ولم تتكون ثروات جديدة من اثر هذا النوع من التعامل . كما انه لم يخلص المدينة من قذارتها وبؤس سكانها ، إذ كانت الأرباح تجنى من وراء تكرار بيع بضائع سبق أن بيعت عشرات المرات !

وقام عدد كبير من اصحاب المكتبات الصغيرة فأنزلوا ما لديهم من كتب عن ارففها ووضعوها على بعضها . ثم ابلغوا المجلس البلدى برغبتهم فى افتتاح مكتبة تعاونية ، وقدموا طلبا لتسليمهم مبنى ، فمنحوا حق استخدام مخزن كان قد خلا منذ الأيام الأولى للثورة بعد ان اغلق المحل الذى يتبعه أبوابه ، فراحوا بين سراديبه الشاسعة يبيعون مجموعاتهم الصغيرة التى جمعوها من هنا وهناك ، بلا ترتيب ولا تنظيم !

وراحت زوجات الأساتذة — اللاتى كن فى الأيام العصيبة الماضية يخبزن الأرغفة البيضاء ، ويبعنها سرا ، مخالفات للوائح — رحن الآن يتجرن فيها علنا فى هذا الحانوت او ذاك من الحوانيت التى استولت عليها الحكومة وتركت خالية طوال تلك السنوات . لقد تغيرن وقبلن الأوضاع الثورية ، حتى انهن أصبحن يقلن « بالتأكيد » عوضا عن «نعم » أو « حسنا جدا » .

وحين وصلا إلى موسكو ، قال يورى :

— عليك ان تعمل اى عمل يا فاسيا .

— احب ان استكمل تعليمى .

— هذا يتم دون ان تتحدث عنه .

— ولى حلم آخر اريد تحقيقه ، ذلك انى اريد ان ارسم صورة والدتى من الذاكرة .

— وهذه أيضا فكرة طيبة ، ولكن ينبغى لتحقيقها ان تعرف كيف ترسم . هل حاولت الرسم من قبل ؟

— عندما كنت صبيا لعمى ، اعتدت ان اعبث هنا وهناك بالفحم ، حين اعرف انه لا يرى ما افعل .

— لست ادرى لماذا لا تحقق حلمك هذا . سنرى ما يمكن عمله فى هذا السبيل .

ولم يبد فاسيا اى نبوغ ذى بال ، كفنان ، وإن كانت لديه مقدرة متوسطة كصاحب حرفة . واستطاع يورى بمعونة اصدقائه ان يلحقه بما كان معروفا باسم « معهد ستروجانوف » ، وهناك تلقى دراسات فى المعلومات العامة ، ثم تخصص فى الطباعة والتجليد وتصميم الكتب .

وكتل يورى وفاسيا جهودهما ، فكان يورى يؤلف كتيبات لا تزيد صفحاتها على الثلاثين ، فى موضوعات متعددة ، وكان فاسيا يجمع حروفها و « يوضب » صفحاتها ويطبعها فى حجم صغير ، كجزء من دراسته العملية فى المعهد . وكانت الكتيبات توزع عن طريق مكتبات بيع الكتب المستعملة التى افتتحها منذ عهد قريب بعض الأصدقاء .

وكانت تلك الكتيبات تحوى فلسفة يورى فى الحياة ، وآراءه فى الطب وتفسيراته للصحة والمرض ، ونظراته فى التطور والنشوء والارتقاء ، ونظريته عن الشخصية كقاعدة بيولوجية لتكوين الأعضاء ، وتأملاته الدينية وتعليقاته التاريخية ، وكانت آراؤه فى عمومها على نسق آراء خاله وآراء « سيما » ، كما كانت كذلك قصائده ، وقصصه القصيرة ، وتخطيطاته عن إقليم (بوجاشيف) الذى زاره . وقد كتبها فى اسلوب حوار سهل ، ولكنها لم تكن ذات حظ من الشعبية ، لأنها عالجت افكارا تقدمية كانت مثار جدل ، لم يتخذ فيها قرار وليس لها سند يثبتها ، رغم انها كانت مليئة بالحياة والأصالة والجدة ، وقد بيعت تلك الكتب فى سهولة ويسر وأثارت اعجاب من قرءوها وقدروا لها قيمتها .

وفى تلك الأيام ، حين كان هناك من تخصصوا فى كل شىء حتى قرض الشعر ، وفن الترجمة الحرفية ، وحين كانت المعاهدات تكتب ، والمعاهد تنشأ لدراسة كل شىء تحت الشمس دراسة نظرية ، بحيث برزت إلى الوجود جميع انواع

ابراج الفكر ، واكاديميات الأفكار الفنية ، كان يورى يعمل كمستشار طبى لنحو نصف هذه المعاهد الزائفة !

واستمرت صداقته لفاسيا وقتا طويلا وكانا يشتركان فى السكن يتنقلان من غرفة إلى اخرى آيلة للسقوط ، وكانت كلها لعينة غير صالحة للسكنى فيها . وبمجرد ان وصل يورى إلى موسكو زار بيته القديم فى شارع (سيفتسيف) ، فقيل له إن اسرته لم تقطن فيه عند مرورها بموسكو ، فقد غير نفيها من مركزها الاجتماعى. واعطيت الغرف التى كانت تشغلها الأسرة لسكان جدد ، واختفت آثار «الأثاث» اختفاء كاملا . وصارت اية صلة بيورى نفسه تعد خطرا ، فبات الجميع يتفادونه كما لو كان طاعونا .

ولم يكن « ماركل » هناك ، لقد خرج إلى الدنيا ، وعين مشرفا على بيت فى (موشنوى جورود) حيث كانت أسرة « سفنتتسكى » تقيم فى الماضى ، وقد وضعت غرفة المشرف تحت امره ولكنه فضل حجرة البواب المسن ، رغم انها لم تكن مبلطة ، وان كانت تضم فرنا روسيا ضخما وصنابير الماء . وكانت مواسير المياه والدفايات التى بالمساكن قد انفجرت ايام البرد الشديد ، ولكن جحر البواب بقى دافئا على الدوام ، وجافا ، والمياه لا تنقطع عنه ..

وجاء وقت بردت حرارة الصداقة بين يورى وفاسيا ، فقد تطور فاسيا بصورة ملحوظة . لم يعد يفكر أو يتكلم كما كان يفكر ويتكلم ذلك الفتى الرث الثياب ، الحافى القدمين ، الاشعث الشعر ، القادم من (فيريتين كى) ، فقد اجتذبته

الحقائق التى اذاعتها الثورة ، بما حوته من وضوح وأدلة ذاتية ، وبهرته ، بينما اصبح كلام يورى فى نظره غامضا خياليا يصدمه ويبدو له فى صورة صوت الخطأ ، المدرك لضعفه ، والذى يتهرب لهذا السبب من مواجهته ..

وكان يورى يتردد على مصالح حكومية عديدة . كان يحاول الحصول على شيئين ، الأول رد اعتبار أسرته سياسيا ، والإذن لأفرادها بالعودة إلى روسيا ، والثانى الحصول على جواز سفر اجنبى لنفسه ، والسماح له بالبحث عنهم فى باريس .

وكان فاسيا يعجب من عدم اكتراثه ، وضعف حماسته فى جهوده . وكان يورى يبدو دائما وكأنه يتعجل الاقتناع بأن جهوده قد فشلت ، ويتحدث بيقين ورضا عن عدم جدوى بذل اى جهد آخر .

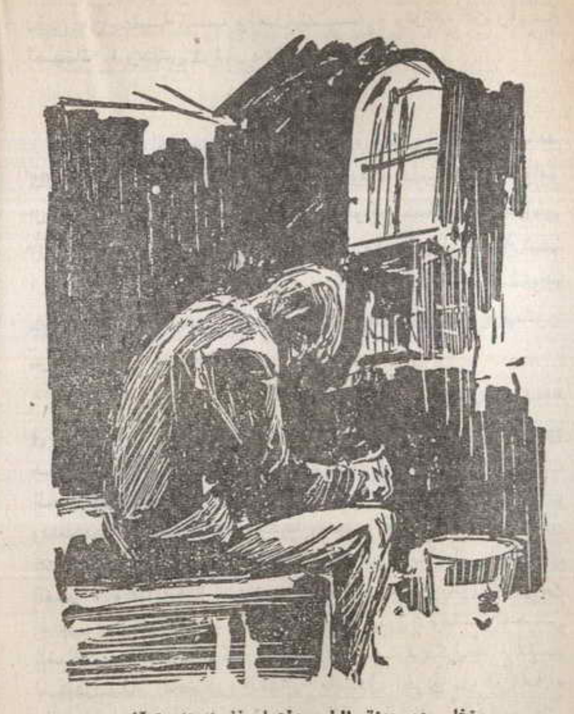
وكان فاسيا يرى اخطاء يورى تتزايد يوما بعد يوم ، ورغم ان هذا لم يكن يضايقه النقد الصادق ، الا ان علاقته مع فاسيا اخذت تنهار ، واخيرا انفصمت عرى الصداقة وفضت الشركة ، فترك يورى الغرفة التى كان يشترك فيها مع فاسيا وانتقل إلى (موشنوى جورود) حيث كان السلطان قد أصبح فى يدى « ماركل » هناك ، فاعد له ركنا خلف ما كان فى يوم من الأيام شقة اسرة « سفنتتسكى » ، وكان الركن يحتوى على حمام مهجور وغرفة بها نافذة وحيدة ملحقة به ، ومطبخ مهدم ، عدا المدخل الخلفى . وما إن انتقل يورى إلى هذا المسكن حتى

تخلى عن مهنة الطب واهمل نفسه ، وتوقف عن رؤية اصدقائه ، وعاش فى فقر مدقع .

- ٦ -

وفى يوم احد معتم من أيام الشتاء ، كان الدخان يتصاعد كالأعمدة فوق السطوح ، فى نفثات سوداء سميكة ، من النوافذ التى كانت لا تزال تستخدم رغم اللوائح كمخارج للمداخن المعدنية المركبة على افران الطبخ . ولم تكن المدينة قد استعادت بعد حيوتها وملاهيها ، فكان سكان (موشنوى جورود) يخرجون دون أن يغسلوا وجوههم ، وكانوا ، يعانون من الدمامل ، ويرتجفون من البرد ..

ولما كان اليوم يوم أحد ، فقد بقى « ماركل ششابوف » فى البيت مع اسرته . وكانوا يتناولون الطعام على مائدة مطبخ ضخمة ، كانت بذاتها تستخدم فى الأيام الماضية — عندما كان الخبز يوزع بالبطاقات — فى جمع كوبونات جميع السكان وتقطيعها وترتيب فئاتها وعدها ولفها فى قطع من الورق أو حزمها فى مجموعات وفقا لفئاتها ، قبل ان ترسل إلى الخباز فى الفجر . وهنا ايضا ، عند ما يطلع النهار ويأتى الخبز من المخبز ، كانت الأرغفة تقطع وتوزن وتوزع وفقا لحصص السكان . ولكن ذلك كله اصبح الآن مجرد ذكريات ، فقد استبدل نظام الحصص الغذائية باشكال اخرى من الرقابة ، واخذ افراد أسرة « ششابوف » ياكلون فى الظهر وجباتهم حتى تمتلىء بطونهم . كانوا يلوكون اكلهم ويمضغونه هنيئا مريئا .



تخلى عن مهنة الطب وأهمل نفسه ، وتوقف عن رؤية أصدقائه ، وعاش فى فقر مدقع ..

وكان الفرن الروسى يحتل نصف الغرفة ويتوسطها ، يعلوه غطاء وتتدلى إلى جانبه معدات الطبخ . بالقرب من مدخل الغرفة تجد صنبورا — كان يؤدى عمله بالفعل — بارزا من الحائط ، مركبا فوق حوض للغسيل . وقد صفت المقاعد إلى جانبين من جوانب الغرفة . ووضعت الأسرة حاجياتها تحت تلك المقاعد ، فى لفائف وصناديق ، وكانت المائدة إلى يسار الداخل ، وقد ركبت فوقها « مطبقية » .

وكان جو الغرفة شديد الحرارة ، والفرن فى أقصى سخونتها ، وقد وقفت أمامها « أجاثا » زوجة ماركل ، مشمرة أكمامها إلى فوق المرفقين ، وكانت تستخدم « ماشية » طويلة لتحريك « الحلل » و « البرم » داخل الفرن ، مقربة اياها نحو بعضها البعض ، أو مبعدة لها حسب الحاجة . وكان وجهها ينضح عرقا ، وقد اضاءه اللهب المنبعث من الفرن ، وأحاطته حرارة الطبخ بما يشبه الضباب . وحركت «الحلل» إلىجانب، ثم تناولت من خلفها فطيرة محشوة كانت تسوى على « صفيحة » من الحديد ، فقبلتها على وجهها الآخر واعادتها مرة اخرى ليكمل نضجها ويتلون الوجه الآخر . وجاء يورى يحمل دلوين :

— بالهناء والشفاء .. ارجو لكم شهية مفتوحة ..

— اعتبر نفسك فى بيتك . اجلس وتناول طعامك معنا .

— شكرا .. لقد تناولت طعامى .

— إننا نعرف ماذا تعنى بطعامك . لماذا لا تجلس لتاخذ

شيئا ساخنا ؟ لن تحتاج إلى سد انفك بعيدا عنه ، انه ماكول طيب ، بطاطس فى الفرن وفطيرة محشوة وبعض «الكاشا» .

— كلا وشكرا .. حقا .. يؤسفنى ان ابقى الباب مفتوحا فيدخل اليكم البرد ، فانى اريد أن آخذ اكبر قدر من المـاء لقد غسلت الحوض ، وسأملؤه هو والبراميل ، لذلك ساضطر إلى الدخول هنا بضع مرات ، على أن لا اتعبكم بعد ذلك إلى وقت طويل . اعذرونى إذ ارهقكم هكذا ، ولكنى لا استطيع الحصول على المـاء من اى مكان آخر .

— خذ ما شئت ، لو انك طلبت « شربات » لما استطعنا أن نقدمه لك ، اما المـاء فلدينا منه الكثير خذ ما تريد ولن نحاسبك عليه .

وضحك الجميع ..

وحين عاد يورى ليملأ دلوه الثالث والرابع تغيرت نغمة الحديث :

— أن ازواج بناتى يسالونى من تكون . وقد قلت لهم من انت ولكنهم لا يصدقوننى . استمر فى ملء دلائك بالمـاء ، لا تهتم بنا . فقط لا تجعل المـاء يتدفق على الأرض فيسىء إلى مظهرها ونظافتها ، لأنه أن تجمد فلا احسبك ستأتى بعتلة لرفعه ! .. واغلق الباب خلفك جيدا أيها البليد ، فان تيار الهواء يؤذينا . نعم . كنت اقول لهم من انت ولكنهم لم يصدقونى . الأموال التىانفقت عليك ! كل ذلك التعليم ، ماذا اجدى واين انتهى بك ؟ بودى لو اعلم .

ولما دخل يورى للمرة الخامسة او السادسة عبس « ماركل » :

— مرة واحدة بعد هذه وكفى . إن هناك حدودا لكل شىء ايها الرجل المسن ، لولا أن « مارينا » الصغيرة فى صفك لأغلقت دونك الباب بالمسامير. إنك تذكر مارينا ، اليس كذلك؟ هذه هى .. السمراء التى تجلس إلى طرف المائدة . انظر ، لقد احمر وجهها كله . إنها تكرر قولها لى : « لا تجرح شعوره يا ابى » . كما لو كان هناك من يريد أن يجرح شعورك . انها عاملة تلغراف فى مكتب البريد المركزى ، وهى تجيد اللغات الأجنبية . إنها تقول : «إنه سيىء الحظ» . إنها ترثى لحالك . وتود لو تمدك بالرى والدفء او تبذل اى شىء فى سبيلك . إنها تلومنى كما لو كنت أنا سبب فقرك المدقع . ما كان لك ان تسافر إلى سيبريا ، تاركا بيتك فى ذلك الوقت العصيب . إنه خطأك انت ، انظر الينا هنا ، لقد احتفظنا ببيتنا خلال أيام المجاعة والحصار الأبيض ، لم نهرب . وهكذا بقينا فى أمن وسلام وصحة . لا تلومن الا نفسك . لو انك اعتنيت جيدا بتونيا لما اصبحت شريدة فىالخارج فى هذه الأيام. ومع كل فهذا شأنك انت . ماذا يهمنى؟ إن كل ما اريد معرفته ــ ولا تؤاخذنى فى ذلك ــ هو ماذا تريد أن تفعل بكل هذا المـاء ؟ هل اجرت نفسك لتنشىء حلبة انزلاق او شيئا من هذا القبيل ؟ انت وهذا المـاء ! انك لا تكاد تثير غضبى وتخرجنى عن صبرى ، فما انت الا دجاجة مبتلة !!

وضحك الجميع مرة اخرى، الا مارينا ، فقد راحت تتلفت

حولها فى غضب وثورة . وقد تعجب يورى لنبرات صوتها . وإن كان لم يستطع ان يحدد لماذا حرك اشجانه ذلك الصوت ! .. واستطرد :

— أن البيت فى حاجة إلى تنظيف كثير يا ماركل ، لا بد لى من مسح البلاط ، كما ساقوم بغسل ملابسى .

وظهر العجب على وجوه اسرة ششابوف :

— من المخجل أن تقول هذا الكلام . اذهب وقم بهذه المهمة وحدك . لعلك ستفتح مغسلا صينيا بعد قليل !

وقالت « اجافا » : « دعنى ارسل إليك ابنتى . ستغسل لك حاجياتك ، وتمسح لك الأرض ، كما ستصلح لك ما يحتاج إلى ترقيع ، إذا وجدت شيئا من ذلك . لا يجدر بك أن تخاف منه يا ابنتى العزيزة . هل انت تدركين كيف تربى ؟ إنه لا يمكن أن يؤذى بعوضة ! » .

فأجابها يورى : « ما ابدعها من فكرة يا « اجافا ميخايلوفنا » . ما كنت احلم بأن ادع «مارينا» تمسح بلاطى ، لماذا بحق الأرض تتسخ يداها من أجلى ؟ كلا .. انى اجيد هذه العمليات بنفسى » .

وانفجرت مارينا تقاطعه : « انت تستطيع أن تدع يديك تتسخان ، وانا لا استطيع .. اهذه هى المسالة ؟ لا تكن ثقيلا يا يورى انردييفيتش . اظن اننى إذا ذهبت إليك فلن تطردنى؟ » .

كانت «مارينا» تصلح — لو دربت — لأن تصبح مغنية ، فقد كان لها صوت نقى ، رخيم ، قوى . ورغم انها لم تنطق بهذه العبارات بصوت مرتفع ، فان صوتها كان أقوى مما تدعو إليه المناقشة العادية. وكان صوتها يبدو كما لو لم يكن صادرا منها ، وإنما كان صوتا له حياته الخاصة المستقلة ! كان يخيل لمن يستمع إليه أنه صادر من خلفها ، او من الحجرة الأخرى كان صوتها هو حاميها ، وهو ملاكها الحارس ، ولا يستطيع رجل أن يؤلم أو يضايق امراة لها مثل هذا الصوت !

وهكذا كان لعمليات حمل الماء ونقله أيام الآحاد نتيجتها، فقد نبعت صداقة بين يورى ومارينا ، وكثيرا ما كانت تصعد إلى غرفته لتعاونه فى ترتيب شئونه وتنظيمها . وفى احد الأيام بقيت معه ولم تعد إلى غرفتها ! . .وهكذا غدت زوجة يورى الثالثة ، وإن كان لم يطلق من الأولى ، ولم يسجلا زواجهما . ثم انجبا أبناء . وكان ماركل واجافا يتحدثان عن ابنتهما كزوجة « للدكتور » فى كبرياء واعتزاز . وقد أبدى والدها تذمره لأن مراسم الزواج المتعارف عليها لم تتم لا فى الكنيسة ولا فى مكتب التسجيل . ولكن اجافا كانت تقول له :

— هل خرجت عن وعيك يا رجل ؟ إن تونيا لا تزال على قيد الحياة ، وهذا يعد تعدد زوجات !

— إنك أنت التى خرجت عن وعيك يا أجافا .. ما دخل تونيا فى هذه المسالة ؟ إنها الآن كما لو كانت فى عداد الأموات. ليس هناك قانون يحميها .

وكان يورى احيانا يقول ضاحكا إن علاقتهما ليست سوى غرام فى عشرين دلوا ، كما يمكن ان تقول عن رواية إنها من عشرين فصلا ! .. وقد اغتفرت مارينا ليورى مساوئه المتزايدة ، كالقذارة وانعدام النظام الذى يثيره فى البيت ، واطواره الغريبة ، وخيالاته .. كانت تصرفات رجل يترك نفسه على هواها بارادته ، وقد احتملت مارينا سخطه وغضباته وفورات اعصابه .. بل لقد تطور ولاؤها له إلى ما هو ابعد من ذلك . ففى بعض الاحايين كان يرتكب اخطاء تعود عليه بفترات من الفقر المدقع ، فكانت تضطر — كى لاتتركه وحيدا فى محنته — إلى أن تترك عملها فى مكتب البريد ، (حيث كانوا ـ لحسن الحظ ـ يعتمدون عليها ، فكانوا يقبلون عودتها إلى العمل فى كل مرة بعد غيابها الاضطرارى) .

وكانت تطيع يورى فى نزواته فتخرج معه لتؤدى اعمالا غريبة ، من بيت إلى بيت : كانا يكسران الخشب لمستأجرين كثيرين فى مختلف الطوابق ، ومنهم كثير من الانتهازيين الذين جمعوا ثروات خلال السنوات الأولى من « النظام الاقتصادى الجديد » ، ومنهم الفنانون والعلماء الذين يؤيدون الحكومة ، وكانت بيوتهم مفتوحة على مستوى مترف .. وفى احد الأيام كان يورى ومارينا يسيران فى حذر بأحذيتهما المصنوعة من اللباد ، حتى لا تتسخ السجادة بنشارة الخشب . وكانا يحملان بعض قطع الخشب إلى مكتب احد المستأجرين ، الذى كان قابعا فى قلة ذوق ، يقرا شيئا ، ولم يكلف نفسه عناء ازجاء التحية لهما ، ولو بنظرة ! .. وكانت زوجته هى التى طلبت إليهما

تكسير الخشب ونقله ، واتفقت معهما على الأجر .. فعجب يورى ، وراح يتمتم فى سره :

— ترى فيم يحشر هذا الخنزير انفه ؟

ذلك ان الرجل كان يخط شيئا فى عصبية غاضبة على هوامش كتاب أمامه. والقى يورى نظرة من فوق اكتاف الرجل فى إحدى المرات وهو يمر به . كان الكتاب طبعة قديمة من احد الكتيبات التى الفها يورى وطبعها فاسيا .

— ٧ —

اصبح يورى ومارينا يقطنان فى شارع (سبيرى دونوفكا) ، و « جوردون » يقيم فى غرفة بالقرب منهما فى شارع (برونى) . وقد انجبت مارينا ليورى بنتين : كابكا (كابيتولينا) ، وقد اصبح عمرها ٦ سنوات ، وكلازكا (كلوديا) التى كانت لا تزال فى الشهر السادس من عمرها .

واشتدت الحرارة فى مستهل صيف ١٩٢٩ ، وكان سكان الشوارع المتقاربة يتزاورون حاسرى الرءوس ، وقد رفعوا اكمام قمصانهم فوق المرفقين .. وكانت غرفة جوردون جزءا من مبنى عجيب كان فى يوم من الأيام محلا لخياط . يتألف من طابقين يصل بينهما سلم حلزونى، وتطلان كلاهما على الشارع بنافذة واحدة ذات لوح زجاجى ضخم كتب عليه اسم الخياط وطبيعة عمله بحروف ذهبية .

وقد قسم المحل إلى ثلاثة اقسام ، إذ انشئت بين الطبقة العليا والطبقة الدنيا غرفة ثالثة استخدم فى انشائها مزيد من

الواح خشب الأرضية . وكان لهـا ، كغرفة للجلوس ، نافذة عجيبة ، ارتفاعها حوالى ثلاثة أقدام ، وتبـدأ من مسـتوى الأرضية ، وقد غطيت جزئيا ببقايا اسم الخياط . وإذا رفع سائر فى الشارع بصره ، يرى الشخص الذى يكون فى الغرفة حتى ركبتيه ، من طريق الفجوات التى بين حروف الكتابة . وكانت هذه هى الغرفة التى يقيم بهـا جوردون . ونحن نرى معه ، فى هـذه اللحظة : جيفـاجو ، ودودوروف ، ومارينا ، وطفلتيها وكانتا ، بعكس الكبار ، تظهران بكامل هيئتهما للمارة فى الشارع — ولم تمكث مارينا كثيرا ، بل سرعان ما خرجت تاركة الرجال الثلاثة معا . .

ودارت بينهم مناقشة من تلك المنـاقشات الهادئة التى يشيع فيها الكسل بسبب حرارة الصيف ، وهى مناقشات تدور بين زملاء الدراسة الذين مرت على صداقتهم سنوات عديدة . ولدى بعض الناس كلمات كثيرة تحت تصرفهم تكفيهم لحديث طبيعى متماسك . وكان يورى — دونهم — من ذلك الفريق من الناس . أما صديقاه فكانا دائما يعوزهما التعبير عمـا يجول بخواطرهما ، وكانا — لكى يقتصدا فى الكلام — يذرعان الغرفة جيئة وذهابا ، ينفثـان دخان السجاير ، ويتمتمـان ويكرران ما يقولان ، كأن يقول احدهما :

— من الواضح ان هذه خيانة ، ايهـا الرجل المسن . خيانة ، نعم، نعم، هذا هو كل ما فى الأمر ، خيانة . . وهكذا .

ولم يكن احدهما يدرك ان هذا الحوار الطويل ، ابعـد

ما يمكن ان يدل على الحماسة وسعة الأفق ، وانه كان — على العكس — من ادلة ضيق الأفق وضعف المقدرة .

وقـد عاش كل من جوردون ودودوروف فى أوسـاط الجامعة، وقضى كل منهما حياته بين الكتب الجيدة ، والمفكرين، والمؤلفين ، والموسـيقى — التى كانت ولا تزال ، وستبقى ، شيئا طيبا على الدوام — ولكنهما لم يدركا أن إنسانا متوسط الذوق اسوأ بكثير من إنسان عديم الذوق بالمرة !

ولم يدرك جوردون او دودوروف أن لومهما ليورى يرجع إلى عدم قدرة اى منهما على التفكير بحرية ، او توجيه الحديث فى حرية ، اكثر مما يرجع إلى رغبتهما فى التأثير على تصرفاته . كانا كعربة ضالة فشلت فى نقلهما إلى حيث يريدان . وما داما لا يستطيعان السيطرة عليها ، فقد بات من المؤكد ان يصدما بها اى شىء . وهكذا اصطدما مع يورى ،وراحا يكيـلان له غمرا من العظات والتعليمات .

وكانت عواطفهما ، وتدليلهمـا على مختلف نـواحى الحديث ، واهتزاز عطفهما عليه ، من الوضوح فى نظر يورى مثل الشمس فى رائعة النهار . ولكن كان من الصعب عليه ان يقول لهما : ما اكثر سطحيتكما ايها الصديقان . انتما سطحيان فى محيط حديثكما ، وبالنسـبة للاسماء والشخصـيات التى تنقلون اقوالها ولمعانها ، والفن الذى تعجبـان به كل هـذا الإعجاب ! والشىء الوحيد البراق الذى تشيع فيه الحيويـة فيكما هو انكما تعيشـان فى ذات العصر الذى اعيش انا فيه ، وانكما صديقان لى !

ولكن كيف يمكن ان يصرح اى إنسان بمثل هذه الأفكار ؟ ولهذا ، وحتى لا يجرح شعورهما ، راح ينصت إليهما فى حلم . وكان دودوروف قد عاد منذ وقت قريب من المرحلة الأولى من مراحل النفى ، وقد أعيدت إليه حقوقه المدنية وسمح له باستئناف ابحاثه ومحاضراته فى الجامعة . وراح يبث لصديقه مشاعره وانطباعاته عن المنفى ، ولم تكن تعليقاته متأثرة بالجبن او بأى اعتبار خارجى .

.. كان يقول إن مناقشات محاكمته ، ومعاملته فى السجن ، وبعد خروجه منه ، ولا سيما حديثه القلبى مع المحقق ، كانت بمثابة النافذة التى ادخلت الهواء النقى إلى عقله وثقفته سياسيا من جديد ، وفتحت عينيه على أشياء كثيرة لم يكن قد رآها من قبل ، وجعلته يحس انه اصبح إنسانا كاملا !

وقد أعجب جوردون بهذه الانطباعات لمجرد ابتذالها ، فكان يهز راسه مؤمنا على كل ما يقول دودوروف ، وكانت تفاهة احاديث دودوروف واحاسيسه وتعبيراته هى التى تثيره اكثر من اى شىء آخر ، فقد اعتبر مشاعره دلالة على إنسانيتهما المشتركة .

وكانت تفاهات دودوروف تتمشى وروح العصر ، وكانت صحتها وشفافيتها هما سبب غيظ يورى منها . كان يرى ان الرجال غير الأحرار يقدسون عبوديتهم دائما . هكذا كانت الحال فى العصور الوسطى ، وهكذا كان « الجرويت » ينصرفون . ولم يكن يورى يستطيع ان يحتمل تاليه المثقفين -

الشيوعيين لمبادئهم السياسية ، بينما كان ذلك بالذات هو ما يعدونه اعلى ما وصلت إليه جهودهم الناجحة ، وهو الذى يوصف باسلوب ذلك العصر بأنه « قمة روحانية العصر » . ولكن يورى احتفظ بذلك أيضا لنفسه ، حتى يتفادى ايلام مشاعر صديقه .

وكان اهم ما اثار اهتمامه من قصة «دودوروف» حكايته عن « بونيفيس أورليتزوف » ، زميله فى زنزانته ، وكان من القساوسة التيخونونيت . كانت لـ « أورلتزوف » بنت فى السادسة من عمرها ـ تدعى « كريستينا » تحبه حب العبادة ، وقد أصيبت « كريستينا » بسبب القبض عليه وما اعقب ذلك من أحداث ، بضربة قاصمة ، وبات يخيل إليها ان لقبه الدينى و « التجريد من الحقوق المدنية » وصمة عار ، وصمة لعلها اقسمت فى قلبها الصغير على أن تطهر منها اسم والدها فى يوم من الأيام . وكان هذا الهدف البعيد ، الذى ادركته فى هذا الوقت المبكر ، وتعهدته بتصميم مشتعل ، قد جعلها تؤمن فى حماسة لا تناسب سنها بما خيل إليها انه مما لا ينقض فى الشيوعية .

وقال يورى :

ـ لا بد لى من الذهب . لا تعارضنى يا ميشا ، فالجو خانق هنا ، فضلا عن الحرارة فى الخارج . انى لا اكاد اجد الهواء الكافى للتنفس .

ـ ولكن انظر . إن النافذة مفتوحة ، هناك بالقرب من الأرض . انى آسف ، لقد كنا نكثر من التدخين . اننا ننسى

دائما انه يجب علينا ان نتوقف عن التدخين فى حضورك . ليس الخطأ خطاى إذ اصبح الجو خانقا هكذا ، إنه خطأ الطريقة الغبية التى صممت بها النافذة بهذا الشكل . ينبغى أن تجد لى غرفة اخرى .

— لا بد لى من الذهاب يا ميشا ، لقد تحدثنا كثيرا . وانى أشكركما على اهتمامكما بى. اننى لا اتصنع كما تعلمان، وإنما هذا مرض اصبت به ، إنه تصلب القلب . إن جدران عضلات القلب تبلى وتصبح الجدران رقيقة ، وفى أحد الأيام المتعة ستنفجر .. فى حين انى لم اصل إلى الأربعين بعد ، وما كنت بسكير مدمن ، وما اشعلت الشمعة من ناحيتيها !

— كلام فارغ . لن نسمح لجنازتك بأن تشيع بعد . انك ستعيش لتدفننا !

— أن حالات نزيف القلب تتزايد اكثر فأكثر فى هذه الأيام. وهى ليست مميتة دائما ، فهناك بعض الناس يتغلبون عليها . إنها المرض الذى تفشى فى عصرنا ، واعتقد أن اسبابه الرئيسية نفسية ، فمعظمنا يجبر على أن يعيش حياة نفاق متصل منظم ! ولا بد أن تتأثر صحتك إذا كنت — يوما بعد يوم — تضطر إلى أن تقول عكس ما تشعر به ، وإلى أن تنحنى احتراما — حتى لتزحف — أمام ما تكره ، وترحب بما لا يجلب لك غير التعاسة ! .. إن جهازك العصبى ليس خرافة ، إنه جزء من تكوينك الجسمانى ، وروحك تشغل هذا الجسم وتعيش داخله ، كما تعيش اسنانك داخل جمجمتك . وانت لا تستطيع المضى فى انتهاكه دون أن تلقى جزاءك ! .. لقد

يؤلمنى ان اسمع منك قصة ما جرى لك فى المنفى يا نيكى ، وكيف انضجتك سنوات النفى وصقلتك ، واتمت ثقافتك . كنت كمن يستمع إلى حصان يروى قصة ترويضه فى حلبة !

فقال ميشا جوردون : « يجب على ان اقف فى صف دودوروف ، والمسألة — ببساطة — انك اصبحت يا يورى غير معتاد على الاستماع لكلام الآدميين ، فكلماتهم لم تعد تصل إليك » .

— قد يكون هذا صحيحا يا ميشا ، ولكنى مضطر إلى الذهاب على اية حال ، فأرجو أن تسمحا لى بالانصراف .. اننى اتنفس بصعوبة . إنى اتحدث إليكما بإخلاص ، ولست ابالغ فيما اقول .

— انتظر لحظة واحدة . إنك تحاول أن تتهرب من الموضوع . لن نسمح لك بالذهاب حتى تجيبنا إجابة صريحة قاطعة : هل توافق أولا توافق على انك ينبغى أن تغير حياتك وتصلحها ؟ ماذا تنوى أن تفعل حيال ذلك ؟ فأولا ينبغى ان تلقى مزيدا من الضوء على علاقاتك مع تونيا ومع مارينا . انهما بشر .. انهما امراتان لهما مشاعرهما وآلامهما ، وليستا مجرد افكار لا كيان لها تصطرع فى راسك ! وثانيا : إنها لفضيحة ان رجلا مثلك يضيع هباء هكذا ، فعليك ان تصحو لنفسك وان تنظر إلى الأشياء بغير هذه المجرفة التى لا مبرر لها .. نعم .. نعم .. بغير هذا التعالى إزاء جميع الناس ، وهو تعال لا يغتفر لك .. ثم يجب عليك أن تعود إلى العمل وان تمارس مهنتك .

— حسنا ، هذا جوابى ، فلقد كنت افكر فى شىء من هذا القبيل منذ عهد قريب ، ولهذا استطيع فعلا ان اعدك بان تغييرا ما سوف يحدث . واعتقد ان كل شىء سينصلح حاله ويصبح فى وضعه الطبيعى ، وسوف يتم ذلك فى أقرب وقت ، وسترى .. كلا ، إنى اتحدث بكل امانة وإخلاص ، فكل شىء آخذ فى التحسن. إن لى رغبة عارمة لا يمكن وصفها فى الحياة ، والحياة طبعا تعنى الكفاح ، والتقدم ، والارتفاع ، والجهاد فى سبيل الكمال والوصول إليه .. وإنى سعيد يا ميشا لوقوفك إلى جانب مارينا ، تماما كما كنت دائما تقف فى صف تونيا ، ولكنك تعلم اننى لم اتشاجر مع اى منهما ، ولست على خلاف معهما ، او مع اى شخص آخر يعنيه هذا الأمر .. إنك كنت تلومنى فى اول الأمر لأن مارينا كانت تخاطبنى بكلمة «حضرتك»، وتنادينى باسمى الرسمى « يورى اندرييفيتش » ، بينما كنت اناديها « بانت » وباسمها المجرد « مارينا » .. كنت تلومنى على ذلك كما لو كان ذلك لا يضايقنى انا ايضا ! ولكنك تعلم ان السبب الذى كان يكمن وراء هذه الأوضاع غير الطبيعية قد ازيل منذ عهد بعيد ، فقد تمت تسوية كل شىء وسادت المساواة .

« والآن استطيع ان اضيف إلى هذا أنباء طيبة : لقد بدات اتلقى مرة اخرى رسائل من باريس ، وهى تفيدنى ان الأطفال يكبرون ، وان لهم كثيرا من الأصدقاء الفرنسيين من سنهم .. وان « ساشا » يكاد يتم دراسته الابتدائية ، و « ماشا » ستدخل قريبا المدرسة — وانت تعلم اننى لم ارها مطلقا ! — وعندى شعور برغم كل شىء انهم على الرغم من

كونهم قد اصبحوا مواطنين فرنسيين، إلا انهم سوف يعودون، وسوف تسوى جميع المشاكل ، بطريقة او اخرى !

« ويبدو ان تونيا وصهرى يعرفان مسألة مارينا وأولادنا، وإن كنت لم اشر إلى هذا الموضوع فى رسائلى، ولا بد ان يكونا قد سمعا عنها بطريقة ما . ومن الطبيعى ان يشعر الكسندر الكسندروفيتش بالغضب الشديد ، كوالد ، ولا بد انه يتألم من اجل تونيا . وهذا يفسر لماذا انقطعت مراسلاتنا قرابة خمس سنوات . وكنت قد اعتدت ان اكتب إليهما بعد عودتى إلى موسكو ، ولكنهما توقفا فجاة عن الرد !

« والآن ، ومنذ عهد قريب جدا ، عادت المراسلات تصلنى من جديد منهم جميعا ، حتى الأولاد . وهم يكتبون بلهجة تنطق بالحرارة والحب ، وكأنهم قد رضخوا للواقع ! ولعل تونيا قد عرفت شخصا آخر . انى ارجو من الله ان يكون الأمر كذلك . على اى حال ، لست ادرى . وانا بدورى اكتب إليهم من وقت إلى آخر .. ولكن ، معذرة ، فالحق اننى لا استطيع البقاء هنا اكثر من ذلك .. لا بد ان اذهب ، والا اصابتنى نوبة القلب .. فوداعا » .

وفى الصباح التالى جاءت مارينا إلى جوردون وهى تلهث ، وقد بدا انها فى ضيق شديد .. ولما لم يكن هناك من تستطيع ان تترك معه الأولاد ، فقد حملت على احد ذراعيها الوليدة الصغيرة ملفوفة فى ملاءة ، بينما كانت تجرجر « كابكا » باليد الاخرى ، وقالت بصوت تشيع فيه نبرات الرعب :

— هل يورى هنا يا ميشا ؟

— الم يعد إلى البيت فى الليلة الماضية ؟

— كلا .

— إذن لا بد ان يكون قد قضى ليلته عند نيكى .

— لقد جئت توا من هناك . إن نيكى فى الجــامعة ولكن الجيران ، وهم يعرفون يورى ، قالوا لى إنه لم يكن هناك !

— إذن اين يمكن أن يكون يا ترى ؟

ووضعت مارينا الوليدة «كلازكا» على الأريكة ، وراحت تنشج فى حالة هيستيرية ..

— ٨ —

ومضى يومان لم يستطع جوردون ودودوروف خلالهما أن يتركا مارينا وحدها ، فراحا يتناوبان العناية بها والبحث عن يورى .. بحثا عنه فى جميع الأماكن التى يمكن أن يذهب إليهــا ، فقصدا إلى (موشـــنوى جورود) ، وإلى شـــارع (سيفيستيف) ، وإلى جميع « قصور الفكر » و «بيوت الراى» التى سبق له أن عمل فيهـــا ، وزارا جميع أصـــدقائه الذين صادف أن ذكر اسماءهم لهما وكانا يعرفان عناوينهم .. ولكن كل هذا الجهد كان بلا نتيجة !

ولم يبلغا قوات « المليليشيا » عن اختفائه .. فرغم أنه كان مقيدا فى الدفاتر — وان لم يكن له سجل لدى البوليس — فقد كان من الأنسب عدم توجيـــه انظار الســـلطات إلى رجل يعد ، بالنسبة للأوضاع السائدة حينذاك ، خارجا عن العرف ،

لا يحيا الحياة المثالية الواجبة .. ولهذا قررا الا يدعا البوليس يبحث عنه ، إلا كحل اخير !

.. وفى اليـــوم الثالث ، وصـــلت إلى كل من جوردون ودودوروف ومارينا رسائل من يورى ، من جهات مختلفة ، أبدى فيها أعمق الاسف على ما سببه لهم من متاعب وقلق ، ثم رجاهم الا يهتموا به ، واستحلفهم بكل ما يقدسون ان يكفوا عن البحث عنه ، قائلا إن هذا البحث لن يأتى بثمرة ما ! .. واضاف انه ، كى يستطيع أن يعيد بناء حياته من جديد ، وفى أسرع وقت ممكن ، رغب أن يمضى فتـــرة من الوقت منفردا بنفسه ، مركزا كل همه فى شئونه الخاصة .. وانه بمجرد ان يستقر فى عمل ، وحين يستوثق — ثقة مستندة إلى اساس — انه لن يرتد مرة اخرى إلى اساليبه القديمة ، فعندئذ سيغادر مخبأه ويعود إلى مارينا والأولاد .

.. وكتب فى رسالته إلى جوردون يقول إنه يبعث إليه باذن صرف بعض النقود لمارينا ، ثم ساله أن يستخدم من تعنى بشئون الأطفال ، كى تعود مارينا إلى عملها . وفسر لماذا لم يبعث بالنقود إلى مارينا مباشرة بأنه يخشى أن يرى بعضهم إذن الصرف معها فتتعرض للسرقة . وتم قبض النقود بعد قليل ، وكان المبلغ اكبر من اى مبلغ سبق ليورى او اصـــدقائه ان حملوه . وعلى الأثر استخدموا مربية وعادت مارينا للعمل فى مكتب البريد . وكانت لا تزال فى ضيق واضطراب ، ولكنهـــا استطاعت مواجهة مشكلة هروب يورى الأخيرة هذه ، فانها كانت قد الفت تصرفاته السيئة الغريبة . وقد واصل ثلاثتهم

البحث عنه ، ولكنهم انتهوا بالتدريج إلى عدم جدوى البحث عنه ــ كما كان قد حذرهم من قبل ــ إذ لم يتمكنوا من العثور له على اثر !

– ٩ –

ومع هذا ، فقد كان يورى طوال الوقت يعيش على مرمى حجر منهم ، تحت عيونهم وانوفهم ، فى وسط المنطقة التى « نبشوها » بحثا عنه !

وكان ــ فى يوم اختفائه ــ قد ترك جوردون ومضى إلى شارع (برونى) قبيل الغروب ، ومن هناك اتخذ طريقه إلى بيته .. ولكنه استدار فجأة . قبل أن يصل إلى البيت بنحو مائة ياردة ، متجها صوب اخيه غير الشقيق « ايفجراف » الذى كان قادما فى الشارع ذاته فى مواجهته ، ولم يكن قد رآه او سمع عنه منذ اكثر من ثلاث سنوات ! وظهر أن «ايفجراف» قادم لتوه إلى موسكو ، و ــ كالمعتاد ــ بدا كأنه قد هبط من السماء .. واستطاع ان يتخلص من الإجابة عن أسئلة يورى الكثيرة ، بابتسامة او نكتة .. بينما استطاع من ناحية أخرى ــ من بضعة اسئلة وجهها هو إلى يورى ـ ان يدرك متاعبه فى الحال . وبين لفتة واخرى ، وخلال منعطفات الطريق الضيق المزدحم الذى سارا فيه ، كان قد وضع خطة عملية لانقاذه من متاعبه ، إذ كانت فكرة اختفاء يورى وبقائه فى مخباه بعض الوقت ، هى فكرة ايفجراف !

واستأجر له غرفة فى شارع (كاميرجر) ، كما كان يطلق عليه حتى ذلك الحين ، بالقرب من مسرح الفنون . واتخذ من

التدابير ما ييسر له الحصول على مركز طبيب فى احد المستشفيات ، حتى تتاح له الفرصة لمواصلة ابحاثه . ثم امده بالنقود وعاونه من كل سبيل ، واخيرا ابلغه ان الغموض الذى يحيط بأسرته فى باريس سوف ينقشع ، وانه إما ان يسافر ــ يورى ــ اليهم فى باريس ، او يحضروا هم إليه . وكان « ايفجراف » يباشر كل هذه الشئون بنفسه شخصيا ، وكانت معوناته ومساعداته هذه سببا فى تجدد نشاط يورى وتشجيعه ، وإن كان مصدر نفوذ « ايفجراف » ذاك قد بقى سرا خافيا على يورى كالعادة ، ولم يحاول الأخير ان يخترق حجب هذا اللغز !

– ١٠ –

وكانت واجهة غرفته قبلية ، تكاد تلاصق المسرح وتطل على الأسطح المواجهة . وكانت الشمس تغمرها ، ولكن الشارع كان فى منطقة الظل .

وكانت الغرفة بالنسبة ليورى أكثر من مكان عمل ، اكثر من مكتب ! .. ففى تلك الفترة من النشاط المحموم ، حين كانت اكداس كراسات المذكرات التى فوق مكتبه لا تكاد تتسع لجميع مشروعاته ، وحين كانت الرؤى التى يتصورها ويستحضرها فى مخيلته تحوم محلقة فى جو الحجرة واركانها ، مثل مشروعات الرسام التى تسند إلى الجدار او تترك على الأرض فى كل ركن ، حتى تزحم مرسمه .. فى تلك الفترة ،

كانت غرفة الطبيب بمثابة « قاعة ولائم » لروحه ، ومستودع للمكتشفات ، ومخزن يغلق فيه الباب على الغباء والجهل !

ومن حسن الحظ أن مفاوضات « ايفجراف » مع المستشفى طال عليها الأمد ، وبدا أن وظيفة يورى الجديدة قد تأجل حصوله عليها إلى اجل غير مسمى ، فمنحه هذا التأخير فرصة للكتابة .

وقد بدأ بمحاولة تنسيق قصائده القديمة التى أستطاع ان يتذكر منها بعض الابيات ، او تلك التى أتى له ايفجراف بأصولها ، وكان بعضها بخط يورى وبعضها الآخر بخط غيره ولكن هذه المواد المشوشة جعلته يستنزف نشاطا اكثر مما كان يفعل فى الأحوال العادية . وسرعان ما ترك هذا العمل وبدأ فى عمل جديد . صار يكتب مسودة لمقال ، ومن نوع تلك المذكرات التى كان يخطها حين ذهب إلى فاريكينو لأول مرة ، أو يكتب الجزء الأوسط من قصيدة ، أو نهايتها ، أو بدايتها ، كما يتبادر إلى ذهنه .. وكانت تمر به أوقات لا يكاد يستطيع فيها أن يتابع افكاره ، حتى مع استعماله طريقته الخاصة للاختزال التى تعتمد على الحروف الأولى من الكلمات .

لقد كان فى عجلة من امره .. وحين كان خياله يكل ، ونشاطه يتراخى، كان ينشطهما برسوم يخططها فى الهوامش، رسوم تمثل غابات ، أو ملتقى للطرق فى مدينة ، وعليها لافتات كتب عليها عبارات : « مورو وفيتشينكين » و « محاريث للبذور » و «آلات حصاد » .. الخ .

وكانت جميع المقالات والقصائد تدور حول موضوع واحد ، هو « المدينة » .

— ١١ —

وقد وجدت بين أوراقه ، فيما بعد ، هذه المذكرات :

« حين عدت إلى موسكو سنة ٢٢ ، وجدتها خاوية على عروشها ، يشيع فيها الخراب . كانت قد مرت لتوها بتجارب السنوات القليلة الأولى التى اعقبت الثورة ، وهى ما تزال تبدو بنفس المظهر إلى اليوم . سكانها قلة متناثرة ، ومبانيها القديمة لا تجدد ، وما من مبان جديدة تشيد فيها . لكنها برغم حالتها هذه ، ما تزال مدينة عظيمة عصرية . والمدن هى مبعث الوحى الوحيد للفن العصرى الحقيقى .

« وأن ما عمد إليه الرمزيون — امثال « بلوك » و « فيرهارين » ، و « ويتمان » — من سرد غير منظم للأشياء والآراء ذات المظهر المتنافر ، والتى إنما جمعوا بينها بطريقة تحكمية محضة ، لهو أمر بعيد عن أن يكون نزوة من نزوات الأسلوب . إنه ترتيب جديد للانطباعات والمشاعر قد استمدوه مباشرة من الحياة ، ونقلوه عن الطبيعة ذاتها . وكما يصورون المناظر المتتابعة فى عجلة ، من خلال سطور قصائدهم ، كذلك تتتابع شوارع المدينة المزدحمة امامنا ، بجموعها وزحامها وعرباتها التى كانت تجرها الجياد — فى نهاية القرن الماضى — او بقطاراتها الكهربائية ومركبات الترام والأوتوبيس ، فى مستهل هذا القرن !

« فمن اين يمكن ان تأتى بساطة الفن الريفية فى مثل هذه الحياة ؟ .. وحتى حين تبذل المحاولات فى هذا السبيل ، فإنها بحكم تجردها من الفن إنما تكون تزييفا أدبيا ، غير مستوحى من الريف بل مأخوذا من فوق ارفف المكتبات الأكاديمية ! .. ذلك ان اللغة الحية التى تتجاوب مع روح عصرنا الحاضر هى لغة المدن لا الريف !

« .. انى اعيش فى مفترق طرق صاخب .. وشمس الصيف تعشى الأبصار فى موسكو ، وأفنية المدينة المرصوفة بالأسفلت تشع حرارة لافحة ، ونوافذ الطوابق العليا يعكس زجاجها أشعة الشمس فى كل اتجاه .. والألوان الزاهية فى شوارعها تتعانق مع ألوان السحب التى تتمشى فى سمائها .. كل ذلك يطن من حولى ، اشبه بدوامة فيدير رأسى .. ويريد منى أن أدير رؤوس الآخرين بما أكتبه فى وصفه ! .. من أجل هذا لقنتنى المدينة الأدب ، ووضعت مشعل الفن بين أناملى !

« وأن الصخب والضجيج المتواصلان ، ليل نهار ، فى الشارع — خلف جدران مسكنى — ليتصلان اتصالا وثيقا بأفكار جيلنا ، مثلما تتصل انغام « الافتتاحية » الموسيقية بستارة المسرح المسدلة ، يخيم عليها الغموض والظلام ، وإن اضرمت النار فيها أضواء الخشبة الأمامية .. فالمدينة التى تطن وتصخب دون انقطاع خلف الأبواب والنوافذ ، أن هى إلا « افتتاحية » ضخمة هائلة لحياة كل منا . وعلى هذا المقياس ، وفى هذا المعنى ، اود أن اكتب عن المدينة » .

على أن كراسة القصائد التى تركها « جيفاجو » بعد

موته لم تتضمن شيئا فى هذا المعنى .. وإن كان يحتمل أن تدخل قصيدته « هملت » فى هذا النطاق .

— ١٢ —

وذات صباح ، فى أواخر اغسطس ، ركب يورى الترام من ناصية شارع (جازتنى) ليذهب إلى مستشفى بوتكين ، (الذى كان معروفا فى ذلك الحين باسم مستشفى سولداتنكو) . وكان ذلك يومه الأول فى عمله الجديد .

على انه لم يكن حسن الحظ فى ركوبه ذلك الترام ، إذ كان محركه مليئا بالعيوب ، فانتابته جميع أصناف المتاعب : من توقف لأن عربة وقفت فى طريقه ودخلت عجلاتها فى شق القضبان .. أو انقطاع للتيار الكهربائى فى سقفه أو فى أسفله .. أو تطاير شرارة محدثة ضجيجا وفرقعة ، نتيجة خلل فى الدائرة الكهربائية .

وكان السائق يخرج من مكانه فى كل مرة ، وينزل ليدور حول القاطرة ، ثم يروح يبحث هنا وهناك عن سبب العطل الطارىء ، محاولا اصلاحه ..

وهكذا أوقف ذلك الترام اللعين حركة المرور فى الخط كله ، وامتلأ الشارع بالقطارات الأخرى التى توقفت بدورها عن المسير ، وكان كل قطار يأتى يضطر إلى الوقوف بدوره فى الطابور الذى وصل إلى ميدان (مانيج) وما بعده !

وانتقل الركاب من نهاية الطابور إلى مقدمته ، بأمل

كسب بعض الوقت .. وإذا بهم يتجمعون فى العربة التى كانت سبب العطل كله ! . .وكان الجو حارا فى ذلك الصباح ، وازدحمت العربة حتى كادت تخلو من الهواء . وخيمت فوق رءوس تلك الحشود التى كانت تجرى فى الشارع غيوم راعدة ، أخذت تعلو وتعلو فى السماء ، منبئة باقتراب العاصفة .

وجلس يورى على مقعد منفرد إلى اليسار ، واتكا على النافذة . وكان يرى الجزء الأيسر من شارع (نيكيتا) ، وجانبا من معهد الموسيقى ، فراح يرقب المارة وهو شارد الذهن ، مشغول بالتفكير فى اشياء اخرى . كان يرى الناس يسيرون، او يقودون سياراتهم ، ولم يغفل عن مشاهدة اى من السائرين .

ولمح يورى على الرصيف سيدة رمادية الشعر ، ترتدى قبعة خفيفة من القش محلاة بالزهور ، وعليها رداء قديم يميل لونه إلى الحمرة ، وكانت تحمل ربطة رقيقة تحركها كالمروحة لجلب الهواء ، وقد امسكت بمنديل فى يدها الأخرى تمسح به شفتيها وجبهتها من العرق ، إذ بدا ان حرارة الجو والمشد القاسى الذى يلف جسدها قد ارهقتها .

وكانت تسير فى اتجاه مواز للترام ، ثم اختفت عن نظر يورى عدة مرات حين تحرك الترام بعد ان اجريت له الاصلاحات ، لكنه عاد فتوقف مرة اخرى ، وإذ ذاك لحقت هى به بعد أن كان قد جاوزها .

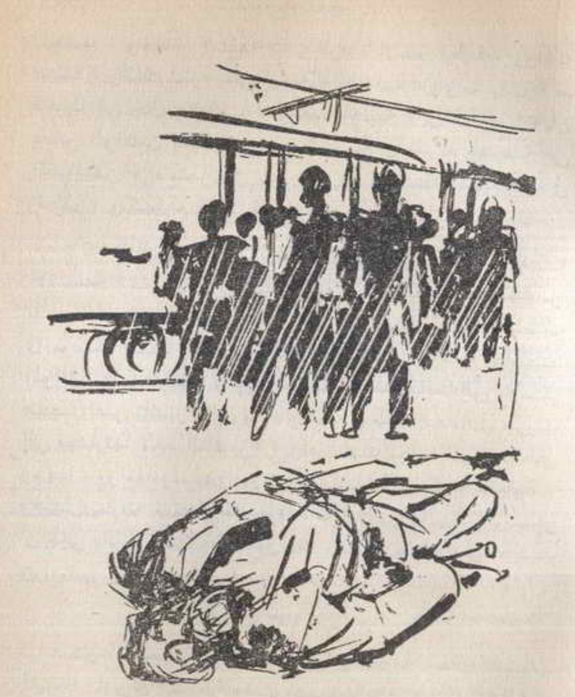
وراح يورى يفكر فى الغاز دروس الحساب حين كان

المدرس يسأله عن الوقت الذى يتقابل فيه قطاران قاما من مكانين متقابلين يسيران كل بسرعة تختلف عن سرعة الآخر حتى يصل كل إلى هدفه ، وحاول أن يتذكر كيف كانت تلك المسائل تحل ، ولكنه لم يستطع .. وانتقل من تلك الذكريات المدرسية إلى غيرها ، اكثر منها تعقيدا .. راح يفكر فى عديد من الناس تجرى حياة كل منهم متوازية مع الأخرى ، قريبة منها ، ولكن لكل حياة سرعتها الخاصة ، وكان فى عجب من الظروف التى تجعل بعضهم يتقدم على الآخر ويتركه متخلفا وراءه . هذا يموت وذاك يعيش وهكذا . وطافت بذهنه نظرية أشبه بالنسبية تنطبق على مسير الحياة البشرية ، ولكنها اختلطت فى ذهنه فلم يجد مندوحة عن تركها .

وبرق البرق وقصف الرعد ، وتوقف الترام السيىء الحظ للمرة العشرين ، توقف فى منقطة على سفح التل بين شارع (كودرينسكى) وحديقة الحيوان . وظهرت السيدة ذات الرداء الأحمر من نافذة الترام ومرت بها ثم سارت فى طريقها .. وسقطت اول قطرات المطر الثقيلة على الطريق وعلى الرصيف وعلى السيدة . وصفعت ريح قاسية الأشجار وهزت اوراقها هزا عنيفا ، كما هزت قبعة السيدة ولفعت ذيلها ثم سكنت فجأة .

وشعر يورى بأنه مريض يكاد يغمى عليه ، ولكنه تغلب على ضعفه وقام يحاول فتح النافذة بشد حبالها ، ولكنه لم يستطع تحريكها .

وصاح الناس فيه قائلين إن النافذة موصدة ، وإنها



وسار خطوة وثانية وثالثة .. ثم سقط على الأرض ولم يقم مرة أخرى ..

مثبتة فى مكانها بالمسامير ، ولكن يورى كان يكافح الإغماء ، وقد أصابه ما يشبه الذعر والفزع، فلم يدرك معنى الصيحات ولا أنها موجهة إليه . وكان لا يزال يحاول فتح النافذة فجذب حبالها إلى فوق وإلى تحت وإلى ناحيته ، وفجأة شعر بالم جديد مميت . وادرك ان شيئا ما قد تمزق فى جسمه ، لقد قام بحركة قاتلة ، واحس أن هذه هى النهاية . وفى اللحظة تحرك القطار ، فسار قليلا فى شارع «برسنيا» ثم توقف مرة اخرى !

وبارادة فوق طاقة البشر ، شق يورى طريقه وسط الزحام ، يتخبط ويكافح حتى وصل إلى الجزء الخلفى من العربة ، وكان الناس يعترضون طريقه ويشدونه فى كل اتجاه ، وبدا أن الهواء النقى انعشه ، وجال بخاطره احتمال عدم ضياع كل شىء ، وانه قد تحسن نوعا ما .. وراح يشق طريقه مرة اخرى فى الجزء الخلفى من العربة ، متعرضا لكل انواع الضغط والرفس والشتائم . ولم يهتم بكل ذلك حتى تحرر من الزحام واستطاع النزول من العربة إلى عرض الطريق ، وسار خطوة وثانية وثالثة .. ثم سقط على الأرض، ولم يقم مرة ثانية !

وكثر الكلام والمناقشات والنصائح . ونزل كثيرون من الترام وتجمعوا حوله ، وتأكدوا بعد قليل انه لا يتنفس ، وأن قلبه توقف عن الخفقان ! .. واتسعت الحلقة المحيطة بالجسد المسجى ، بمن انضم إليها من السائرين على الرصيف .. وكان بعضهم يبدى ارتياحه ، بينما خاب امل الآخرين لأن الميت لم يدهسه الترام بل مات ميتة طبيعية ! .. وزاد عدد

الحشد ، وجاءت السيدة ذات الرداء الأحمر ايضا ، ووقفت لحظة ، والقت نظرة على الجثة ، واستمعت إلى ما يقال ، ثم ذهبت إلى حال سبيلهـا . وكانت أجنبية ، ولكنها ادركت ان بعض الواقفين يحبذون وضع الجثـة فى الترام لنقلهـا إلى المستشفى ، بينمـا كان غيرهم يرى استدعاء الميليشـيا فى الحال ، ولكنها لم تنتظر لترى النتيجة .

كانت السيدة ذات الرداء الأحمر سويسريـة . أنهـا الآنسـة « فليرى » من (مليوزييفو) ، وكانت قـد بلغت من السن عتيا ، ومنذ اثنى عشر عاما كانت تكتب إلى السلطات فى موسكو للسماح لها بالعودة إلى وطنها ، واخيرا جاءتهـا الموافقة على الرحيل واجيب طلبها . وقد جاءت إلى موسكو لتحصل على تأشيرة الخروج، وكانت فى تلك اللحظة فى طريقها إلى سفارتها لأخذ التأشيرة ، وقد أخذت تجلب الهـواء على وجهها بأوراقها ومستنداتها ، التى لفتها فى ربطـة بشريط . وهكذا سارت ، فجاوزت عربة الترام للمرة العاشرة ، دون أن تلقى بالا إلى أنها خلفت وراءها جيفاجو ميتا ، بينما عاشت هى .

— ١٣ —

كان السـائر فى الممر يرى ركن الغرفة ،خلال البـاب المفتوح ، ويرى المنضدة وقد وضـعت بزواية إزاء الحائط . ووضع النعش على المنضدة ، فبدا كما لو كان قاربا قد اتجه طرفه الضيق إلى الباب ، وهو الطرف الذى يضم قدمى الجثة. وكانت المنضدة هى بعينها التى كان يورى فيما مضى يستخدمها

للكتابة ، ولم يكن بالغرفة غيرها ، وقد رفعت من عليها جميع الأوراق المخطوطة فنقلت إلى درج ، ووضع النعش محلها ، وقد رفع راس يورى على مخدات فمال الجسد كمـا لو كان على سفح تل .

واحيط الجثمان بقدر كبير جدا من الزهور . شجيرات باكملها من الزنبق الأبيض ، الذى يصعب الحصول عليـه فى هذا الموسم ، إلى جانب زهور «السيكلامان» و «السنيراريا» التى ملأت الأصص والسلال . وكانت أشعة الشمس الداخلة من النوافذ تتخلل الزهور المكدسة ثم تسقط على وجه الميت ويديه ، وعلى بطانة النعش وجوانبه الخشبية . بينما ترامت الظلال على المنضدة فى اطار من أوراق الشجر والأغصان ..

وكانت عادة حرق اجساد الموتى قد انتشرت على نطاق واسع فى ذلك الوقت .. وعلى امل الحصـول على معـاش للأولاد ، وتقديرا لمستقبلهم فى المدرسـة ، ومن أجـل مركز « مارينا » فى مكتب البريد ، تقرر غض النظر عن إقامة صلاة دينية على الجثمان ، وقصر الجنازة على عملية الحرق الدينية. وابلغت السلطات المختصة بذلك ، وكان وصول ممثلى تلك السلطات منتظرا بين لحظة واخرى .

وفى فترة الانتظار هذه ، بدت الغرفة كما لو كانت خالية، كما تبدو الشقة بعـد أن يخرج سكانها ، وتبقى فى انتظـار السكان الجدد . ولم يعكر السكون سوى تنقل المعزين على اطراف اصابعهم إلى حيث الجسد المسجى ، لوداعه .. ولم يكن عدد المعزين كبيرا ، ولكنه كان على أية حال اكثر مماكان

متوقعا . وكان نبأ وفاة هذا الرجل ، الذى يكاد يكون غير معروف لهم ، قد انتشر فى محيطهم بسرعة البرق . وكان من بين المعزين من تعرفوا إليه فى مراحل حياته المختلفة ، ثم انقطعت صلتهم به فيما بعد ، ونسيهم هو . وكان شعره وأعماله العلمية تجتذب إليه أصدقاء كثيرين . اناسا لم يقابلوا الرجل ابدا ولكنهم انجذبوا إليه وجاءوا الآن ليروه للمرة الأولى والأخيرة .

وفى هذه الساعات التى ساد فيها الصمت ، دون ان يتخلله اى مظهر من المظاهر الجنائزية ، اصبح واضحا ان الجو لا يحتمل ، إذ يسود شعور بالخلو مما يجب ان يكون فيه . ولم تكن هناك سوى الزهور لتحل محل التراتيل الدينية والأدعية . والواقع ان تلك الزهور كانت تقوم بدور أكثر من تجميل المنظر وبث الروائح الجميلة ، كانت أشبه بفتيات فرق المنشدات فى الكنائس ، تنتظم عقودا ، ويتدفق عبيرها ، وتصل روائحها القوية إلى كل من يدخل الحجرة ، فبدت كما لو كانت تقوم وحدها بالطقوس الدينية ، التى حرمتها الظروف .

وفى تفكيرنا يمكن اعتبار مملكة النباتات أقرب الجيران لمملكة الموت . ولعل أسرار الخلق وخفايا الحياة التى نتعذب فيها تتركز جميعا فى خضرة الأرض وبين أشجار المقابر وسيقان النباتات التى تزهر من براعمها . وحين خرج المسيح من القبر لم تتعرف عليه مريم ، وحسبته بستانى المقبرة !

— ١٤ —

وحين جىء بجثة يورى إلى شقة شارع (كاميرجر) — وكان هذا آخر عنوان مسجل له — هرع الأصدقاء الذين

ابلغوا بالوفاة فهزهم النبأ ، عبر الباب المفتوح على مصراعيه ، وجاءوا معهم بمارينا . وكانت الصدمة والحزن قد أتيا على نصف عقلها ، فألقت بنفسها على الأرض وراحت تضرب راسها بحافة الصندوق الخشبى الذى وضع فى الردهة ، والذى تركت عليه الجثة حتى تكنس غرفة الجلوس ، وحتى يصل النعش الذى أوصوا باحضاره . وكانت الدموع تنهمر من عينى مارينا ، وهى تصرخ وتولول ، وتنشج وتقف الكلمات فى حلقها ، ثم تصرخ من جديد . كان حزنها يجعلها تتكلم كثيرا كالفلاحين ، دون أن تعير التفاتا لوجود غرباء حولها . وتشبثت بالجثمان ، وكان من الصعب إلى حد كبير زحزحتها عنه حين جاء الوقت لنقله إلى الغرفة و « تغسيله » ووضعه فى النعش .

وقد حدث هذا كله فى اليوم السابق ، أما اليوم فقد خفت حدة الحزن نوعا ، وحل محله خدر قلق ، فجلست فى سكون وإن كانت لا تزال فى شبه غيبوبة لا تكاد تحس بنفسها ولا بمن حولها . لقد جلست طوال اليوم السابق وطول الليل دون ان تتحرك من مكانها ، وجىء إليها بالطفل لتطعمه ، ثم جاءت « كابكا » مع مربيتها الصغيرة لتراها .

واحاط بها الأصدقاء ، وحزن جوردون ودودوروف بقدر حزنها ، وكان ماركل والدها جالسا على المقعد بجوارها يبكى بصوت مرتفع لا يفوته إلا صوت انفه وهو يعتصره فى منديله ، وجاءت أمها الباكية واخواتها ثم ذهبن .

وكان بين الجمع رجل وامراة ، وقفا بعيدا عن الآخرين ،

لم يدعيا انهما اقرب إلى الميت من الآخرين . ولم ينافسا مارينا واولادها واصدقاءه فى الحزن . ولكن رغم انهما لم يزعما اى زعم ، فقد كان من الواضح ان لهما حقوقا خاصة على يورى . ولم يستهجن احد او يتساءل عن السيطرة الصامتة التى بدت عليهما إلى اقصى حد . إنهما الشخصان اللذان تعهدا بان يقوما بتنظيم الجنازة ، وقد اهتما بكل شىء من اول لحظة فى سخاء بدا انه يرضيهما ، وقد ساد شعور غريب من تصرفهما وثبات جأشهما ، كأنهما ليسا مسؤولين عن الجنازة فحسب بل عن الوفاة كذلك ، لا على اساس انهما — بطريق مباشر او غير مباشر — قد ارتكبا جرما ، ولكن على اساس انهما من اولئك الذين يرون انه إذا وقعت الواقعة فلا بد من مواجهتها ، ثم يتصرفون على أن ما حدث ليس هو اهم شىء مرتبط بيورى . وكانت قلة من المعزين تعرفهما ، وقلة اخرى تخمن من يكونان، اما الاغلبية فلم تكن لديها أية فكرة عنهما .

ومع هذا ، فحينما كان الرجل ، ذو العينين القرغيزتين الضيقتين، المثيرتين للعجب، والمعبرتين عنه ، حينما كان يدخل الغرفة مع السيدة الجميلة ، كان جميع من بالغرفة ، حتى مارينا ، ينهضون من على مقاعدهم دفعة واحدة — كما لو كانوا على اتفاق — ويخرجون فيحتشدون فى الممر والردهة ، تاركين الاثنين وحدهما خلف ابواب نصف مغلقة ، كما لو كانا مستشارين احتاج الأمر إليهما لتنفيذ شىء يتصل اتصالا مباشرا بالجنازة ، وأن هذا الذى يستشاران فيه امر حيوى .

هكذا كانت الحال فى تلك المناسبة .. بقيا وحدهما

جالسين على مقعدين بالقرب من الحائط ، وراحا يتحدثان كرجال الأعمال :

— ماذا وجدت يا ايفجراف أندرييفيتش ؟

— ستحرق الجثة الليلة ، سيحضرون خلال نصف ساعة من نقابة الأطباء للكشف على الجثمان ثم يأخذونه إلى ناديهم . وتقام الجنازة المدنية فى الساعة الرابعة . ولم تكن ورقة واحدة من اوراقه مرتبة ، ولم يكن يسجل شيئا فى دفتر الإنتاج منذ عهد بعيد ، ووجدت عنده بطاقة نقابية قديمة ، لم يستبدلها بالبطاقة الجديدة ، ولم يدفع الاشتراكات منذ عدة سنوات . ولا بد من تنظيم هذا كله ، وهذا هو السبب فى ضياع كل هذا الوقت . ولا بد لنا من الاستعداد قبل ان يأخذوه ، وسوف يتم هذا عاجلا . سأتركك هنا بمفردك كما طلبت ، وأنا آسف . هذا هو التليفون . لن اتأخر دقيقة ..

وخرج ايفجراف إلى الممر المزدحم بزملاء يورى الذين لا يعرفهم ، وبأصدقاء الدراسة ، وصغار موظفى المستشفى ، وبعض الطباعين وباعة الكتب ، وجلست مارينا وقد احتضنت ولديها ، وعمدت إلى تدفئتهم بإدخالهم تحت المعطف الذى وضعته على كتفيها ، فقد كان اليوم باردا . وجلست على حافة المقعد الخشبى فى انتظار العودة إلى حجرة الجلوس ، كزائر جاء ليرى سجينا فى زنزانته ، فهو ينتظر وصول الحرس لإدخاله إلى غرفة الزيارة . وكان الممر والردهة قد ازدحما

باكثر مما يحتملان ، وقد فتح الباب الخارجى ووقف كثيرون يدخنـون او يتحركون جيئـة وذهابا فى المدخـل ، بينما وقف آخرون على درج السلم المؤدى إلى الطـابق الأرضى ، وكان أعلاهم صوتا واكثرهم حرية اولئك الذين كانوا فى نهاية السلم بالقرب من باب الشارع .

وكان ايفجراف يجيب على أسئلة تلقى إليه فى التليفون عن ترتيبات الجنازة والظروف التى توفى فيها الدكتور ، وكان يبدو عليه الضيق من الضجيج والصخب حوله ، وقد ظهر ذلك فى نبرات صوته الأجش . ولما انتهت المكالمة عاد إلى غرفة الجلوس واستأنف الحديث :

— ارجوك يا « لارا فيودوروفنا » الا تختفى عن ناظرى بعد حرق الجثة . إنى لا أعلم اين تقيمين . ارجو الا تختفى دون أن تبلغينى ، فسوف التمس منك معروفا جزيلا : انى أريد فرز أوراق اخى باسرع ما يمكن ، غدا او بعد غد ، وسأحتاج إلى معونتك ، فانت تعرفين عنه الكثير — ربما اكثر من أى إنسان آخر — وانت تقولين إنك جئت من (اركتسك) منذ يومين ، ولن تمكثى طويلا ، وانك جئت إلى هنا بمحض الصدفة ، لسبب غير هذا ، دون أن تعرفى ان هذه شقة اخى فى الشهور الأخيرة، أو ان شيئا قد حدث له . إننى لم افهم كل ما قلت ، ولست اطلب إليك إيضاحات ، ولكنى ارجوك الا تذهبى دون أن تتركى لى عنوانك . وإنى افضل قضاء بضعة الأيام التى نحتاج إليها لفرز هذه المخطوطات فى هذا البيت بالذات أو بالقرب من هنا على الاقل ، وقد يكون ذلك

فى غرفتين من هـذا المبنى . ويمكن تدبير ذلك فانى أعرف مدير المبنى .

— تقول إنك لم تفهم كلامى ؟ ماذا تريد أن تفهم ، أو ماذا هنالك يحتاج إلى فهم ؟ ! لقد وصلت إلى موسكو وتركت حقائبى فى المحطة ورحت اتمشى فى بعض شوارع موسكو القديمة ، وادركت أننى لم اتعرف على نصفها ، فقد مضى وقت طويل منذ تركتها . وهكذا سرت وسرت وعبرت كوبرى كوزنتسكى وسرت فى حارة كوزنتسكى ، وفجأة .. وجدت نفسى اسير فى شارع قريب جدا إلى نفسى هو شارع كاميرجر . كان هذا الشارع موطن انتيبوف زوجى الذى قتل ، حين كان طالبا . كان يقطن فى هذا البيت وفى هذه الحجرة بالذات التى نجلس فيها الآن ! .. وقررت ان ادخل ، فمن يدرى ، لعل السكان القدامى لا يزالون هناك ، إنى احب ان أزورهم ، وهكذا ترى اننى لم اكن اعلم ان كل شىء قد تغير ، فان أحدا لا يكاد يذكر اسماءهم ، ولم اكتشف ذلك إلا متأخرة فى اليوم التالى ، وجاء ذلك بالتدريج عن طريق سؤال الجيران. ولكنك كنت هنا . لست ادرى لماذا اقول لك هذا . لقد صعقت تماما . الباب مفتوح على مصراعيه والناس محتشدون فى كل مكان ، وهناك نعش فى الغرفة وبه رجل ميت ! ترى من يكون؟ دخلت وتقدمت لأرى ، خيل إلى اننى جننت واننى اهذى ، ولكنك كنت هناك ورايتنى ، اليس كذلك ؟ لست ادرى بحق الأرض لماذا اقول لك هذا كله ؟

— لحظة .. لحظة واحدة يا لارا فيودوروفنا . لقد قلت لك إنه لا يورى ولا انا كانت لدينا اية فكرة عن صلتك

الغريبة بهذه الغرفة او أن انتيبوف كان يشغلها فى وقت ما . ولكن الذى يدهشنى اكثر من كل شىء هو تعبير استخدمته الآن عن انتيبوف ستربلنيكوف . لقد قابلته فى بداية الحرب الأهلية مرتين او ثلاث مرات ، دون أن ادرك طبعا أن اسمه سيعنى الكثير بالنسبة لى، لأسباب عائلية .. ولكن اعذرينى، قد اكون اخطأت فى الانصات إليك ، او لعلها فلتة لسان ، ذلك انك قلت إنه « قتل » . لا بد انك تعلمين بالتاكيد انه قتل نفسه .. اطلق على نفس الرصاص ! ؟

— نعم .. لقد سمعت هذا ولكنى لا اصدقه . إن بافيل بافلوفيتش ليس من اولئك الرجال الذين ينتحرون !

— ولكن ذلك ليس مؤكدا كما تعلمين .. لقد قال يورى إن انتيبوف اطلق الرصاص على نفسه فى ذلك البيت الذى كنتما تقيمان فيه قبل أن تذهبى إلى فيلاديفستك . وقد حدث ذلك بعد ان سافرت مباشرة ، وقد وجد اخى جثته ودفنه . فكيف لم يبلغك ذلك ؟

— إن ما قيل لى يختلف عن هذا .. فهل اطلق على نفسه الرصاص حقيقة ؟ .. إن الناس قالت ذلك ، ولكنى لا اصدقه .. وفى ذلك البيت بالذات ؟ إن ذلك لا يبدو ممكنا .. ان هذه التفاصيل هامة جدا بالنسبة لى . إذن انت لا تعلم إذا كان قد تقابل مع جيفاجو ، او انهما كانا يعرفان بعضهما ؟

— لقد تبادلا حديثا طويلا كما قال لى يورى .

— هل هذا حق ؟ إذن اشكر الله .. اشكر الله ، فهذا افضل !

ورسمت انتيبوفا الصليب ببطء ، واستطردت تقول :

— ما اعجب هذه المصادفات ! هل تسمح لى ان اعيد سؤالك فى هذا الموضوع فيما بعد ؟ إن كل شىء من تفاصيله عزيز على جدا . ولكنى الآن لا استطيع . إنى فى غاية الاضطراب . ساهدا قليلا لاستجمع افكارى . هل تعذرونى ؟

— طبعا . ! طبعا !

— آه .. نعم .. لقد كدت انسى . لقد طلب إلى الا اسافر بعد حرق الجثة . حسنا .. اعدك . لن اختفى . ساعود إلى هنا معك وسابقى حيث تريدنى ان ابقى ، طالما كان وجودى ضروريا . سنفرز كل مخطوطات يورى ، وساعاونك فى ذلك . وفى الحق قد اكون ذات فائدة لك . إنى اعرف خطه جيدا . احفظه عن ظهر قلب . إنى اعرفه بكل قطرة فى دمائى . ثم إن هناك شيئا احب ان اسالك عنه واود أن تعاوننى فيه . احسبنى سمعت انك محام ؟ او على الأقل انت على علم بعادات هذه الأيام ولوائحها . وثمة شىء آخر ، إنى فى حاجة إلى معرفة اية مصلحة حكومية استطيع ان اتقدم إليها للحصول على معلومات . إن قليلا من الناس من يستطيعون الإجابة عن سؤال كهذا . الست تعتقد ذلك انت ايضا ؟ إنى فى حاجة إلى نصيحتك فى امر مرعب ، امر مرعب حقا . إنه امر طفل . ولكنا سنتحدث عن ذلك فيما بعد ، بعد ان نعود من عملية الحرق . قل لى .. افرض .. إنه ، فى حالة خيالية تماما ، كان من الضرورى اقتفاء اثر طفل ، طفل سلم لبعض الأجانب لتربيته ، فهل تعتقد ان هناك اى نوع

من مصادر المعلومات العامة عن « بيوت حضانة الأطفال » فى أنحاء البلاد كلها ؟ وهل هناك اى نوع من السجلات عن اللقطاء والمشردين ، أو أن هناك محاولات من هذا القبيل ؟ كلا .. لا تقل لى شيئا الآن . أرجوك . سنتحدث فى هذا فيما بعد . إنى خائفة إلى اقصى حد . إن الحياة مرعبة ، الا ترى هذا الراى ؟ لست ادرى شيئا عن المستقبل حين تجىء ابنتى لتعيش معى ، ولكن فى اللحظة الراهنة لا أجد ما يمنعنى من البقاء فى هذه الشقة . إن « كاتيا » تظهر مواهب موسيقية خارقة ، ومواهب أخرى فى التمثيل . إنها تجيد تقليد الناس وتغنى أوبرا كاملة سماعيا . إنها طفلة عجيبة .. الست من هذا الراى؟ اريد أن الحقها بالفصول الأولى بمدرسة الدراما ، أو بمعهد الموسيقى ، ايهما يقبلها ، ولا بد لى من إلحاقها بالقسم الداخلى . ولهذا السبب جئت بدونها حتى اتخذ التدابير اللازمة لذلك . إن الأمور معقدة إلى حد كبير .. الا ترى ذلك ؟ . إنك لا تستطيع ان تفسر كل شىء . ولكنا سنتحدث فى هذا فيما بعد . والآن سأبقى هنا بعض الوقت ، وسأستجمع قواى . سأبقى هادئة واستجمع افكارى واحاول الا ابدو خائفة . وفضلا عن هذا فقد تركنا اصدقاء يورى بالخارج مدة اطول من اللازم . وقد خيل إلى اننى سمعت بعضهم مرتين يدق على الباب . وهناك أشياء تحدث بالخارج، ولعلهم قد عادوا من عند « الحانوتى » . سأبقى ساكنة هنا بعض الوقت ،فيحسن بك أن تفتح الباب وتسمح لهم بالدخول، فقد حان الوقت . الست ترى ذلك ؟ انتظر .. انتظر .. ينبغى أن يكون هناك مقعد صغير حتى يمكن الارتفاع إلى

مستوى النعش . لقد حاولت رؤية يورى وانا اشب على أطراف أصابعى ، وكان ذلك من الصعوبة بمكان . ولا شك ان مارينا والأطفال سيحتاجون إلى ذلك . فضلا عن ذلك ان ذلك منصوص عليه فى الطقوس الدينية التى تقول «وستقبلوننى القبلة الخيرة » .. اوه .. كلا .. إننى لا احتمل .. لا أستطيع .. ما ابشع هذا .. الا ترى هذا الراى ؟؟

ـ سأسمح لهم بالدخول ، ولكن هناك امرا واحدا قبل ذلك .. لقد قلت اشياء كثيرة غامضة ، وسألت اسئلة من الواضح انها تؤلمك حتى انى لا ادرى ماذا اقول لك . ولكن هناك شيئا واحدا أريد أن تعرفينه . ارجوك الاعتماد على معاونتى لك فى كل ما يقلقك . إنى اعرض ذلك عليك بكل رضى وارتياح ومن كل قلبى ، واذكرى انه ينبغى عليك الا تفقدى الأمل ابدا .. ابدا مهما كانت الظروف . ان نأمل وان نعمل هذا هو واجبنا فى الملمات، اما الا نعمل شيئا ونستسلم لليأس فذلك إهمال لواجبنا . والآن سأذهب لإدخال المعزين ، وانت على حق بالنسبة لذلك المقعد الذى تطلبينه. سآتى به فورا .

ولكن « لارا » لم تكن تنصت إليه . لم تسمعه وهو يفتح الباب ، ولم تر الناس وهم يندفعون إلى الحجرة من الممر ، ولم تسمع توجيهاته لمنظمى الجنازة ولاهم المعزين . لم تسمع ضجيج الزحام ولا بكاء مارينا ولا نحنحة الرجال وولولة النساء وبكاءهن .

كان الحشد يتحرك حولها والأصوات الرتيبة تجعلها تحس بالغثيان ، وقد جاهدت بكل قواها حتى لا يغمى عليها .

كان قلبها يكاد ينفجر وراسها مصدوعا . فاغلقت عينيها وانطلقت تفكر فى ذكرياتها وتقديراتها وتخميناتها . هربت من الواقع إلى الخيال ، عاشت فى مستقبل قد لا تراه ، مستقبل يكبرها ببضعة اجيال ، مستقبلها حين تصبح مسنة !

لم يبق احد . لقد مات واحد ، وانتحر الآخر ، والوحيد الباقى حيا الذى كان ينبغى أن يقتل ، الذى حاولت أن تقتله يوما واخفقت ، الغريب الذى لا تجمعها به صلة ، الذى جعل حياتها سلسلة من الجرائم دون ان تعلم .. ذلك الوحش الذى يطوف بربوع آسيا ، والذى لا يعرفه إلا هواة جمع طوابع البريد .. نعم ، لم يبق لها واحد من الأقربين ، او الضروريين النافعين .

كان ذلك فى ليلة الميلاد منذ دهر طويل ، حين صممت على قتل ذلك اللعين ، وكان قد دار بينها وبين « باشا » حوار فى الظلام ، فى هذه الغرفة بالذات ، وكان « باشا » لا يزال صبيا صغيرا ، ولم يكن يورى ، هذا الذى يودعونه الآن ، قد دخل حياتها بعد .

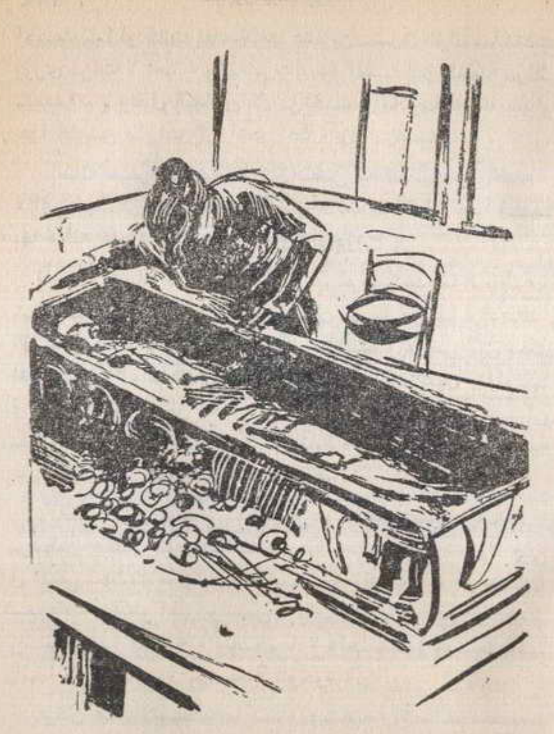
وشحذت ذاكرتها لتذكر ذلك الحديث الذى تبادلته مع باشا ليلة عيد الميلاد ، ولكنها لم تذكر سوى الشمعة التى كانت موقدة على حافة النافذة ، وقد اذابت جزءا مستديرا من الثلج العالق بزجاجها .

ولكن كيف لها ان تعرف ان يورى ، هذا الذى ترقد جثته هنا على المنضدة ، كان راى تلك الشمعة من الخارج حين مر

بالدار .. وانه منذ اللحظة التى راى فيها لهب الشمعة ، تغير مجرى حياته !

وراحت افكارها تسبح .. كانت تفكر : « يا للحسرة ! .. لكم يحزننى انهم لن يصلوا عليه فى الكنيسة ، إن مراسم الدفن رائعة وعظيمة . إنها اعظم مما يستحق كثير من الناس حين يموتون ، ولكن حبيبى يورى يستحق هذه الفرصة النبيلة ! إنه يستحق كل هذا البكاء الذى يتحول إلى تسابيح » .

وشعرت بموجة من الاعزاز والارتياح ، كما يحدث لها دائما حين يخطر يورى ببالها ، وفى الفترات القصيرة من حياتها التى قضتها إلى جواره . وامتلأت رئتاها بنسمة من تلك الحرية وعدم المبالاة التى كانت من خصائصه ، يشيعها جوه . ونهضت فاقدة الصبر من مقعدها . إن شيئا لا تدركه يحدث لها . فى حاجة ، ولو لبضع دقائق ، إلى أن تفر بمعونة يورى إلى الحرية ، إلى الانطلاق من الأحزان التى تقيدها ، وان تشعر مرة اخرى بلذة التحرر . وخيل إليها ان مثل هذه اللذة يمكن أن تجنيها إذا ذهبت لوداعه ، إذا استعملت هذا الحق والفرصة لتبكى ما وسعها البكاء دون أن يمنعها مانع .. وتلفتت حولها فى الزحام وقد امتلأت بحماسة العاطفة ، بعينين متالمتين لا تريان ، من فرط ما ملأتهما الدموع ، كانت كمن ذهبت إلى طبيب العيون ، فقطر لها فى عينيها مادة كاوية ! .. وبدا الناس يتحركون ويخرجون من الغرفة ، تاركينها اخيرا وحدها خلف ابواب نصف مغلقة .. فاتجهت إلى المنضدة التى يعلوها النعش ، حيث رسمت الصليب بسرعة ، وصعدت فوق المقعد الصغير الذى احضره إيفجراف ، ثم رسمت الصليب



ارتجف جسمها كله من شدة البكاء ، وكانت تكافح دموعها بقدر ما تستطيع ..

ثلاث مرات على الجثة وضغطت بشفتيها على الجبين البارد واليدين .. وقاومت ذلك الشعور الذى انتابها بأن البرد جعل الجمجمة تنكمش كما تنكمش قبضة اليد ، فجاهدت لاستبعاد هذا الخاطر . ووقفت جامدة صامتة لحظة او نحوها ، لا تفكر ولا تبكى .. ثم انحنت فوق النعش ، والزهور والجثة ، فغطتها جميعا بجسمها كله ، براسها وصدرها وقلبها ويديها .. بقوة كقوة قلبها !

- ١٥ -

وارتجف جسمها كله من شدة البكاء ، وكانت تكافح دموعها بقدر ما تستطيع ، ولكن ذلك كان فوق طاقتها ، فكانت الدموع تتفجر منها ، وتتدفق على وجنتيها ، وتتساقط على ردائها ويديها والنعش الذى تشبثت به ..

ولم تنطق او تفكر . إن أفكارا عديدة ، عموميات ، حقائق اكيدة ، راحت تتتابع - بارادتها - فى راسها ، حرة الحركة كالسحب فى السماء ، أو كتلك المحاورات التى كانا يتبادلانها فى الظلام فى الأيام الخوالى . تلك المحاورات التى كانت تجلب لهما السعادة والشعور بالتحرر فى تلك الأيام .. كانت تجلب لهما معرفة لا تنبع من الراس ، بل معرفة دافئة كانا يتبادلانها تلقائيا وبالغريزة ..

مثل هذه المعرفة تغمرها الآن ، معرفة مظلمة مبهمة عن الموت ، استعداد للموت محا كل الشعور بالعجز فى مواجهته .

أحست كما لو كانت قد عاشت عشرين مرة ، وأنها فقدت يورى مرات لا تعد ، وانها مرت بهذه المشاعر القلبية مرات متعددة .. وخيل إليها ان كل ما تشعر به وما تفعله بجوار هذا النعش صواب إلى اقصى حد ، وفى موضعه .

لطالما شعرا بصحة ما كان يتغنى به الناس عن الحب : « اى حب كان حبنا .. اى حرية كانت فيه ، اى جدة اتصف بها ، انه كان شيئا لا مثيل له فى الوجود ! » .

إنهما لم يتحابا من اجل ضرورة .. لم تستعبدهما العاطفة ، كما يوصف العشاق . وإنما تحابا لأن كل ما حولهما أراد ذلك: الأشجار ، السحب ، السماء التى تظللهما والأرض التى تحت اقدامهما . العالم الذى يحيط بهما والأغراب الذين يقابلونهما فى الطريق . المناظر الطبيعية التى تمتد امامهما حين يسيران معا ، الغرف التى عاشا فيها او تقابلا ، هذه كلها كانت راضية عن حبهما أكثر مما كانا هما نفساهما !

لقد كان ذلك ، بالطبع ، هو ما جمعهما وجعلهما مرتبطين هكذا ، لم يفقدا شعورهما ابدا . ابدا .. ولا حتى فى اقصى لحظات سعادتهما الضارية المفعمة .. لم يفقدا شعورهما بما هو اعلى وأسمى ، بجمال الدنيا وبهجة الوجود ، واشكال هذه البهجة ، وجمالها ، وإحساسها بصلتها بها وانهما جزء منها .. من بهجة الوجود !

وكان هذا الانسجام هو نسيم حياتهما ، ولهذا لم تجتذبهما فكرة تاليه الإنسان التى تفشت اخيرا ، فمثل هذه الفكرة الاجتماعية الى استخدمت فى السياسة كانت تصدمها ، كفكرة

هواة صنعت محليا ، ولم يكن فى قدرتهما استيعابها والاستجابة لها !

- ١٦ -

والآن راحت تودعه وترثيه بكلمات سهلة ، متداولة ، واقعية ، لا تكاد تعنى شيئا . لا تعنى أكثر من التردد .. إنها اشبه بالمنلوجات التى تحشر فى التراجيديات ، او بأسلوب الشعر او الموسيقى، أو بأى تعبير آخر تبرره ظروف العواطف المتأججة .

وكان التبرير فى هذه الحالة التى سيطرت على الألفاظ التى نطقت بها فى يسر ودون إعداد ، هو دموعها التى استحمت فيها كلماتها ، وسبحت ، وغرقت !

وبدا ان هذه الكلمات المختلطة بالدموع تترابط ببعضها البعض من تلقاء نفسها ، وتتصل فى تمتمة رقيقة ، سريعة ، ناعمة .. « ها نحن اولاء مرة أخرى أيها العزيز يورى ، يا حبيبى يورشكا .. يا لغرابة الوسيلة التى يجمع بها الله شملنا !.. ما افظع التفكير فيها .. لم اعد أستطيع الاحتمال . آه يا إلهى . لم اعد استطيع سوى ان ابكى وأبكى . اترى ؟ .. هاك وجها جديدا للشبه بيننا ، يجمعنا .. إن فى ذهابك نهايتى ! .. وهاك شيئا آخر جليلا لا مهرب منه . نحن نفهم لغز الحياة .. ولغز الموت .. وجمال العبقرية .. وجمال الحب .. نعم ، كل هذا نفهمه . أما تلك التفاهات كمسألة إعادة تشكيل العالم ، هذه الأشياء ، كلا وشكرا ، إنها ليست لنا .. !

« وداعـــا يا أعظم ما لى ، يا أعز ما لى ، يا مملكتى ، وكبريائى .. وداعا يا نهرى السريع العميق ، إلى أى حـد احببت موجاتك المتلاحقة ، وإلى أى حد احببت السباحة بين طياتها المنعشة !

« تذكر كيف تبادلنـــا الوداع فى ذلك اليوم ، وتحت كل ذلك الصقيع .. اى لعبة تلك التى لعبتها ؟ هل كان يمكن ان اذهب بدونك ؟ اوه . إنى اعرف. اعرف انك اضطررت إليها ، وكنت تعتقد ان ذلك لصالحى . وبعد ذلك ســـار كل شىء فى الطريق الخاطىء .. يا إلهى ، ماذا فعلت بعدئذ ، وأى طريق سرت فيه ! ولكن .. إنك لا تعلم شيئا عن ذلك كله . اى شىء فعلت يا يورا .. اية حماقات !.. إنى مجرمة .. اكثر مما تتصور ! .. ولكنها لم تكن غلطتى . لقد مرضت بالمستشفى ثلاثة شهور ، وقضيت شهرا كاملا فى غير وعيى . ومنذ ذلك الحين وحياتى لا قيمة لها يا يورى . ضاع السلام من قلبى . لست أستطيع أن أحيا حياة البؤس والشفقة .. ولكنى لم احدثك عن اهم شىء . إنى لا اقوى على ان اقوله . ليســت لدى القدرة على النطق به . فى كل مرة افكر فى تلك الفترة من حياتى اشعر بالعجز .. شعر راسى ينتصب . ما افظع ذلك. ولعلك تعرف اننى لست متاكدة اننى ساعود إلى طبيعتى مرة اخرى .. ولكنك ترى ، اننى لم اصـــبح سكيرة كمـــا يفعل كثيرون ، لقد قاومت ذلك لأن المرأة السكيرة .. إنها النهاية . إن ذلك مستحيل . الا ترى ذلك » ؟

وراحت تتكلم وتتكلم ، وتبكى ، وتعذب نفسها .. وفجأة رفعت راسها ، ونظرت حولها فى دهشة .. كان آخر عهدها

بالغرفة انها تعج بالضوضاء التى يثيرها المعزون .. فأين ذلك كله ؟ .. وهبطت من فوق مقعدها الصـــغير ، وابتعدت عن النعش وهى تضغط براحتها على عينيها كمـــا لو كانت تريد التخلص من الدموع التى لم تنضب بعد ، لتنثرها بأصابعهـــا على الأرض .

وتقدم ستة رجال إلى النعش ، ورفعوه ، وحملوه إلى الخارج ..

— ١٧ —

مكثت لارا عدة أيام فى شارع (كاميرجر) . وكان فحص اوراق « يورى » قد بدا بمساعدتها ، ولكنه انتهى بدونها .. كانت قد افضت إلى « ايفجراف » بسر خطير ! .. وذات يوم، خرجت لارا ، ولم تعـــد .. ولا بد انها اعتقلت فى الطـــريق — فكثيرا ما كان هذا يحدث ، فى تلك الأيـــام — ثم ماتت او اختفى اثرها فى مكان ما ، منسية .. مجرد رقم — دون اسم — فى قائمة نسى أمرها فيما بعد ، فى واحد من معسكرات الاعتقال المختلطة ، او معسكرات الاعتقال النسوية ، التى لا حصر لها .. فى الشمال !

الفصل السادس عشر

نهاية المطـاف

— ١ —

كان جوردون — الذى رقى اخيرا إلى رتبة المـلازم — والميجور « دودوروف » عائدين إلى وحدتيهما : الأول من مهمة رسمية فى موسكو ، والآخر من عطلة استغرقت ثلاثة ايام . وكان ذلك فى صيف سنة ١٩٤٣ ، عقب اختـــراق حصـــار (كورسك) ، وتحرير (اوريل) .

والتقيا فى الطريق ، فقضيا الليلة فى (تشيرنى) . وهى بلدة صغيرة لم تكن قد دمرت تماما ، وإن غدت أطلالا خربة ، كما كانت حال معظم الاماكن المـاهولة فى هـــذه « المنطقـــة الصـــحراوية » ، التى تركت فى اعقـــاب الغـــزاة الألمان المتراجعين .

وبين أكوام الطوب المهشم ، والأحجار المسحوقة إلى تراب رفيع ، وجدا مخزنا للغلال لم يصب بضر ، فاستقرا فيه ليقضيا ليلتهما . وما إن أغفى « دودوروف » أخيرا ، حوالى الساعة الثالثة صباحا — قبيل الفجر بقليل — حتى استيقظ سراعا ، على حركـات « جوردون » المتململ المضطرب .. كان يغوص فى التبن الناعم ، ويخوض خلاله وكأنهـا فى ماء . وقد جمع بعض الثياب فى حزمة ، واخذ ينزلق فى ارتباك من قمة كثيب التبن ، نحو مدخل المخزن .

وسأله دودوروف : « إلى اين تراك ذاهبا ؟ .. إن الوقت مبكر » .

— اننى ذاهب إلى النهر ، ابتغى غسل ثيابى .

— هــذا جنون ، إذ اننا لن نلبث أن نكون فى وحدتنـا حوالى المساء ، وسوف تعطيك « تانيا » — الفتـاة الموكلة بالمغسل — غيارا نظيفا .. ففيم التعجل ؟

— لست اريد ان انتظر حتى ذلك الحين ، فان الملابس قذرة ، تنضح بالعرق . ولسوف افركها بسرعة ، ثم اعصرها جيدا ، ولن تستغرق وقتا يذكر — فى هذا الحر — حتى تجف .. ومن ثم استحم واستبدل ثيابى .

— انها مسـألة غير مستحبة ، فانت — على اية حال — ضابط !

— إن الوقت مبكر ، وليس ثمة إنســان ما ، فالجميع نيام . ومهما يكن ، فسوف أستتر وراء بعض الأشجار الكثيفة ، او اى شىء آخر . ولن يرانى احد . فكف عن الحديث ، وعد إلى نومك ، والا استكملت صحوك .

— الواقع اننى لن انام ثانية ، بعد هذا .. سآتى معك !

وهكذا ذهبا إلى النهر ، وتجاوزا الأحجـار البيضـاء المهدمة ، التى زادتها الشمس الحامية بياضـا ، برغم أنه لم يكن قد انقضى وقت يذكر على الشروق . وكان الناس ينامون على الأرض ، تحت الشمس ، فى البقاع التى كانت شوارع يوماً ما ، وقد سـال عرقهم ، واحمـرت وجوههم ، وارتفع غطيطهم . وكان اغلبهم من اهالى البلدة الذين فقدوا بيوتهم ،

من كهول ونساء وأطفال ، وبينهم حفنة من رجال الجيش الأحمر الذين فقدوا الاتصال بوحداتهم ، وكانوا يحاولون اللحاق بها .

وتجاوزهم «جوردون» و « دودوروف » ، وهما يختاران مواقع اقدامهما فى حذر ، حتى لا يزعجا نومهم .. وهمس جوردون لصاحبه : « خفض من صوتك وإلا ايقظت المدينة ، وإذ ذاك فقل العفاء على غسيلى » !

ومن ثم واصلا الحديث الذى بدآه فى الليلة السابقة ، بصوت خفيض .

— ٢ —

— ما هذا النهر ؟

— لست ادرى .. لعله نهر (زوشا) .

— لا ، ليس هذا (زوشا) .

— إذن فلست ادرى ما هو .

— إنك لتدرى ان على نهر (زوشا) جرى كل شىء .. اعنى مسألة « كريستينا » !

— أجل ، ولكن هذا حدث فى المجرى الأدنى ولا بد .. ويقولون إن الكنيسة قد طوبتها .. هل قدر لك أن تعرف تفصيلات اخرى علاوة على ما نشر فى الصحف ؟

— لا ، فى الواقع . لقد كان ثمة مبنى حجرى قديم ، كانوا يطلقون عليه اسم « الحظائر » ، إذ كان يستعمل من

قبل كحظائر لمزرعة لتربية الخيل .. وها قد قدر للاسم ان يسجل فى التاريخ .. إنه مبنى جد عتيق ، ذو جدران ضخمة سميكة، وقد حوله الألمان إلى حسن منيع .. وكان يقوم فوق تل ، فاستطاعوا ان يجعلوا المنطقة كلها تحت نيرانهم ، وان يوقفوا تقدمنا فى الزحف . فلم يكن ثمة بد من هدمه . وعلى ذلك ، استطاعت « كريستينا » — بمعجزة من معجزات الشجاعة والعبقرية — ان تصل إلى داخل الصفوف الألمانية ، وأن تنسف المكان .. وقد اخذوها حية ، وشنقوها !

— ولماذا تسميها « كريستينا اورليتسوفا » وليست « دودوروفا » ؟

— لقد كنا خطيبين فحسب ، كما تعلم . وقد قررنا فى صيف سنة ١٩٤١ أن نتزوج فى نهاية الحرب . ثم رحت انتقل بعد ذلك فى كافة الأرجاء مع الجيش ، إذ نقلت وحدتى عددا لا حصر له من المرات .. وفى سياق ذلك فقدت الاتصال بها ، ولم يقدر لى ان اراها ثانية البتة ، وإن كنت سمعت عن بسالتها وعن ميتتها البطولية — كما سمع اى امرىء آخر — من الصحف ومن أوامر الجيش . ويقولون انهم سيقيمون نصبا تذكاريا لها فى بقعة قريبة من هنا . كما سمعت أن «جيفاجو» — الجنرال ، أخا « يورى » — يطوف بالمنطقة ليجمع مزيدا من البيانات عنها .

— ارجو المعذرة .. فما كان ينبغى ان اسوقك إلى الحديث عن هذا الأمر . لقد كدرتك .

ـ لا ، ليس الأمر كذلك .. على انني لا اريد ان اعوقك . فاخلع ثيابك ، وانزل إلى الماء ، وقم بمهمتك . أما أنا فسأستلقى على الضفة ، وامضغ عرقا من العشب وانصرف إلى التفكير .. بل اننى قد انام قليلا .

وبعد لحظات قلائل ، شرعا يتجاذبان اطراف الحديث ثانية :

ـ أين تعلمت ان تغسل الثياب على هذا النحو ؟

ـ الضرورة أم الاختراع ! . .كنا منكودى الحظ ، وقد ارسلنا إلى اسوأ معسكر تأديبى تقريبا ، حتى انه لم يعش منا سوى نفر ضئيل .. ولكن ، لنبدأ بالوصول .. هبطنا من القطار ، فاذا بنا فى صحراء جليدية ، وكانت ثمة غابة عن بعد ، وحراس ذوو بنادق شرعت فوهاتها نحونا ، وكلاب ضخمة « وولف » ! .. وجىء ـ فى الوقت ذاته تقريبا ـ بجماعات أخرى ، ووزعونا على المساحة كلها ، فتكون منا شكل هندسى عديد الأضلاع ، بحيث كانت وجوهنا إلى الخارج ، حتى لا يرى كل منا الآخر . ثم امرنا بأن نركع على ركبنا . وأن نصوب انظارنا إلى الامام باستمرار ، وانبئنا بأن الموت جزاء يخالف .. ثم كان نداء الأسماء ، وهى عملية مهينة ، ولا نهاية لها ، استمرت ساعات وساعات ، ونحن ـ طيلة الوقت ـ ركوع على ركبنا . ثم نهضنا ، وامرت الجماعات الأخرى بالسير فى اتجاهات مختلفة . اما نحن ، فقد بقينا . وقيل لنا : « ها انتم اولاء .. هذا معسكركم ! » .. حقل فضاء ، مكشوف ، يكسوه الجليد ، وليس فيه سوى

عمود قائم فى وسطه ، يحمل هذا البيان : « جولاج ٩٢ ـ ى . ن ـ ٩٠ » ... وكان هذا كل ما هناك !

ـ اما نحن فان الأمور لم تصل معنا إلى هذا الحد من السوء ، فقد كنا احسن حظا . وكنت أنا فى الواقع اقضى « ثانى » مدة لى فى المعتقلات ، وقد اعقبت الأولى من تلقاء ذاتها .. ثم إن الحكم صدر على وفقا لمادة اخرى ، ومن ثم فان الظروف كانت مختلفة .. وعندما غادرت المعتقل ، رددت إلى مكانتى ـ كما كنت فى اول مرة ـ وابيح لى أن استأنف إلقاء المحاضرات الدراسية . ثم دعيت للخدمة بالطريقة العادية ، فلم الحق بكتيبة تأديبية مثلك !

ـ اجل .. المهم أنه لم يكن هناك سوى العمود ، واللوحة التى تحمل : «جولاج ٩٢ ـ ى . ن ٩٠ » . ورحنا ـ فى بادىء الأمر ـ نكسر الشجيرات بأيدينا ، فى الصقيع ، لنحصل على خشب لنشيد اكواخنا . وسواء صدقتنى أم لم تصدقنى ، فإننا بنينا معسكرنا بأيدينا ، فى النهاية ! .. اقمنا سجننا ، والسياج المحيط به ، و « زنزانات » العقاب ، وابراج مراقبتنا .. كل هذه بأيدينا نحن ! .. ثم شرعنا فى العمل الذى فرض علينا ، وهو قطع الأخشاب . فكنا نقتطع الأشجار ، وكنا نربط انفسنا كالخيل ـ كل ثمانية إلى زحافة ـ ونجر الخشب الغفل ، ونغوص فى الجليد حتى رقابنا .. ولقد مكثنا زمنا لا ندرى إنه كانت ثمة حرب ، إذا اخفوا عنا ذلك . ثم جاءنا هذا العرض بغتة : قالوا لنا أن بوسعنا ان نتطوع للخدمة فى خط الجبهة ، فى إحدى الكتائب التأديبية ، فاذا قدر

للواحد منا ان يخرج من الحرب حيا ، صار حرا ! .. وتلا ذلك هجوم اثر هجوم ، وميل بعد ميل من الأسلاك الشائكة المكهربة ، والألغام ، والمدافع الثقيلة .. وشهر بعد شهر تحت ستار من قذائف المدفعية . وكانوا يسمون فصيلتنا بفصيلة الموت . والواقع انها محيت تماما .. اما كيف قدر لى البقاء ، فهذا ما لست ادريه . ومع ذلك .. تصور ان كل هذا الجحيم المباشر ، لم يكن شيئا يذكر .. بل كان « نعيما » ، إذا قيس بأهوال معسكر الاعتقال ! .. ولم يكن ذلك من جراء الأحوال المادية ، وإنما كان لأسباب اخرى !

— حقا .. إنك خضت كثيرا من المحن !

— لم يكن غسيل الثياب هو كل ما تعلمناه هناك .. وإنما كنا نتعلم كل ما يمكن أن يتعلمه المرء !

— إنه لشىء غريب حقا ، لا بالنسبة لحياتك كسجين فحسب ، وإنما بالنسبة لكل شىء فى العقد الرابع من هذا القرن ، بل بالنسبة لظروفى المواتية فى الجامعة ، وسط الكتب والمال والرفاهية .. ذلك انه حتى بالنسبة لى هناك ، جاءت الحرب أشبه بنسمة عليلة .. ببشرى للخلاص .. بموجة مطهرة !

« إننى ارى ان الحركة الجماعية كانت خطأ وفشلا فى آن واحد . ولما لم يكن من الممكن الإقرار بذلك ، فقد كان من الضرورى استخدام كل وسيلة للتخويف والارهاب ، لحمل الناس على ان ينسوا كيف يفكرون ويحكمون — بينهم وبين انفسهم — ولغضبهم على أن يروا ما لم يكن له وجود ، وعلى

ان يقنعوا أنفسهم بعكس ما كانت اعينهم تحدثهم به . ومن هنا كانت قسوة إرهاب « ايجوف » التى لا مثيل لها ، وإعلان دستور لم تكن ثمة نية البتة لتطبيقه ، وعقد انتخابات لم تكن قائمة على مبدا التصويت الحر !

« وعندما نشبت الحرب ، كانت فظائعها الحقيقية ، وأخطارها الواقعية ، وما كانت تهدد به من موت فعلى .. كل هذه كانت نعمة إذا قيست بما كان للكذب من سلطان لا يمت إلى الإنسانية بصلة .. كانت مبعث راحة ، لأنها حطمت سحر الحروف الجامدة !

« ولم يكن هذا محسوسا لدى رجال فى مثل مركزك — فى معسكرات الاعتقال — فحسب ، وإنما لدى كل امرىء بلا استثناء ، سواء فى الوطن أو فى الجبهة . فتنفس الجميع الصعداء ، والقوا بأنفسهم فى اتون ذلك الصراع المميت ، المحرر ، باغتباط وابتهاج حقيقيين !

« إن للحرب طابعها الخاص ، كحلقة فى سلسلة العقود الثورية . فهى تبين نهاية المفعول المباشر للأسباب الكامنة فى طبيعة الانتفاضة ذاتها .. وقد أصبحت — الآن — ثمة أسباب ثانوية تعمل ، فنحن نرى ثمرة ثمرتها ، ونتيجة نتائجها .. شخصيات ذللها النحس والمحن ، فهى غير مفسودة ، ذات بسالة وبطولة ، مستعدة للقيام بأعمال جليلة ، مستبسلة لم يسمع لها بمثيل .. هذه الصفات الأسطورية ، المدهشة ، هى مظهر ازدهار هذا الجيل .

« إننى حين ارى مثل هذه الأشياء ، انعم بالسعادة ، بالرغم من استشهاد كريستينا ، وخسائرنا ، وجراحى .. وبالرغم من الثمن الفادح الذى دفعناه للحرب من دمائنا .. إن رؤية ضوء التضحية بالنفس ، الذى ينير ميتة اورليستوفا وحياتنا جميعا ، يساعدنا على احتمال ما منيت به بفقدها !

« لقد اطلق سراحى عندما كنت انت — أيها الصديق المسكين — تعانى كل هذا العذاب .. ولم تلبث « كريستينا » أن وفدت على الجامعة — بعد ذلك بقليل — لتدرس التاريخ ، فصرت أدرس لها .. وكنت قد انتبهت إليها — كفتاة رائعة — قبل ذلك بزمن طويل ، عندما كانت بعد طفلة ، فى نهاية المدة الأولى التى قضيتها فى السجن .. ولعلك تذكر ، فقد أخبرتك انت و « يورى » — وكان لا يزال على قيد الحياة — ومهما يكن الأمر ، فقد اصبحت كريستينا من تلاميذى .

« تلك كانت الفترة التى بدات فيها بدعة انتقاد الطلبة اساتذتهم . فاصبحت « كريستينا » اشد المتحمسين لذمى ، ولم استطع ان اتصور ما ارتكبت حتى اثيرها بهذه الضراوة ! .. كانت شديدة التهجم ، غير منصفة ، حتى أن الطلبة الآخرين كانوا يحتجون ويدافعون عنى ، فى بعض الأحيان . وكانت على قدر كبير من روح الفكاهة ، فكانت تغتبط ايما اغتباط بالتفكه بى والسخرية منى فى « صحيفة الحائط » ، مطلقة على اسماء مبتكرة كان كل امرىء يدرك اننى المقصود بها ! .. ثم تبينت فجأة — وبمحض المصادفة المطلقة — ان هذا العداء العميق ، لم يكن سوى ستار لحبها إياى .. حبا

قويا ، راسخا ، كانت قد أحست به منذ زمن طويل . وكنت اقابل عداءها دائما بمثله ، دون ان اعرف انها كانت تحبنى !

« وقضينا صيفا بديعا فى سنة ١٩٤١ ، قبيل وبعيد بداية الحرب مباشرة .. وكانت كريستينا ، ضمن فريق من الطلبة — رجالا ونساء — جندوا فى إحدى ضواحى موسكو ، حيث كانت وحدتى معسكرة كذلك . وبدات صداقتنا ، واخذت تجرى فى مجراها ، فى جو من تدريبهم العسكرى . وكان العمل يجرى فى تكوين وحدات الحرس الوطنى فى الضواحى ، فراحت كريستينا تتدرب لتكون فى فرق المظلات .. وكان الغزاة الألمان الأوائل يصادون من فوق سطوح بيوت موسكو ، ويصدون .. وفى تلك الآونة اصبحنا خطيبين — كما قلت لك — ولكننا اضطررنا إلى أن نفترق بعد ذلك مباشرة ، لأن كتيبتى نقلت .. ولم ارها ثانية اطلاقا !

« وبعد ذلك — عندما كانت الأمور تتحسن بالنسبة لنا ، وكان الألمان يتراجعون بالآلاف — نقلت من القوات المضادة للطائرات ، بعد أن كنت قد جرحت مرتين ، إلى اركان حرب الفرقة السابعة ، حيث كانوا بحاجة إلى من يعرفون اللغات . وهذا هو الذى مكننى من ان ادبر امر قبولك ، بعد ان كنت قد اصطدتك من قاع البحر ! » .

— إن « تانيا » ، عاملة المغسل ، كانت صديقة لكريستينا . فقد تعارفنا فى الجبهة . وهى كثيرة الحديث عنها .. هل لاحظت كيف تبتسم « تانيا » ، الابتسامة التى تشيع فى كل وجهها — على نسق يورى ؟ .. اراك نسيت الأنف

الأغطس ، والوجنتين البارزتين ، فانت تظنهـا جميلة جذابة .. إنها من عين الطراز الروسى الذى كان ينتمى إليه يورى ، والذى تصادفه فى كل مكان .

— أعرف ما الذى تعنيه .. لا ، لم الاحظ شيئا .

— يا له من اسم بربرى ، شنيع .. « تانيا المنبوذة » .. ليس من المحتمل انه كان اسمها الأصلى . وإنى لاتساءل ، كيف التقت به ؟

— لقد اخبرتنا بذلك .. كانت طفلة ضالة ، غير معروفة الوالدين ، اطلقوا عليهـا « بيزوشيريدنايا » — وهو تحريف لـ « بيزوتشـايا » ، بمعنى « بلا أب » — وكان ذلك حيث نشأت ، فى مكان ما فى اعماق الريف ، وحيث لا تزال اللغة نقية صريحة . ثم تحول الاسم فى المدينة — حيث لم يبد مفهوما ، وحيث يلتقط كل شىء فيصقل — إلى اسـم أكثر تمشـيا مع الأحداث ، واصطباغا برواء المدينة !

— ٣ —

قدر لجوردون ودودوروف — بعد هذا الحديث بفترة من الزمن — أن يكونا فى بلدة (كاراتشيف) ، التى كانت قد دكت دكا . وكانا لا يزالان يلاحقان وحدتهمـا ، وقـد وجـدا فى (كاراتشيف) بعض فلول المؤخـرة التى كانت تلحق بالقـوة الرئيسية .

وكان الصيف قائظا ، وقد ظل الجو خفيفا وراكدا لأكثر من شهر .وكانت الأرض السوداء تمتد — وقد ارهقها الحر —

تحت سماء زرقاء ، خالية من السحب .. أرض (بريانشتشينا) — المنطقة ذات الخصب المبارك ، بين (أوريل) و (بريانسك) — التى حرقتها الشمس فاحالت لونهـا بنيا ، أشـبه بلـون « الشيكولاتة » .

وكان الشارع الرئيسى يشق البلدة ، ويتصل فى نهايته بطريق السيارات الضاربة فى الريف ، وقد قامت على احـد جانبيه دور نسفت وتحولت — بفعل الألغام — إلى ركامات من فضلات البناء . وكانت هذه الأطـلال محوطة بأشـجار البساتين التى مسحت عن وجـه الأرض ، وقـد انتزعت من جذورها ، فتطايرت اجزاء منها ، واحترقت اخشابها .. أما قطع الأرض الخلاء — على الجانب الآخر من الشارع — فمن المحتمل انه لم تقم عليها مبان اصلا ، ومن ثم فان النار والخراب تجاوزا عنها ، إذ لم يكن فيها ما يلتهمانه !

وكان السكان المشردون ينقبون فى الرماد الذى لا يزال يتلظى — فى الجانب الذى كانت فيه المنازل من قبل — يلتقطون كل ما يمكن التقاطه من مختلف أركان الخرائب ، ويجمعونها كلها فى مكان واحد . بينما كان سواهم يحفرون — فى عجلة — خنادق ليقيموا فيها مآوى تحت سـطح الأرض ، ويقطعون حزما من الحشـائش ليتخذوا منها سقوفا .

اما البقاع الفضاء — على الجانب الآخر من الشـارع فقد ابيض لونها بما تناثر عليها من خيام ، وازدحمت بسيارات النقل والعربات التى تجرها الخيـل ، والتى تنتمى إلى كافة انواع الخدمات المساعدة .. فكانت ثمة مركبات إسعاف ، من وحدات الميدان ، قد ضلت عن فرقها ، واقسام من كل إدارات

المهات الحربية ، وقد امتزج أفرادها بعضهم ببعض ، وغاصوا وسط الخيام ، ثم راح كل فريق يحاول ان يلم شمل افراده .. وهنا ايضا كان ثمة فتيان — من فصائل التعزيزات والاستحكامات — عجاف ، أشبه بعروق العشب ، ذوو قلنسوات فى لون التبن الأسمر ، ومعاطف ثقيلة طووها فوق ظهورهم ، ووجوه مغبرة ، اهزلتها الديسنطاريا وامتصت دماءها . وقد تخففوا من أمتعتهم ، وناموا ، وحظوا باكل خفيف ، قبل أن يواصلوا سعيهم صوب الغرب .

وكان نصف البلدة المنسوفة ، الممزقة ، ولا يزال يحترق ، والانفجارات لا تزال تتردد فى الفضاء حيث كانت الألغام البطيئة المفعول .. فكان القوم المنهمكون فى الحفر والتنقيب يشعرون — بين آن وآخر — بموجات الاهتزازات الناجمة عن الانفجارات ، تحت اقدامهم ، فيعتدلون فى وقفتهم ، ويستندون إلى معاولهم ، ويستريحون وهم يلتفتون وينظرون ناحية الانفجار .

هناك كانت سحب من دخان بلون الطوب الاحمر ، يشوبه اسمرار وسواد ، ولهب وشظايا احجار تتصاعد إلى السماء فى اندفاع النافورات — فى بادىء الأمر — ثم بمزيد من التكاسل ، كأنها قاذورات ترتفع متثاقلة عن الأرض ، ثم بانفراج وانتشار وكأنها مروحة يتفتح ريشها ويتباعد ، ولم تلبث ان تبعثرت فى النهاية ، وهوت عائدة إلى الأرض .. وإذ ذاك عاد الذين كانوا يحفرون إلى الحفر .

* * *

وبين البقاع الخلاء المواجهة للخرائب ، كان ثمة حقل يحف به سياج ، وتطل عليه أشجار ضخمة ، وارفة ، وقد لاح الحقل — فى ظلال الأشجار ، ونطاق السياج — كما لو انه ساحة مسقوفة فصلت عن بقية الدنيا ، ظليلة ، عليلة ، تملأها عتمة خفيفة وتتوفر فيها الخلوة .. وهنا كانت « تانيا » عاملة المغسل ، وعدة افراد آخرين من الكتيبة بينهم دودوروف وجوردون ، ينتظرون منذ الصباح سيارة النقل التى أرسلت لنقل الفتاة .. وكان غسيل الكتيبة الموكول إليها محزوما فى صناديق وضع كل منها فوق الآخر فى الحقل . وكانت «تانيا» تراقب هذه الصناديق بيقظة ، دون أن تبتعد عنها خطوة واحدة .. وكذلك كانت بقية الثلة لا تحول اعينها عنها ، خشية ان تفوتها فرصة الانتقال فى السيارة !

وطال بهم الانتظار إلى اكثر من خمس ساعات . وإذ لم يكن لديهم ما يشغلهم ، فقد أقبلوا ينصتون إلى الفتاة التى رات فى حياتها كثيرا من الأمور ، والتى كانت تثرثر دون انقطاع . وكانت فى تلك اللحظة تروى لهم كيف التقت بالميجر جنرال جيفاجو :

— لقد قابلته فعلا ، وكان ذلك بالأمس . فلقد اخذونى شخصيا لأقابل القائد ، الميجر جنرال جيفاجو نفسه ! .. كان يمر بهذه المنطقة ، وكان مهتما بكريستينا ، وقد وجه إلى اسئلة عنها .. كان راغبا فى أن يرى شهود عيان عرفوها فى حياتها ، ولذلك ذكرونى لديه ، وقالوا إننا كنا صديقتين ، فطلب إليهم ان يحضرونى إليه ، ومن ثم جاءوا يستدعوننى .. ولم يكن مخيفا فى شىء ، وما من شىء خاص يميز شخصيته ،

فهو كأى شخص آخر ! .. وله عينان منحرفتان ، وشعر اسود . المهم فى الأمر ، اننى اخبرته بكل ما كنت اعرف . واصغى إلى حتى انتهيت ، فشكرنى وقال لى : «ومن انت ؟.. من أين قدمت ؟» .. ومن الطبيعى اننى لم اكن اعتزم ان انبئه، إذ ما الذى لدى حتى ازهو به ؟ .. اننى شريدة — كما تعلمون — ترددت على الاصلاحيات ، ولم يستقر بى المقام يوما فى مكان . ولكنه لم يشأ أن يدعنى وشأنى ، بل قال : « هيا تكلمى ، ولا تدعى الحياء يغلبك ، فليس ثمة ما تخجلين منه » . حسنا ، لم البث — فى بادىء الأمر — ان ذكرت له كلمة أو اثنتين ، فى غمرة الخجل .. ثم افضيت له بقليل من البيانات الأخرى ، فظل يهز رأسه وكأنه يقول لى : « امضى فى حديثك ! » ، ولهذا ازددت اقداما . والحق ان لدى الكثير مما يقال .. وما اراكم تصدقون لو اننى قلته لكم ، بل احسبكم ستقولون : « انها تتظاهر بما ليس لها ! » .. حسنا ، لقد كان هذا الشأن معه هو الآخر . وعندما فرغت ، نهض وراح يذرع أرض الكوخ ، ثم قا ل: « سبحان الله ! .. ليس لدى متسع من الوقت الآن ، ولكنى سأستدعيك مرة أخرى .. ثقى من هذا ، سأطلبك وسأستدعيك ثانية .. ما تصورت قط اننى سأسمع مثل هذا ! .. لن ادعك هنا ، ولكننى مضطر إلى ان اتحرى بعض بيانات قلائل . ثم ، من يدرى ؟ .. قد اجدنى مسوقا إلى أن اعلن اننى عمك ، فيرقى شأنك إذ تصبحين ابنة أخ القائد ! .. وسوف أرسلك للدراسة وأوفر لك وسائل التعلم ، فى أى معهد شئت » ! .. اشهد الله على أن هذا كان ما قاله .. يا له من رجل يجيد الضحك والمداعبة !

وفى تلك اللحظة ، أقبلت على الحقل عربة طويلة ، فارغة ، ذات جوانب مرتفعة ، من ذلك النوع الذى يستخدم فى نقل التبن فى بولندا وغربى روسيا .. وكان يقود الجوادين — الملجمين إلى ذراعى العربة — جندى من سلاح النقل بالجياد ، ممن كانوا يسمون فى ماضى الأيام « حوذية العلف » .. فأوقف الجوادين ، وقفز من مجلسه ، وشرع يفك جوانب المركبة . والتف كل امرىء حوله — اللهم الا « تانيا » وجندى او اثنان — وراحوا يلحون عليه ان يقلهم إلى حيث كانوا ماضين ، ذاكرين له — طبيعة الحال — انهم كفيلون بارضائه ! .. بيد أن الحوذ رفض ، قائلا انه لم يكن يملك ان يستخدم العربة أو الجوادين الا فيما أمر به . وقاد الجوادين بعيدا ، ثم اختفى عن الانظار .

وصعدت « تانيا » والجنود — الذين كانوا حتى ذلك الحين جلوسا على الأرض — إلى العربة الخالية ، التى تركت فى الحقل .. واستؤنف الحديث الذى كان وصول العربة والمساومة مع الحوذى قد قطعاه ، فقال جوردون سائلا تانيا : « وماذا قلت للجنرال ؟ .. انبئينا ، إذا كان هذا فى وسعك !» .

ومن ثم ، روت لهم قصتها الرهيبة !

— ٤ —

اجل ، انه لحق ان لدى الكثير مما يقال .. فهم يقولون إننى من أصل رفيع .. ولست ادرى ما إذا كان الذين انبئونى بهذا اغرابا ، أم اننى كنت اطوى عليه صدرى .. بيد اننى سمعت ان امى — الرئيسة كوماروفا — كانت زوجة وزير روسى ، هو الرفيق كوماروف ، الذى كان مختفيا فى منغوليا

البيضاء .. بيد انه يلوح ان هذا الـ « كوماروف » لم يكن ابى الحقيقى .. ولا انكر طبعا اننى لست فتاة متعلمة ، واننى نشأت يتيمة ، بلا ام ولا اب . وقد يبدو لكم ما اقول طريفا ، غريبا ، ولكنى لا اروى سوى ما أعرف .. وضعوا انفسكم فى مكانى لتقدروه !

« لقد جرى كل شىء فيما وراء (كروشيتسى) ، فى الطرف الأقصى من (سيبريا) ، خلف حدود بلاد القوزاق ، وبالقرب من الحدود الصينية .. فعندما دخلنا ـ اقصد الحمر ـ إلى البلدة الرئيسية للبيض ، وضع ذلك الـ « كوماروف » ـ الوزير ـ امى وجميع خدمها واهل دارهما فى قطار خاص ، وامر بنقلهم بعيدا .. وكانت امى خائفة ، إذ انها ـ كما ينبغى ان تعلموا ـ لم تكن تجسر على الانتقال خطوة بدونه .

« اما انا ، فلم يكن كوماروف يدرى عنى شيئا .. لم يكن يعرف ان ثمة شخصا ـ هو انا ـ على الإطلاق . إذ ان امى انجبتنى بعد ان كانت قد افترقت عنه امدا طويلا ، فكانت فى خوف مميت من أن يزل لسان امرىء ما ، فيسمع بأمرى .. وكان يكره الأطفال ، ويصرخ ويدق الأرض بقدميه حين يراهم وكان يصيح : « انهم لا يجلبون على البيت سوى القذارة والازعاج .. اننى لا اطيقهم ! » .

« حسنا ، ايجازا للقول ، اذكر ان امى بعثت رسولا إلى المحطة (ناجورنايا) ـ حين شرع الحمر يدخلون البلدة ، كما ذكرت ـ تطلب « مارفا » ، عاملة الاشارة بالسكة الحديدية .. وكانت تلك المحطة على مبعدة ثلاث محطات من البلدة . وسأذكر لكم كيف كان ترتيبها .. كانت هناك ـ اولا ـ

(نيزوفايا) ، التى تقوم فى الوادى ، ثم (ناجورنايا) التى كانت فى أعلى التل ، ثم كان هناك ممر (سمسون) .. وهنا ، يخيل إلى اننى ادرك سبب معرفة امى لهذه المراة عاملة الاشارة . .إذ اظن أن عاملة الاشارة « مارفا » اعتادت ان تفد على البلدة لتبيع فيها اللبن والخضر . اجل ، ولا بد ان الأمر كان كذلك ..

« واعتقد ان هناك شيئا لا اعرفه .. ويلوح لى انهم خدعوا ماما ولم ينبئوها بالحقيقة . ولا يعلم سوى الرب اية قصة رووها لها ، واحسبهم قالوا إن الأمر كان لأمد وجيز ، مجرد يوم او اثنين .. ريثما ينتهى الاضطراب ، وتستقر الأمور فحسب ! .. ولكنهم لم يقولوا لها اننى كنت ساعطى للأغراب إلى الابد .. سأربى بين اغراب . فما كانت ماما لتتخلى عن طفلتها ـ التى من لحمها ودمها ـ على هذا النحو!

« وبعد ، فأنتم تدركون كيف يسهل التحايل على طفلة .. « اذهبى فكلمى الخالة . .لسوف تعطيك حلوى ، هذه الخالة الرقيقة .. لا تخافى الخالة ! » . لكم بكيت بعد ذلك حتى نضب معين عينى ! . .وكم ارهقت قلبى بالشقاء ، وانا طفلة ! ... يحسن أن لا اشرع فى الحديث إليكم عن هذا .. لقد اردت ان اشنق نفسى ، بل اوشكت ان افقد عقلى وانا طفلة صغيرة . وهكذا كنت طيلة الوقت .. واحسب ان الخالة «مارفا» كانت تحصل على نقود لتكلفنى .. مبلغ كبير !

« وكانت للخالة مارفا مزروعة إلى جانب العمل فى اشارات السكك الحديدية ، وبقرة وحصان وكافة انواع الدواجن طبعا ، ورقعة كبيرة لزراعة الخضر .. فهناك كان

بوسعكم أن تحصلوا على قدر ماتودون من الأرض .. ولم تكن تدفع إيجارا بطبيعة الحال ، وكان لها كوخ حكومى بالقرب من السكة الحديدية . وعندما كان القطار يفد من ناحية موطنى ، كان يتسلق التل بعناء ، إذ كان هذا شديد الانحدار .. أما حين كان يفد من بقاعكم — من روسيا — فانه كان ينحدر بسرعة كبيرة ، حتى لقد كانوا يضطرون إلى استعمال « الفرامل » .. وفى الخريف ، كان باستطاعتكم حين تخف كثافة الغابات ان تروا محطة (نيزوفايا) ، كأنها طبق صغير .

« وكان العم فاسيا ، هو زوج الخالة مارفا .. وقد اعتدت ان اناديه « بابا » ، على عادة الفلاحين . وكان رجلا كريما ، بشوشا ، ولكنه كان صريحا إلى حد فظيع ، لا سيما حين كان يثمل .. فكان كل امرىء يعرف كل ما يمكن ان يعرف عنه . كان يفتح أبواب قلبه لكل غريب يلقاه !

« ولكننى لم استطع اطلاقا ان ادعو عاملة الاشارة « ماما » .. سواء لاننى لم اكن اقوى على نسيان أمى الحقيقية ، أو لسبب آخر .. ولكنها كانت فظيعة .. كانت فظيعة حقا . ومن ثم فاننى كنت ادعوها « الخالة مارفا » ..

* * *

« وهكذا مضى الزمن ، وتوالت السنون ، وإن كنت لا ادرى كم سنة .. وبدات اهرع لألوح براية الإشارة للقطارات ، واصبحت اقوى على أن اقود البقرة إلى الحظيرة ، أو ان افك سرج الحصان .. وعلمتنى الخالة مارفا كيف اغزل .. أما عمل البيت ، فلا حاجة بى إلى القول باننى كنت اقوم به .. اى شىء من قبيل الكنس ، والتنظيف ، أو انجاز بعض

الطهو .. كل هذا لم يعد شيئا عسيرا على ، فكنت أؤدى هذه الأعمال جميعا . آه ، اجل .. لقد نسيت ان انبئكم باننى كنت مكلفة ايضا بالعناية بالطفل «بتيا» .. كان عزيزنا «بتيا» ذا ساقين متقلصتين ، وكان فى الثالثة ، بيد انه لم يكن يقوى على المشى اطلاقا ، فكنت احمله طيلة الوقت .. ان الرجفة لا تزال تسرى فى ظهرى — برغم انقضاء كل هذه السنين حين اتذكر كم كانت « الخالة مارفا » ترمق ساقى وكأنها تريد ان تتساءل : لماذا لم تكن ساقاى متقلصتين معوجتين ، وإنه كان من الأفضل أن تكون ساقاى هما المتقلصتان ، بدلا من ساقى طفلها « بتيا » . كأنما كنت انا التى نكبته بالنحس ! .. فهل تستطيعون أن تصدقوا أن ثمة اناسا فى الدنيا بغيضون ومتأخرون إلى هذا الحد ؟

« ولكن ، انصتوا الآن إلى ما سوف اقوله لكم .. كل هذا لم يكن شيئا يذكر إلى جانب ما حدث فيما بعد .. لسوف تدهشون !

« كان ذلك فى عهد السياسة الاقتصادية الجديدة ، والألف روبل لا تساوى فى قيمتها « كوبيك » واحدا .. وقد باع العم فاسيا بقرة فى (نيزوفايا) ، وحصل على زكيبتين مليئتين بالنقود التى كانوا يسمونها « كيرينسكى » .. لا ، آسفة ، فقد كانوا يسمونها « الليمون » إذ ذاك .. اجل ، هكذا كانوا يسمونها . وقد سكر العم فاسيا ، وراح يحدث كل امرىء فى (ناجورنايا) عن مدى ثرائه !

« واذكر انه كان يوما شديد الريح، من ايام الخريف .. وكانت الريح تعصف بالسقف ، وتكاد ترفعك عن الأرض ،

فلم تستطع القطارات أن تصعد التل ، لأن الريح كانت عكس اتجاهها ! .. وفجاة ، إذا بى أرى عجوزا متسولة تهبط من فوق التل ، والريح تملأ ذيل ثوبها ، وتعبث بمنديلها .. وكانت تسير وهى تئن وتتوجع ، وقد شدت يديها إلى بطنها ..

« وسألتنا أن ندخلها لدينا ، فدعوناها ، وأجلسناها على مقعد خشبى . وراحت تصرخ : « أواه ، لا أستطيع أن احتمل .. أن النار تدب فى بطنى . إن الموت يهاجمنى .. خذونى إلى المستشفى بحق المسيح ، وسأدفع لكم ما تشاءون ! » .. وعمد « بابا » إلى الجواد « أودالوى » فشده إلى العربة .. ووضع العجوز فى العربة ، وأقلها خمسة عشر فرسخا ، إلى المستشفى .

« وبعد ساعات ، ذهبنا إلى الفراش — أنا والخالة مارفا — ولكنا لم نلبث أن سمعنا « أودالوى » يصهل فى الخارج ، والعربة تدرج إلى الفناء .. وبدا أنهما عادا فى وقت أقصر مما كانت تستغرقه العودة . بيد أن الخالة مارفا لم تجد بدا من أن تشعل المصباح ، وأن ترتدى سترتها ، وترفع مزلاج الباب ، دون أن تنتظر « بابا » حتى يطرقه ..

« وفتحت الباب ، ولكن « بابا » لم يكن الواقف بالباب ، وإنما كان الواقف رجلا غريبا ، أسمر ، رهيبا ، قال : « أرينى أين النقود التى حصلتم عليها ثمنا للبقرة ! .. لقد قتلت رجلك الكهل فى الغابة ، ولكنى — نظرا لأنى امرأة — سابقة عليك ، إذا أنت أخبرتنى أين النقود .. فإذا لم تخبرينى ، فأنت تعرفين ما سوف يجرى ، ولن تلومى الا نفسك .. ويحسن أن لا تستبقينى فى الانتظار ، فليس لدى وقت للتلكؤ ! »

« فيا لله القدير أيها الرفاق .. ضعوا أنفسكم فى مكاننا . وتصوروا الحال التى صرنا عليها ! .. رحنا نرتجف من رأسينا إلى أقدامنا ، وقد كدنا نموت فزعا ، ولم نستطع أن ننطق بكلمة واحدة .. يا لها من أهوال ! .. فأولا ، كان العم فاسيا قد قتل ، إذ قال الرجل ذلك بنفسه .. قال إنه قتله بفأس .. وأصبحنا وحيدتين أمامه ، وحيدتين فى البيت مع قاطع طريق .. قاطع طريق فى دارنا .. وكان بوسعنا أن نرى أنه قاطع طريق !

* * *

« وأحسب أن عقل الخالة مارفا قد طاش فى تلك اللحظة ، إذ انكسر قلبها من أجل زوجها ، دون أن تقوى على إظهار حزنها ..

« وارتمت — أولا — على قدميه ، وهى تقول : « ارحمنى ، ولا تقتلنى ، فلست أعرف شيئا .. أبدا لم أسمع عن أية نقود .. لست أدرى أية نقود تتحدث عنها » .. ولكنه لم يكن ليخدع بهذا ، فما كان بالأحمق المغفل .. ذلك الشيطان ! .. وتحولت تقول له : « ليكن ، إذن .. أن النقود فى السرداب ، وسأفتح لك بابه ! » .. ولكنه فطن إلى ذلك ، فقال : « لا ، بل ستهبطين أنت ، فأنك تعرفين السبيل ، وعليك أن تحضرى النقود .. لست آبه إذا هبطت إلى القبو أو صعدت إلى السقف ، فكل ما أبتغيه هو النقود .. ولكن ، حذار من أن تحاولى أن تغررى بى ، فلن يجديك أن تحاولى استغفالى ! » .

« وإذ ذاك قالت له : « معاذ الله أن تكون لديك مثل هذه الشكوك . إننى على استعداد لأن أهبط عن طيب خاطر ،

وان احضرها لك بنفسى ، لولا أن ساقى لا تكاد أن تحملانى ، ولست أستطيع هبوط السلم .. سأقف على الدرجة العليا ، أحمل لك المصباح . لا تخش شرا ، فسوف أرسل ابنتى لتهبط معك ! » .. هكذا قالت ، وكنت انا المقصود بقولها . اواه ، ايها الرفاق ! .. هل بوسعكم ان تتصوروا ما اصابنى حين سمعت ذلك ؟ .. الحق اننى قلت فى نفسى إن نهايتى قد حانت ، فاسود كل شىء فى عينى ، ولم تعد ساقاى تقويان على حملى ، فخيل إلى اننى أوشك ان اخر على الأرض !

« ولكن الشيطان كان يقظا ، حاضر البديهة ، فنظر إلى كل منا ، ثم اجال إنسانى عينيه فى محجريهما ، ورمقها بنظرة خبيثة ، فيها شىء من السخرية ، وكأنه يقول : « إننى اعرف حيلك ، فلن تستطيعى ان تغررى بى ! » . فلقد استطاع ان يتبين اننى لم اكن اعنى شيئا لها ، لم اكن من دمها ولحمها ، ومن ثم فقد امسك بتلابيب « بتيا » ، ورفعه باحدى يديه ، وجذب باب القبو بيده الأخرى . وقال لها : « آتينا بنور ! » . ثم هبط .. نزل السلم إلى جوف الأرض . ومعه « بتيا » ..

« واعتقد انها فقدت عقلها تماما ، ولم تعد تفقه شيئا .. لقد جنت تماما! .. وما إن هبط الرجل مع « بتيا » الصغيرة ، حتى دفعت باب القبو بعنف ، واحكمت رتاج بابه ، وشرعت تزحزح حقيبة ثقيلة لتضعها فوقه ، وهى تومىء إلى وتشير كى اساعدها ، لأن الحقيبة كانت مفرطة الثقل .. واستطاعت ان تجعلها فوق الباب ، ثم جلست فوقها .. وما كان اشد سرور العجوز المخبولة ، إذ ذاك !

« وما إن جلست ، حتى راح الشرير يصرخ ويدق سقف القبو .. وما كان بوسعك أن تميز ما كان يقول ، فان خشب الارضية كان شديد السمك . ولكنك كنت تستطيع ان تدرك من صوته ما كان يقصده .. كان يطلب إليها ان تدعه يخرج ، والا قتل « بتيا » . وراح يزار فى ضراوة تفوق ضراوة الوحش المهتاج ، ليثير الذعر فى نفسينا .. ومضى يصرخ : « سيروح عزيزك بتيا ، لقاء هذا ! » . ولكنها لم تكن تفقه شيئا ، فراحت تضحك ، وتغمز لى بعينها ، وكأنها كانت تقول : « دعيه يصرخ ما شاء له الصراخ ، فاننى اجلس فوق الحقيبة ، وقد ضممت قبضتى على المفتاح ! » وقلت لها كل ما كان من الممكن ان يخطر ببالى . درجت اصرخ فى اذنيها ، قائلة إن عليها ان تفتح باب القبو لتنقذ بيتا .. وحاولت ان ادفعها عن الحقيبة ، ولكننى لم أستطع ، فقد كانت أقوى منى ، ولم تشأ أن تنصت لى !

« وقصارى القول انه راح يدق السقف ، ويدق ، والوقت يمر ، وهى جالسة تحملق بعينيها ، ولا تصغى إلى شىء .. حسنا ، بعد فترة من الوقت .. اواه يا رب ، اواه يا رب ! .. اى شىء لم اره ، ولم اجتزه فى حياتى ! .. ومع ذلك ، فاننى لم اصادف مثل هذا الهول مرة اخرى ! .. لسوف اظل — ما حييت — اسمع صوت «بتيا» الرفيع ، الواهن .. لقد راح « بتيا » الصغير يصرخ ويتأوه ، تحت الأرض .. فلقد راح ذلك الشيطان يعض الطفل البرىء حتى قضى عليه !

« وبعد ، فماذا كان على أن افعل ؟ .. ماذا كنت أملك ان افعل بهذه العجوز المجنونة ، وهذا القاتل ؟ .. وشرعت

افكر فى نفسى ، والوقت يجرى .. وما إن فكرت فى الأمر » حتى سمعت « اودالوى » يصهل فى الخارج ، فقد كان يقف طيلة الوقت فى الفناء ، مسرجا ، على اتم استعداد .. اجل ، هذا ما حدث . كان « اودالوى » يصهل وكأنه يقول : « لنهرب يا تانيا ، ولنبحث عن بعض أهل الخير ، وننشد عونهم ! » .. واطللت من النافذة ، فتبينت ان الفجر كان يقترب . وقلت فى نفسى : « فليكن ! .. شكرا لك يا اودالوى إذ اوحيت إلى بالفكرة ! .. ليكن ! لننطلق ! » . .ولكننى لم اكد افكر فى هذا ، حتى خيل إلى اننى أسمع صوتا آخر ، كأنما كان يناديني من وراء الغابة : « انتظرى ، لا تتعجلى يا تانيا ، فسندبر الأمر بطريقة اخرى ! » .. ومرة اخرى ، ادركت أننى لم اكن وحيدة فى الغابة . فمن بعد ، كانت قاطرة تطلق صفيرها ، وكأنها ديك يصيح فى فناء دارنا بالذات . وكنت اعرف تلك القاطرة بصفيرها ، فقد كانت تقف دائما متأهبة ، ممتلئة بالبخار ، فى (ناجورنايا) .. كانوا يسمونها «المعبرة» — (المعدية) — إذ كانت تساعد قطارات البضائع على تسلق التل . وفطنت إلى ان ثمة قطارا مشتركا كان مقبلا ، وقد اعتاد ان يمر بنا فى مثل ذاك الوقت من كل ليلة .

« وموجز القول أننى سمعت هذه القاطرة ، وادركت انها تنادينى من بعد . ورحت انصت وقلبى يقفز فى صدرى . وساءلت نفسى : افقدت عقلى انا الأخرى — كالخالة مارفا — حتى اخال ان كل حيوان حى ، وكل قاطرة صماء تتحدث إلى بلغة روسية واضحة ؟ .. على انه لم يكن للتفكير من نفع ، إذ كان القطار يقترب ، ولم يكن ثمة وقت للتفكير .. وامسكت

بالمصباح ، إذ لم يكن ضوء الفجر قد وضح بعد ، واسرعت كالمجنونة إلى الخط الحديدى ، ووقفت فى الوسط ، بين القضيبين ، الوح بالنور إلى اعلى وإلى اسفل !

* * *

« وبعد ، فلماذا بقى ليقال ؟ .. لقد اوقفت القطار ، فقد كان — لحسن الحظ — يسير بطيئا بسبب الريح .. بطيئا ، حتى انه لا يجاوز خطوات السائر على قدميه .. اوقفته ، فمال السائق — الذى كان يعرفنى — خارج نافذة قمرته ، وصاح موجها إلى الخطاب ، ولكننى لم اتبين قوله ، من جراء الريح .. وصحت انبئه بأن ثمة قاطع طريق قد سطا على كوخ الإشارة .. قتل وسرقة .. شرير فى الدار ، فساعدنا أيها الرفيق العم ، فنحن فى حاجة إلى نجدة عاجلة .. وبينما كنت اقول هذا ، قفز رجال الجيش الأحمر من القطار ، واحدا اثر الآخر .. فقد كان القطار يقل جنودا .. اجل ، كان قطار جيش .. وقفزوا هابطين إلى الخط الحديدى .. وتساءلوا : « ماذا هناك ؟ » . فما كانوا ليتصوروا سببا لوقوف القطار فى غابة ، على سفح تل منحدر ، فى الليل .. وكان القطار قد وقف تماما . وعندما سمعوا منى كل ما حدث ، ذهبوا فجروا قاطع الطريق إلى خارج القبو . وكان يصرخ بصوت ارفع من صوت بتيا : « ارحمونى أيها الطيبون . ولا تقتلونى .. لن اعود إلى هذا العمل ثانية ! » .. لكنهم جعلوا من أنفسهم قضاة ، فجرجروه إلى «الفلنكات»، وارقدوه عليها ، ثم شدوا يديه وقدميه إلى القضبان ، وساقوا القطار فوقه !

« ولم اعد ابدا ، ولو لآخذ ملابسى ، فقد كنت فى خوف شديد .وسالتهم ان يأخذونى معهم فى القطار ،فأركبونى معهم، وانطلقت .. وطفت بعد ذلك بنصف اقليمنا ، وبأقاليم اخرى، مع المشردين .. بل التى لا أدرى مكانا لم امر به . ولست ابالغ !.. ويا للسعادة ، ويا للحرية اللتين عرفتهما بعد كل احزان طفولتى ! .. وإن كان جديرا بى أن اذكر انه كان ثمة كثير من الشر والشقاء ، كذلك ! .. بيد أن هذا كله وقع فيما بعد ، وسوف ارويه لكم فى وقت آخر ..

« وفى تلك الليلة — التى كنت أحدثكم عنها — اقبل احد موظفى السكك الحديدية فى قطار ، وذهب إلى الدار ليتسلم ممتلكات الحكومة ، وليصدر تعليماته بشأن الخالة « مارفا » ، وليدبر ما ينبغى ان يجرى من اجلها .. ويقول البعض إنها لم تشف اطلاقا ، وانها ماتت فى مستشفى المجانين .. ولكن غيرهم يقول انها تحسنت وغادرت المستشفى » .

* * *

● وبعد ان استمع جوردون ودودوروف إلى قصة « تانيا » ، راحا يتمشيان تحت الأشجار — فى صمت — لفترة طويلة ، ثم اقبلت سيارة النقل ، وتحولت فى عنف عن الطريق، إلى الحقل . فرفعت إليها الصناديق .. وقال جوردون :

— هل ادركت من تكون .. تانيا ، عاملة المغسل ؟

— أجل .. طبعا !

ثم اردف بعد صمت : « لسوف يعنى بها « ايفجراف » .. لقد حدث هذا عدة مرات ، فى مجرى التاريخ .. حدث ان تحول شىء لم يخطر بالبال إلا بطريقة مثالية ، خيالية ،

إلى حقيقة مادية واقعة ! .. هكذا نشأت روما عن بلاد الأغريق ، ونشأت الثورة الروسية عن تنور الروس !.. تأمل ذلك السطر من اشعار بلوك : « نحن ، معشر الأطفال الذين تمخضت عنهم سنوات روسيا الرهيبة ! » .. بوسعك ان تلمح اختلاف الزمن فى الحال .. لقد كان — حين قال هذه العبارة ، فى زمنه — يقولها مجازا وتورية .. فما كان الأطفال اطفالا ، وإنما كانوا ابناء الطبقة المثقفة ، وخلفاءها .. ولم تكن السنون الرهيبة رهيبة ، وإنما كانت غامضة ، مبهمة ، اشبه بالرؤيا التى تكشف عن المرجو من المستقبل .. وهكذا ترى ان الأمر كان مختلفا .. اما الآن ، فقد اصبح المعنى المجازى معنى حرفيا ، فإن الأطفال أطفال ، والرهبة رهيبة .. ها هو ذا الفارق ! »

— ٥ —

● فى امسية هادئة من امسيات الصيف فى موسكو — بعد خمس سنوات أو عشر — اجتمع « جوردون » و « دودوروف » ثانية ، وقد جلسا بجوار نافذة تطل من عل على المدينة الهائلة التى كانت تمتد فى جنح الظلام . وكانا يقلبان صفحات كتاب من مؤلفات « يورى » التى كان « ايفجراف » قد جمعها .. كتاب كانا قد قرآه اكثر من مرة ، حتى أوشكا أن يحفظاه عن ظهر قلب !

واخذا — فى الفترات التى كانت تتخلل القراءة — يتبادلان الآراء والتأملات ويسرحان مع افكارهما .. وما لبث أن اشتد الظلام حتى لم يعودا يستبينان الحروف ، واضطرا إلى ان يضيئا النور .

وكانت موسكو تمتد تحتهما إلى أطراف الأفق .. موسكو مسقط رأس المؤلف ، وموطن نصف كل ما وقع له .. لقد تراءت لهما إذ ذاك ، لا كمكان وقعت فيه كل هذه الأحداث ، وإنما كبطلة فى قصة طويلة ، كانا يشرفان فى تلك الليلة — والكتاب بين أيديهما — على نهايتها !

ومع أن النور والتحرر اللذين كان من المرتقب أن يجيئا فى أعقاب الحرب ، لم يجيئا مع النصر ، إلا أنه كانت ثمة بارقة من الحرية فى الجو ، خلال هذه السنوات التالية للحرب ، فكانت هى المعنى التاريخى الأوحد لتلك السنين .

ولاح للصديقين المكتهلين ، الجالسين إلى جوار النافذة ، أن روح الحرية هذه كانت موجودة ، وأن المستقبل قد أصبح — فى تلك الليلة بالذات — مندمجا فى الشارع الممتد تحتهما ، وأنهما هما الآخران قد دخلا هذا المستقبل ، وقدر لهما أن يصبحا — من الآن فصاعدا جزءا منه !

وشعرا بغبطة وادعة بهذه المدينة المقدسة ، وبكل البلاد ، وبمن قدر لهم البقاء من أولئك الذين قاموا بدور فى هذه القصة ، وبأطفالهم ، وبموسيقى السعادة الصامتة التى ملأتهما ، ولفتهما ، وانتشرت فى طول الحياة وعرضها ..

ولاح أن الكتاب الذى كان بين أيديهما قد أدرك ما كانا يشعران به ، فآزرهما ، وطمأنهما !

المطبعة العربية الحديثة

٨ شارع ٤٧ بالمنطقة الصناعية بالعباسية

تليفون : ٨٢٦٢٨٠ القاهرة



إصدار جديد

عزيزى القارئ ..

فى الكتب الثلاثة السابقة ، قدمت لك الأجزاء الثلاثة الأولى من الترجمة (الكاملة) الأمينة لملحمة العصر هذه (دكتور چيڤاجو) ، واليوم أقدم لك فى هذا الكتاب الذى بين يديك الجزء الرابع والأخير من هذه الترجمة . وبذلك يكتمل لك النص الكامل لهذه الملحمة التى استحق المؤلف من أجلها جائزة نوبل للأدب فى أكتوبر ١٩٥٨ . ولو أن القدر لم يشأ للكتاب أن ينشر فى روسيا عقب تأليفه ، وإنما نشر أول ما نشر فى الخارج ، وترجم إلى مختلف اللغات ، أما نصه فلم ينشر باللغة الروسية إلا أخيرًا ، فى هذا العام فقط (١٩٨٩) بعد ٣١ سنة من تأليفه .. ومع ذلك فإن (باسترناك) لم يرهب الموقف ولم يتراجع عن « أن يقف منتصبًا أمام اسمه » على حد تعبيره ، وحين سأله أحد الصحفيين عقب فوزه بالجائزة عن رأيه فى الضجة التى أحاطت بالكتاب ، أجاب ببشاشة واطمئنان : « جدير بك أن تسألنى عما إذا كنت أومن بما كتبت » . وجوابى هو : « نعم ، لقد شهدت أحداث الثورة بنفسى ، وسجلتها كما يسجلها أى فنان صادق ! » . وهكذا رفض (باسترناك) جائزة نوبل احترامًا لسياسة بلاده ، ولكنه لم ينبذ كتابه ، ولم يتنكر له ..



حلمى مراد